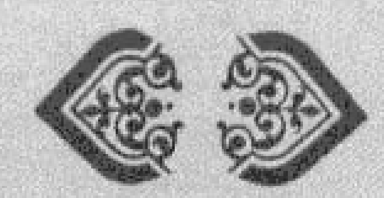


مشاهد القيامة في القرآن



سيد قطب

دار الشروق

مشاهد القيامة
في القرآن

الطبعة التاسعة
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م
الطبعة العاشرة
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م
الطبعة الحادية عشرة
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م
الطبعة الثانية عشرة
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م
الطبعة الثالثة عشرة
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م
الطبعة الرابعة عشرة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م
الطبعة الخامسة عشرة
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م
الطبعة السادسة عشرة
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

سيد قطب

مَشَاهِدُ القِيَامَةِ فِي القُرآن

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى روحك يا أبي أتوجه بهذا العمل .

لقد طبعتَ في حسي – وأنا طفل صغير – مخافة اليوم الآخر . لم تعظني أو تزجرني . ولكنك كنت تعيش أمامي ، واليوم الآخر في حسابك ، وذكراه في ضميرك وعلى لسانك ... كنت تعلل تشددك في الحق الذي عليك ، وتسامحك في الحق الذي لك بأنك تخشى اليوم الآخر . وكنت تعفو عن الإساءة وأنت قادر على ردها ، لتكون لك كفّارة في اليوم الآخر . وكنت تجود أحياناً بما هو ضرورة لك لتجده ذخراً في اليوم الآخر ...

وإن صورتك المطبوعة في مخيلتي ، ونحن نفرغ كل مساء من طعام العشاء ، فتقرأ الفاتحة وتتوجه بها إلى روح أبويك في الدار الآخرة ، ونحن أطفالك الصغار نتمتم مثلك بآيات منها متفرقات ، قبل أن نجيد حفظها كاملات !

فإلى روحك يا أبي أتوجه بهذا العمل .

ولعله عندك مقبول ، وعند الله مستجاب .

والله الموفق إلى ما فيه الخير والصواب .

ابنك

سيد

بيان

هذا هو الكتاب الثاني في «مكتبة القرآن الجديدة» التي صح عزمي على إنشائها – بعون الله – ... كان الكتاب الأول ، هو كتاب «التصوير الفني في القرآن» الذي صدر في مثل هذا اليوم منذ عامين . وكانت وظيفته هي بيان «طريقة التعبير الفني في القرآن» بصفة عامة ، وبسط خصائص هذه الطريقة وسماتها . وقد انتهيت فيه إلى القضية التي بسطتها في تلك الفقرات :

«التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن . فهو يعبر بالصورة المحسَّة المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ؛ وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ؛ وعن النموذج الإنساني ، والطبيعة البشرية . ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها ، فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة . فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ؛ وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ؛ وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ؛ وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية . فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ؛ فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار ، فقد استوت لها كل عناصر التخييل . فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظَّارة ؛ وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول ، الذي وقعت فيه أو ستقع ؛ حيث تتوالى المناظر ، وتتجدد الحركات ؛ وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ، ومثل يضرب ؛ ويتخيل أنه منظر يعرض ، وحادث يقع . فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ؛ وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات ، المنبعثة من الموقف ، المتساوقة مع الحوادث ؛ وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتنم عن الأحاسيس المضمرة .

«إنها الحياة هنا ؛ وليست حكاية الحياة»

* * *

هذه القضية لديّ كل ما يؤكدها من الإحصاء الدقيق لنصوص القرآن . فالقصة ، ومشاهد القيامة ، والنماذج الإنسانية ، والمنطق الوجداني ، في القرآن ، مضافاً إليها تصوير الحالات النفسية ، وتشخيص المعاني الذهنية . وتمثيل بعض الوقائع التي عاصرت الدعوة المحمدية ... تؤلف على التقريب أكثر من ثلاثة أرباع القرآن من ناحية الكم . وكلها تستخدم طريقة التصوير في التعبير . فلا يستثنى من هذه الطريقة إلا مواضع التشريع ، وبعض مواضع الجدل ، وقليل من الأغراض الأخرى التي تقتضي طريقة التقرير الذهني المجرد . وهي على كل حال محصورة فيما يوازي ربع القرآن .

فليس هناك من شطط حين أقول : « إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن » .

وإذا وفقني الله فأصدرت الحلقات التالية من هذه المكتبة ، وهي : «القصة بين التوراة والقرآن» و «النماذج الإنسانية في القرآن» و «المنطق الوجداني في القرآن» و «أساليب العرض الفني في القرآن» فسيجد الناس مصداق هذه القضية بين أيديهم . وتستريح إليها ضمائرهم كما استراح إليها ضميري .

وطريقة التصوير هي أجمل طرائق التعبير ، وأفضلها في الفن والدين . ويكفي لبيان هذا الفضل – كما قلت في كتاب التصوير – أن نتصور المعاني في صورتها الذهنية التجريدية وأن نتصورها بعد ذلك في صورتها التصويرية التشخيصية :

«إن المعاني في الطريقة الأولى تخاطب الذهن والوعي ، وتصل إليهما مجردة من ظلالها الجميلة . وفي الطريقة الثانية تخاطب الحس والوجدان ، وتصل إلى النفس من منافذ شتى : من الحواس بالتخييل والإيقاع ، ومن الحس عن طريق الحواس ، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء . ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس ، لا منفذها المفرد الوحيد» .

«ولهذه الطريقة فضلها ولا شك في أداء الدعوة لكل عقيدة ، ولكننا إنما ننظر إليها هنا من الوجهة الفنية البحتة . وإن لها من هذه الوجهة لشأناً . فوظيفة الفن الأولى وهي إثارة الانفعالات الوجدانية ، وإشاعة اللذة الفنية بهذه الإثارة ، وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات ، وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه .. وكل أولئك تكفله طريقة التصوير والتشخيص للفن الجميل» .

* * *

بهذه الطريقة تناول القرآن «مشاهد القيامة» فإذا بعضها ملاحم رائعة ، وبعضها مناظر شاخصة ، وبعضها صور وظلال . وهذه المشاهد هي التي سنستعرضها في هذا الكتاب .

وفي اعتقادي أنني لم أصنع بهذا الكتاب وبسابقه ، ولن أصنع بلواحقه ، إلا أن أرد القرآن في إحساسنا جديداً كما تلقاه العرب أول مرة فسحروا به أجمعين . واستوى في الإقرار بسحره المؤمنون والكافرون : هؤلاء يسحرون فيفرون ! ويقولون : «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تفلحون» ، وأولئك يسحرون فيلبون ، يملأ نفوسهم الإيمان واليقين . والقرآن : هذا الكتاب المعجز الجميل ، هو أنفس ما تحويه المكتبة العربية على الإطلاق ، فلا أقل من أن يعاد عرضه ، وأن ترد إليه جدته ، وأن يستنقذ من ركام التفسيرات اللغوية والنحوية والفقهية والتاريخية والأسطورية أيضاً ! وأن تبرز فيه الناحية الفنية ، وتستخلص خصائصه الأدبية ، وتنبه المشاعر إلى مكامن الجمال فيه . وذلك هو عملي الأساسي في «مكتبة القرآن» . وقد تناولت هذه المشاهد كما يصورها ظاهر اللفظ الواضح المشرق البسيط ، لم أحاول أن أعقِّدها بالتأويلات البعيدة ، ولا أن أدخل عليها مباحث لغوية ودينية لا يقتضيها العرض الفني الجميل . وفي اعتقادي أن العرب الأولين قد تلقوا الجمال الفني في القرآن هذا التلقي ، فتعمق في إحساسهم وهزَّ نفوسهم قبل أن يعقِّده المفسرون والمؤولون .

* * *

تتوزع مشاهد القيامة في معظم سور القرآن وإن كانت كثرتها بالسور المكية . وقد تحتوي السورة الواحدة أكثر من مشهد واحد ، يطول أو يقصر تبعاً للغرض الديني في السياق ، وتمشياً مع أصول العرض الفنية كما سيجيء . وقد استعرضنا في هذا الكتاب خمسين ومائة مشهد ، موزعة في ثمانين سورة من أربع عشرة ومائة سورة .

والذي استعرضته هنا هو ما اصطلحنا على تسميته «مشاهد» وهو الذي تتوافر فيه الصورة والحركة والإيقاع . أما المواضع التي ورد فيها ذكر اليوم الآخر مجرداً ، أو ذكر الجنة تجري من تحتها الأنهار ، أو ذكر العذاب الأليم أو العظيم أو المهين ، دون أن يرتسم منها مشهد شاخص أو متحرك فلم أتعرض لها ؛ وهي كثيرة جداً ، فلا تكاد سورة واحدة من سور القرآن تخلو من ذكر أو إشارة أو تلميح . وكذلك أغفلت القليل من المشاهد القصيرة .

والعجيب حقاً أن تعدد هذه المشاهد – وأساسها واحد – لم ينشئ نوعاً من التكرار . فكل مشهد يختلف عن سابقه في كلياته أو جزئياته . وذلك لون من الإعجاز شبيه بالإعجاز في خلق الملايين من الناس ، كلهم ناس ، ولكن لكل سحنة وسِمة ، في هذا المتحف الإلهي العجيب ! ! !

وكانت أمامي طرق عدة لعرض هذه المشاهد وتبويبها . ولكنني اخترت الطريق الاستعراضي مراعياً الترتيب التاريخي – على قدر الإمكان – لورودها ، فعرضتها بترتيب السور التي وردت فيها . ورتبت هذه السور حسب نزولها . وذلك عمل تقريبي لا جزم فيه . ولكنه هو الطريق الوحيد المتاح لنا في القرن الرابع عشر من الهجرة .

وما من شك أن هناك نقطة ضعيفة في هذا الترتيب (حتى على فرض أن هناك يقيناً في ترتيب السور على نحو معين بحسب تاريخ النزول) فالمعروف أن هذه السور لم تنزل كاملة ، إنما هي نزلت آيات متفرقات بحسب المناسبات .

وليس لدينا أي سجل كامل لأسباب النزول وتاريخه المضبوط ؛ وحتى الآيات التي نعرف أسباب نزولها وتاريخه تختلف فيها الآراء وتتعدد فيها الأقوال ، ولا مجال فيها لغير الظن والترجيح .

ولو كان بين أيدينا ذلك السجل الدقيق الذي لا يقوّم بثمن لهيأ لنا فرصة لا تقدر لتتبع مراحل الدعوة الإسلامية وطرائقها في كل مرحلة ، ولكشف لنا عن العوامل النفسية والعقلية فيها فوق العوامل التاريخية والمحلية ... ولكن هذا كله مع الأسف الشديد لا سبيل إليه الآن بغير الحدس والتخمين .

سرت إذن على طريقة ترتيب هذه المشاهد حسب ترتيب السور التي وردت فيها . وهي طريقة – على ما بها من مآخذ – تهيِّئ للقارئ أن يستعرض هذه المشاهد خالصة ، ويستجلي جمالها الفني ، بعيداً عن حذلقات التبويب والتقسيم . وقد استعضت عنهما بفصل مجمل قبل استعراض المشاهد ، تحدثت فيه عن خصائصها على وجه العموم .

وأنا أعلم أن هذه المشاهد لا تبدو في جمالها الكامل إلا إذا استعرضت مع السياق الذي وردت فيه ، وهذا يقتضي تناول القرآن كله – وهو غير مستطاع هنا – ولكنني حاولت بقدر الإمكان أن أربط معظم المشاهد بالسياق الذي وردت فيه . فحققت ما أريد بعض التحقيق .

° ° °

ولما كانت فكرة «العالم الآخر» عميقة في الضمير البشري ، حتى لتعد مقياساً ليقظة هذا الضمير ، وقد تعرضت لها قبل الإسلام ، وثنيات وديانات ، رأيت أن أعقد فصلاً قصيراً أستعرض فيه هذه الفكرة في تاريخها الطويل ، استعراضاً سريعاً لا يلم بجميع تطوراتها ، ولكن تناول الخطوات الرئيسية فيها . وإن كان هذا البحث الممتع يستحق رسالة مستقلة .

° ° °

وبعد ، فإني لأرجو أن أكون قد وفقت في هدفي القريب من هذا الكتاب ، كما أتمنى أن أوفق في الهدف البعيد الذي أرجوه من لواحقه : ذلك الهدف البعيد ، هو إعادة عرض القرآن ، واستحياء الجمال الفني الخالص فيه ، واستنقاذه من ركام التأويل والتعقيد ، وفرزه من سائر الأغراض الأخرى التي جاء لها القرآن . بما فيها الغرض الديني أيضاً . فهدفي هنا هدف فني خالص محض ، لا أتأثر فيه إلا بحاسة الناقد الفني المستقل . فإذا التقت في النهاية قداسة الفن بقداسة الدين ، فتلك نتيجة لم أقصد إليها ولم أتأثر بها . إنما هي خاصة كامنة في طبيعة هذا القرآن ، تلتقي عندها دروب البحث في النهاية ، ولو لم يحسب السالك حسابها في الطريق ... والله ولي التوفيق .

سيد قطب

العالم الآخر في الضمير البشري

عمر الفرد على هذا الكوكب الأرضي قصير ، وأيامه في هذا العالم الفاني محدودة . ورغبة الفرد في أن يعيش رغبة فطرية ، وحاجاته على الأرض لا تنقضي ، وآماله غير محدودة .

ولكنه يموت !

يموت وفي نفسه حاجات ، ويترك على الأرض آماله ، كما يترك من خلفه أعزاء يفجعه أن يفارقهم ، ويفجعهم أن يغيب . فهلاَّ كان لقاء بعد ذلك المغيب ؟

هذه واحدة !

وينظر الإنسان ، فيرى الخير والشر يصطرعان ، ويشهد معركة الرذيلة والفضيلة – أو ما يعتقده رذيلة وفضيلة – والشر عارم ، والرذيلة متبجحة ، وكثيراً ما ينتصر الشر على الخير ، وتعلو الرذيلة على الفضيلة . والفرد – في عمره المحدود – لا يشهد رد الفعل ، ولا يرى عواقب الخير والشر .

فأما حين كان هذا الإنسان طفلاً ، أو حين كان يحيا على شريعة الغاب ، فلا ضير في ذلك ولا ضرار ، إنما الأمر قوة ، والحياة للأغلب !

وأما حين أخذ ضميره يستيقظ ، فقد عز عليه أن لا تكون للخير كرة ، وأن لا يلقى الشر جزاءه . والاعتقاد بوجود ألوهية عادلة يستتبع حتماً جزاء على الخير والشر ، إن لم يتم في الأرض في هذا

العالم ، فلا بد أن يتم هناك في عالم آخر .

وهذه ثانية !

ثم أيكون مصير هذا الجنس الإنساني الذي عمر الأرض وصنع فيها ما صنع ، كمصير أية حشرة أو دابة أو زاحفة : حياة قصيرة محدودة ، لا يتم فيها شيء كامل أبداً ؛ ثم ينتهي كل شيء إلى الأبد ؟ .. لقد عز عليه أن يكون مصيره هو هذا المصير البائس المهين .

وهذه ثالثة !

من هذه الينابيع التي تفجرت في الضمير الإنساني – واحداً بعد الآخر – فاضت فكرة العالم الآخر . وكما دل النبع الأول على شعور الإنسان بقيمة الحياة ، ودل النبع الثالث على اعتزازه بجنسه ، وانتظاره أن تحسب القوى الكونية حساباً له ، فلا تجعل ختامه هو هذه الحياة الفردية القصيرة ... فكذلك دل النبع الثاني على استيقاظ ضميره ، وتنبه إحساس العدالة فيه ، والثقه بمصاير الرذيلة والفضيلة .

وهذه الينابيع هي «الإنسانية» في أعمق أعماقها ، وأعلى آفاقها .

* * *

شهدت مصر القديمة أول فجر للينبوع الدافق في ضمير البشرية المستيقظ ، وأول عقيدة بالحساب بعد الموت على الخير والشر ، وأول جزاء عادل تلقاه الرذيلة والفضيلة . ومضى أكثر من ألفي عام قبل أن تمتد هذه العقيدة إلى مكان آخر على ظهر هذا الكون المعمور ، حسبما تهدينا معلوماتنا التاريخية الحاضرة .

فحوالي سنة ٢٦٠٠ قبل الميلاد (أيام الأسرة الخامسة) – إن لم يكن قبل ذلك – كان هناك عالم آخر يتوقعه المصريون ؛ وكان للخير والشر جزاء ، في هذا العالم الآخر . وفي هذا الوقت لم تكن هذه

العقيدة قاصرة على الكهنة ورجال الدين ، بل انتشرت في الأوساط الشعبية ، مما يدل على أن جذورها ترجع إلى ما قبل هذا التاريخ ، ويقول المرحوم الأستاذ عبد القادر حمزة باشا في كتابه العظيم «على هامش التاريخ المصري القديم» عن هذه الفترة :

«وفي هذا الوقت كانت عبادة «أوزريس» قد أخذت تنتشر وتصير عبادة شعبية ... وعبادة أوزريس أساسها الأول أن كل إنسان – ملكاً كان أم فرداً عادياً – مسؤول بعد الموت عن أعماله في الدنيا أمام محكمة إلهية يتولى القضاء فيها «أوزريس» نفسه ، ويساعده فيها «توت[1] وأنوبيس[2] وحوريس[3] ومعات[4]» واثنان وأربعون قاضياً . فإذا حكمت المحكمة بأن حسنات الميت ترجح سيئاته كوفئ بالنعيم الخالد ، وصار مثل «أوزريس» . أما إذا حكمت المحكمة بأنه أساء في حياته فجزاؤه أن يفترسه الوحش ، أو أن يلقى في النار ، أو أن يضرب عليه نوع آخر من أنواع العذاب» .

ثم يتحدث عن هذا الحساب في «كتاب الموتى» الذي وجد في أيام الدولة الوسطى ملخصاً هذه العقيدة :

«وكانوا يجسّمون هذه المحاسبة فيضعون لها في كتاب الموتى ، وعلى التوابيت رسم محكمة ومحاكمة وميزان . وفي هذه المحكمة يجلس «أوزريس» على عرشه حاملاً عصاه وكرباجه ، ومعه اثنان وأربعون قاضياً من الآلهة . ويلاحظ هنا أن مصر كانت مقسمة إلى

---

(١) إله الحكمة والعلم .

(٢) هو مدير دفن الأموات ودليلهم في الدار الآخرة .

(٣) ابن أوزريس وإيزيس .

(٤) إلهة الحقيقة والعدل .

اثنين وأربعين إقليماً ، فكأن كلاً من القضاة يمثل إقليماً من هذه الأقاليم . فإذا جيء بالميت تسلمه «أنوبيس» وأخذ قلبه فوضعه في إحدى كفتي ميزان . ووضع في الكفة الأخرى تمثال الإلٰهة «معات» أو ريشتها ، ثم وقف الإلٰه «توت» بجانب الميزان ، وفي يده اليمنى قلم ، وفي يده اليسرى سجل يدون فيه نتيجة الميزان ؛ ثم يرفعها إلى «أوزريس» ويقف بالقرب من «توت» الوحش «إمابيت» — وهو وحش له رأس تمساح وجسم أسد — متأهباً لأن يلتهم الميت الذي يصدر الحكم بالتهامه . وفي بعض الرسوم تضاف نيران إلى المحكمة في مكان خاص منها ، ليلقى فيها المذنبون . والقلب في الميزان يمثل أعمال الميت في حياته . وهو الذي يشهد بكل ما فعله صاحبه من خير أو شر» .

ثم يثبت نص قصة مصرية قديمة[1] تصف رحلة إلى هذا العالم الآخر قام بها فتى اسمه «سينوزيريس» مع أبيه «ساتني» ليطلعه على طريقة الحساب وطريقة الجزاء وطريقة العقاب في هذا العالم الآخر — وهي أول رحلة إلى العالم الآخر في تاريخ الآداب والأديان — ونحن ننقل هذه القصة لما فيها من دلالة على أن الخير والشر والحساب والجزاء لا علاقة لها بالغنى والفقر وسائر مظاهر الحياة :

«تطلع «ساتني» ذات يوم من أعلى داره فرأى جنازة رجل غني تسير من ممفيس إلى الجبل في موكب حافل بالنادبات والمشيعين ومظاهر التكريم ، ثم رأى في الوقت نفسه جنازة رجل فقير مدرج في حصير ، ولا موكب معه ولا مشيعين فالتفت إلى ولده وقال : إنه

(١) وجدت هذه القصة في ورقة بردى عثر عليها المصور لوجي جريفث في المتحف البريطاني .

يرجو أن يكون له في الدار الآخرة مصير كمصير ذلك الغني لا كمصير هذا الفقير . فقال «سينوزيريس» : إنه بالعكس يرجو له مثل مصير الفقير لا مثل مصير الغني . فامتعض الوالد ولحظ الولد ذلك ، فأخذ بيد أبيه ليريه مصير الإثنين ؛ ثم قرأ صيغاً سحرية ، وذهب بأبيه إلى مكان في جبل ممفيس ، فنزل به إلى الدار التي يحاسب فيها الأموات [1] ، فإذا هما بسبع قاعات واسعة مملوءة بالناس من جميع الطبقات ، فاجتازا ثلاثاً من هذه الدور ، ثم دخلا الرابعة ، فإذا ناس يذهبون ويجيئون ، بينما حمير تأكل من خلفهم ، ثم ناس غيرهم يثبون إلى طعام معلق فوق رؤوسهم فلا يدركونه ، فيثبون ويثبون ، بينما حفارون يحفرون تحت أقدامهم ليزيدوا مسافة ما بينهم وبينه .

«ثم دخلا القاعة السادسة فوجدا أرواحاً من الأبرار لكل منها مكان تقيم فيه ، بينما في الباب أرواح متهمة ، فهي واقفة تتضرع .

«ثم رأى رجلاً منطرحاً تحت الباب على ظهره ، ومحور هذا الباب مركز في عينه اليمنى يدور عليها كلما فتح أو أقفل ، وهو لا ينفك يفتح ويقفل ، والرجل لا ينفك يصيح من الألم .

«ثم دخلا القاعة السابعة فوجدا آلهة الحساب جالسين والمنادين ينادون قضايا الأموات واحدة بعد أخرى ، والإله الكبير «أوزريس» جالس على عرش من الذهب متوج بالتاج ذي الريشتين ، بينما الإله «أنوبيس» واقف إلى يساره والإله «توت» إلى يمينه ، والآلهة الآخرون الذين يتألف منهم مجلس دار الحساب واقفون يميناً ويساراً والميزان منصوب يزن السيئات والحسنات . فمن رجحت سيئاته حسناته ألقي

---

(١) تسمى هذه الدار «الجحيم» .

إلى الوحش «إماييت» يفترسه ؛ ومن رجحت حسناته سيئاته قيد إلى حيث الآلهة ، وصعدت روحه إلى السماء ؛ أما من تعادلت حسناته وسيئاته ، فلا يفترسه الوحش ، ولا ينضم إلى الآلهة بل يعين للخدمة .

ونظر الفتى فرأى على مقربة من «أوزريس» رجلاً حسن البزة مرفوع المنزلة ، فالتفت إلى أبيه وقال : أترى هذا الجالس بجانب أوزريس ؟ إنه الفقير الذي شاهدته مدرجاً في حصير ، وليس في جنازته أحد من المشيعين . لقد جيء به إلى هنا ثم وزنت سيئاته وحسناته فرجحت الثانية الأولى . وكان الإله «توت» قد سجل له في سجله أنه لم يتمتع على الأرض بسعادة كافية ، فأمر «أوزريس» أن يعطى كل ما كان مجهزاً به ذلك الغني الذي رأيت جنازته مشيعة بمظاهر التكريم ، وأن ترفع منزلته بين الآلهة ؛ أما الغني فقد وزنت سيئاته وحسناته فوجدت الأولى ترجح الثانية ، فقيد إلى الجزاء ، وهو الذي رأيت محور الباب يدور على عينه اليمنى وسمعته يصيح من الألم ... » .

ولهذه القصة قيمتها العظمى في الكشف عن تصورات المصريين القدماء للعالم الآخر ، ومدى تقديرهم للعدالة في هذا العالم ، والدقه في الجزاء الذي يناله الأفراد دون النظر إلى مظاهرهم في الدنيا من مال أو جاه .

ولكي نستكمل تصور المصريين للحساب ، نثبت هنا نصاً من كتاب الموتى ، يصور معنى الخير والشر اللذين يكون عليهما الجزاء ، وهو ملخص عمله «موري» وترجمه المرحوم عبد القادر حمزة . والخطاب موجه إلى أوزريس من أحد الموتى للدفاع :

« لقد جئت إليك أجلب الحقيقة وأطرد الخطيئة .

« إنني لم أقارف الشر . ولم أعتدِ ، ولم أسرق ، ولم أقتل غدراً ،

ولم أمسّ القرابين ، ولم أكذب ، ولم أُسِلْ دموع أحد ، ولم أتدنس ، ولم أذبح الحيوانات المقدسة ، ولم أتلف أرضاً مزروعة ، ولم أقذف ، ولم أترك الغضب يخرجني إلى غير الحق ، ولم أَزْنِ ، ولم أرفض أن أسمع كلمة العدل ، ولم أسئ الظن بالملك ولا بأبي ، ولم ألوث الماء ، ولم أحمل سيداً على أن يسيء إلى عبده ، ولم أحلف كاذباً ، ولم أغشّ في الميزان ، ولم أمنع اللبن عن أفواه الرضّع ، ولم أصِد طيور الآلهة ، ولم أرد الماء إلا حين الحاجة إليه ، ولم أسد قناة ريّ على غيري ، ولم أطفئ ناراً يجب أن تشعل ، ولم يخطر على بالي أن أستخف بالآلهة ... إنني طاهر طاهر » .

أما تصورهم للنعيم والعذاب ، فقد عرضنا جانباً منه فيما مضى ، فنزيد هنا أنه كانت هناك صور للنعيم والعذاب غير الصور التي عرضناها .

تقول نصوص الأهرام : « إن الثواب هو الصعود إلى السماء بعد رحلة جمة المخاطر للإقامة فيها مع الآلهة ، أو للإقامة مع الإله (رع) في سفينته ؛ وهؤلاء الذين يثابون بالإقامة في السماء يسمون « الممجدين » أو « السعداء » . والمكان الذي يقيمون فيه من السماء هو جانبها الشرقي ، أو جانبها الشرقي البحري ، لأن المصريين كانوا قد لاحظوا في هذين الجانبين نجوماً ثابتة فأطلقوا عليها اسم النجوم الخالدة ، وجعلوا عندها مكان النعيم الخالد للذين يصعدون إلى السماء » .

« ولم تكتفِ نصوص الأهرام بهذا الإجمال في تصوير دار النعيم ، بل مضت إلى التفصيل ، فذكرت أن الممجدين يقيمون في جزر في السماء فيها حقل يسمى « حقل الطعام » ومن هذا الحقل يتناول الممجدون أطعمة شهية مختلفة تتجدّد ولا تنفد ، وهناك حقل

آخر يسمى «حقل يارو»[1] وشجرة جميز عالية تسمى «شجرة الحياة» يجلس إليها الآلهة ويأكلون منها ، هم والممجدون !

«وليس هذا كل ما في النعيم السماوي ، بل فيه إلى جانب ذلك أن السماء (نوت) والثعبان الذي يحمي الشمس يعطيان الصاعد إلى السماء حين وصوله إليها ثدييهما ليرضع منهما ، فمتى رضع عاد صبياً !

«وهو يأكل الخبز مع الآلهة ويشرب الخمر . وصحته تزداد تحسناً على مر الأيام ، فهي اليوم أحسن منها أمس ، وتكون غداً أحسن منها اليوم .

«هذا موجز ما ذكرته نصوص الأهرام عن النعيم الذي يثاب به المحسنون في الدنيا . أما كتاب الموتى فيذكر من مظاهر الثواب أن الميت يجلس في قاعة أمام «أوزريس» ويخرج إلى حقل يارو ، ويأكل خبزاً وفطائر ، ويكون له حقل من القمح والشعير ويبلغ علو النبات فيه سبع أذرع ، وخدّام «حوريس» يحصدون له هذا الزرع ليأكل منه . وله أن يدخل «العالم السفلي» ويخرج منه . وله أن يقيم في حقل يارو أو في حقل الطعام ، وفيهما يكون ممجداً يزرع ويحصد ، وتكون له نساء يتمتع بهنّ ، ويعمل كل ما كان يعمله على الأرض .

«أما العقاب ، فقد تقدم أن من صوره وحشاً له رأس تمساح وجسم أسد ، يلتهم المذنب ، وناراً يلقى المذنب فيها . وهناك صورة أخرى هي أن يبقى المذنب في قبره فريسة للجوع والعطش ، محروماً من رؤية الشمس وفي بعض الأحيان يكون مع القضاة الاثنين والأربعين الذين

---

(١) يقول إرمان في ص ٢٥١ من كتابه (la Religion des Eg.) إن كلمة «يارو» معناها في اللغة المصرية نبات الخيزران . ويرى علماء آخرون أن هذا الحقل يسمى حقل «يالو» .

يجلسون مع «أوزريس» في محكمته سيوف يضربون بها المذنبين .

«وتدل قصة ساتني وولده التي أشرنا إليها من قبل على أنه كانت توجد صور غير هذه أيضاً للعذاب . منها تعذيب الميت تعذيباً دائماً بتركيز محور باب في عينه ، وهذا الباب يفتح ويقفل ، والميت يصيح من الألم كلما فتح أو أقفل . ومنها تعليق طعام فوق رؤوس المعذبين ، وهؤلاء المعذبون يقفزون ليحاولوا الوصول إليه ، فكلما قفزوا بعد الطعام عنهم»[١] .

* * *

ولقد يخطر لأحدنا اليوم أن هذه الفكرة عن العالم الآخر ، قد أحاطت بها شوائب كثيرة ، تحدّ من قيمتها . ولكن يجب أن نذكر أن هذه الفكرة قد قامت في ظل عقيدة وثنية ، وأنها ضاربة في بطون التاريخ ، فلقد مر عليها الآن ما يقرب من خمسة آلاف سنة ، فهي لهذا السبب نفسه ، تبدو عظيمة القيمة .

وإذا أضفنا إليها أن مصر منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قد عرفت عقيدة التوحيد أيضاً في ديانة الملك «أخناتون» أمكننا أن نتصور عظمة هذا الضمير الذي اهتدى إلى ذلك كله في فجر التاريخ .

على أن هناك مقياساً آخر لهذه العظمة . هو أن ألف سنة كاملة قد انقضت بعد اهتداء الضمير المصري إلى عقيدة الحساب ، قبل أن تعرف أية أمة أخرى شيئاً عن «العالم الآخر» . وحينما عرف البابليون «الكلدانيون» شيئاً عن هذا العالم – بعد ألف سنة – لم تكن العدالة المطلقة هي التي تتحكم في مصاير الموتى ، ولم يكن الجزاء على الخير

---

(١) كتاب على هامش تاريخ مصر القديم .

والشر في العالم الآخر ، بل كان الموتى ينتقلون إلى مكان مظلم يسمى «أرالو» تحت الأرض أو في الركن الشرقي منها ، حيث تتولى الإلهة (ألات) محاكمتهم .

وفي هذا يقول مسبيرو :

«لم يكن للخير أو الشر الذي فعله الميت في حياته قيمة كبيرة في تقدير أعماله وإنما كان التقدير كله لما أظهره الإنسان على الأرض من التعلق بالآلهة عامة ، وبالإلهة «ألات» خاصة ، بتقديم قرابين الذبائح والهدايا وتقديم أسباب الغنى للمعابد»[1] .

ثم تمضي ألف سنة أخرى حتى نرى فكرة العالم الآخر تبرز عند الفرس في ديانة «زرادشت» وعند الإغريق في أساطيرهم التي يعتمد عليها «هوميروس» في ملحمة «الأوذيسة» التي ورد فيها ذكر «هيدز» .

° ° °

فأما الديانة الزرادشتية فتتصور مصير الروح على هذا النحو :

«عندما يموت الميت تظل الروح ثلاثة أيام وثلاث ليال معلقة إلى جانب الجسم ، منعمة بنعيمه أو معذبة بعذابه . وفي فجر اليوم الرابع تهب عليها ريح ، إما معطرة إذا كان الميت خيّراً ، وإما نتنة إذا كان شريراً ، فتحملها إلى موضع يلتقي فيه إما بفتاة جميلة ، وإما بعجوز مفزعة . وليست الأولى فتاة حقيقية ، ولا الثانية عجوزاً حقيقية . وإنما هي صورة أعمال الميت . وهي ضميره الذي يقوده إلى حيث معبر الحساب والحكم الأخير . وعلى باب هذا المعبر يوجد ثلاثة قضاة بينهم «ميثرا» وهناك ينصب ميزان توضع في إحدى كفتيه

---

(١) ترجمة عبد القادر حمزة باشا .

حسنات الميت ، وفي الأخرى سيئاته . وبناء على صعود إحدى الكفتين أو هبوطها يصدر الحكم على مصير هذا الميت .

« ويلاحظ أن الثواب والعقاب لم يكونا ينصبان على كل حسنة أو كل سيئة على حدة ، بل على مجموعة النوعين . فإذا رجحت الحسنات كفرت السيئات مهما كانت كل واحدة منها في ذاتها جسيمة ، كما يلاحظ أن الندم والتوبة لم يكونا معتبرين ، وأن الغفران في الحساب لا وجود له البتة ، لأنه مؤسس على العدل لا على الرحمة .

« وعلى إثر انتهاء الوزن وصدور الحكم يؤمر المحاسب بالمرور فوق هذا المعبر أو الصراط الممتد فوق الجحيم الذي يتسع أمام الأخيار ، ويضيق حتى يكون أدق من الشعرة وأحد من الشفرة أمام الأشرار !

« فهؤلاء الأخيرون يهوون في جحيم مظلم ظلاماً كثيفاً إلى حد يستطاع معه لمسه باليد . فإذا هووا في الجحيم كانوا متزاحمين كأنهم كمية من الشعر في معرفة حصان . ومع ذلك فكل واحد منهم يشعر في وسط هذا الزحام بوحدة قاسية وعزلة ممضة .

« أما الأخيار فيذهبون إلى النور حيث يستقبلهم « أهورا مازدا »[1] بعد أن يمروا في وسط العمل الصالح والقول الخير والفكرة الطيبة . وهناك يستمتعون في كنف « مازدا » بالسعادة الأبدية .

« هذا كله بالنسبة لمن ثقلت موازينهم أو خفت . أما من استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فهم يوضعون في مكان فسيح بين السماء والأرض يقاسون فيه ألم الحر والبرد ، ويحسون بجميع التغيرات الجوية ، ويظلون ينتظرون في أمل ورهبة الحكم الأخير على مصيرهم الذي

---

(١) إله الخير خالق الكون وحافظه من الفساد الذي يحاوله إله الشر « أهريمان » .

يظل مظلماً ، ما داموا في هذا المكان . وأشهر أهل هذا الموضع هو « كيريزاشبا » الذي قتل وحشاً مرعباً فحسب له ذلك حسنة ، ثم دنس النار المقدسة فحسبت عليه سيئة مساوية للحسنة الأولى ، فظل بين النعيم والجحيم[1] .

ولعل القارئ يلاحظ المشابه الكثيرة بين هذه العقيدة الزرادشتية وعقيدة مصر القديمة في الحساب على الخير والشر ، وفي صور النعيم والجحيم ، وفي طريقة الحساب وطريقة الجزاء ، فهي واضحة لا تحتاج إلى بيان .

* * *

وأما الأساطير الإغريقية فيرد فيها ذكر العالم الآخر ، وتظهر هذه العقيدة في « أوذيسة هوميروس » الذي يقال إنه عاش حوالي القرن التاسع قبل الميلاد . والغالب أن تكون الأسطورة الخاصة بالعالم السفلي (هيدز) سابقة على هوميروس ، وأن يكون هو قد انتفع بها في ملحمته .

وتذكر الأسطورة أن هذه الـ (هيدز) تحت الأرض وهي مظلمة تهبط إليها أرواح الموتى بعد موتهم مباشرة ، ويقوم عليها الإله « بلوتو » وقد خطف « برسفونيه » ربة الربيع لتقاسمه ظلامها بعد أن أبت الإلهات جميعاً مشاركته . ويستطيع بعض الأحياء أن يهبطوا إليها بطرق خاصة كما هبط « عوليس » بطل الأوذيسة .

ونستطيع أن نفهم عن « هوميروس » أن هذه الأرواح تتراءى أشباحاً في « هيدز » لا تقبل اللمس لأنها مجرد أشباح تركت أجسادها على الأرض ولا تعود إليها هذه الأجساد . ذلك أن « عوليس » لم يستطع

---

(١) من كتاب « الفلسفة الشرقية » للدكتور محمد غلاب .

أن يضم إليه شبح أمه على شدة رغبته ولهفته ، لأنها عادت شبحاً لا يلمس ، كما نفهم أن هذه الأرواح تحتفظ بذكرياتها الدنيوية وعواطفها وانفعالاتها . فإن البطل «أجاكس» كان عاتباً على (عوليس) لأنه استأثر دونه بدروع «إخيل» بعد موته ، مع رغبة إجاكس فيها . وقد قتل هذا الأخير في معركة «طروادة» بسبب حرمانه تلك الدروع . فلما لقيه في العالم السفلي لم يسلم عليه على الرغم من استرضائه الطويل له . وكذلك نرى «إخيل» يزهى وينتشي حينما يسمع ثناء «عوليس» على ابنه «نيوپتلموس» الذي لا يزال حياً في الدنيا .

ويذكر «هوميروس» على لسان «عوليس» أنه رأى في «هيدز» الإله «مينوس» جالساً على عرشه والصولجان الذهبي في يده ، والموتى يعرضون عليه قضاياهم ، وقد تجمعت جموعهم عند البوابات الكبيرة ينتظرون دورهم في عرض قضاياهم .

ومن ألوان العذاب التي رآها أنه شاهد «تيتوس» الجبار منبطحاً على الأرض بحيث يشغل فضاء تسعة أفدنة ، وعلى كل من جنبيه أفعوان هائل أرقم يتغذى بمضغ من كبده الكبير الدامي ، ومن أحشائه الغلاظ (وذلك جزاء على أنه حاول اجتذاب «لاتونا» عشيقة كبير الآلهة . لا لأنه صنع شراً في العالم الدنيوي !) .

ويذكر أنه رأى «تانتالوس» يتخبط في عين حمئة من الماء الساخن ، وقد غاص فيها إلى ذقنه ، والموج يضرب وجهه ، وهو مع ذلك يلهث من شدة الظمأ ، ولا يجد ما يبل به غلته ، وفوق رأسه أشجار الفاكهة قطوفها دانية ، ولكن يده لا تصل إليها ، فكلما أراد اقتطاف ثمرة هبت ريح عاتية فذهبت بالغصون عنه بعيداً .

وشاهد «سيفوس» يدفع أمامه صخرة عظيمة ليصل بها إلى

قمة جبل ، حتى إذا كاد ينتهي من عمله المضني تدحرجت الصخرة مرة أخرى فاستوت في أرض الجحيم ، والعرق يتحدر من جسمه ، وقد أضناه التعب الفظيع .

ورأى « هرقل » الجبار محكوماً عليه بأن يطيع ويخدم ابن عمه « يوريذوس » (وذلك لمجرد تنفيذ شهوة لحيرا زوجة كبير الآلهة . وهرقل هو ابنه من إحدى الإنسيات !) ... رآه يحاول صرع الكلب « سيربيروس » وهو كلب إله الهيدز « بلوتو » وله ثلاثة رؤوس ، وهو أداة تعذيب ينشب أظفاره في أرواح المجرمين[1] .

ويلاحظ المرحوم عبد القادر حمزة باشا أن هناك شبهاً كبيراً بين قصة ساتني وولده ، وقصة عوليس في الأوذيسة ، فلنقتطف ملاحظاته هنا . ولنا زيادة عليها :

« أولها أن « عوليس » ينزل إلى الجحيم في قصة هومير ، و« ساتني » وولده ينزلان إلى الجحيم في القصة المصرية .

« وثانيها أن « مينوس » يقبض بيده على صولجان من الذهب في جحيم هومير ، و« أوزريس » يقبض بيده على صولجان في العقيدة المصرية .

« وثالثها أن الأموات يعرضون قضاياهم على « مينوس » في جحيم « هومير » ، والأموات يناديهم المنادون لعرض قضاياهم على « أوزريس » في القصة المصرية .

« ورابعها أن الأموات واقفون أو جالسون في دور « الهاديس » ذات الأبواب الواسعة ، والأموات واقفون أو جالسون في سبع قاعات في القصة المصرية » .

---

(١) اعتمدت في تصوير « هيدز » على كتاب « الأوذيسة » للأستاذ دريني خشبة .

ونزيد أن المجرم في القصة المصرية يلقى إلى الوحش «إمابيت» وفي جحيم «هومير» الأفعوان ينهش كبد المجرم، أو الكلب ذو الرؤوس الثلاثة المخيف. وكذلك في الجحيم المصرية الطعام يبعد كلما حاول المذنب الوصول إليه، وأشجار الفاكهة تبعد كلما مد المجرم يده إليها في جحيم الإغريق.

وكذلك يلاحظ عبد القادر باشا أن هناك فارقاً جوهرياً بين الجحيمين. ذلك «أن هومير يقول: إن «مينوس» يقضي بين الأموات وإن هؤلاء الأموات يعرضون عليه قضاياهم. وهذا معناه في رأي «موري» – وهو مصيب فيه – أن القضايا منازعات بين الأموات بعد الموت كالمنازعات التي تكون بين الأحياء، وليست حساباً يؤديه الأموات عن أعمالهم في الحياة».

ثم يقول:

«إذن ليست جحيم «هومير» دار حساب عن أعمال الناس في الحياة، بل هي دار حساب عن مشاجرات ومنازعات بعد الموت. وإذن تفقد جحيم «هومير» كل القيمة التهذيبية التي للجحيم المصرية. وإذن يحق لنا أن نقرر هنا أن «هومير» أراد أن يقتبس قصة «ساتني» وولده المصرية ومحكمة «أوزريس» فقصر، لأنه اقتبس بعض الشكل وفاته كل الجوهر».

وهذه ملاحظات نافذة يؤيدها ما رأيناه في جحيم «هومير» من أن بعض المعذبين هناك لا ذنب لهم إلا أنهم وقفوا في طريق شهوات كبير الآلهة أو زوجته حيرا أو غيرهما من الآلهة. والأساطير الإغريقية حافلة بما يؤيد أن الشهوات والنزوات هي التي كانت محكمة، وأن الضمير والعدالة لا حساب لهما في الحياة الدنيا، ولا في العالم الثاني كذلك!

وهنا تتفرد العقيدة المصرية ، وتتجلى آفاقها العالية في وسط هذه الوثنيات التي جاءت بعدها بحوالي ألفين من السنين .

* * *

وقبل أن نتابع تطور فكرة العالم الآخر عند الإغريق وعند الرومان بعد عصر هوميروس ، نحاول أن نبحث عنها في الديانات الهندية القديمة .

لا نجد في الديانات الهندوكية ، ولا في الديانة البوذية ، وهي عقيدة طائفه من الهنود وعقيدة أهل سيلان ومعظم اليابانيين وكثير من الصينيين ، لا نجد في هذه الديانات عالماً آخر للحساب والجزاء . إنما نجد مكانه « النيرڤانا » وهي الفناء في الروح الأعظم . وإن اختلفت وسائل الوصول إلى هذه المرتبة بين الديانتين .

« وللديانة الهندوكيه كتبها وهي « الڤيدا » و« براهمانا » و« اليوپنشاد » و« الفيدانتا » (وهذه أحدثها) .

« والڤيدا وبراهمانا ويوپنشاد هي كتب الوحي عند الهندوكيين ، وهي تشتمل على نزعات مختلفة متباينة ، فنرى فيها تعدد الآلهة والإلهات ، ونزعة التوحيد ، ونزعة الحلول ، ووحدة الوجود ؛ فهي نظام اجتماعي يسمح بالعقائد المختلفة أكثر منها دعوة إلى عقيدة معينة . تعددت الآلهة في الڤيدا وتنوع اختصاصها ، وأسند إلى كل عمل ، واختلطت أعمالها ، لأنها كانت آلهة قبائل متعددة ، وترقت هذه الآلهة المتعددة إلى وحدة منها انبثق الخلق وإليها يعود ، وظهرت هذه النزعة الراقية – على الأخص – في اليوپنشاد ، ويصل هذا الرقي إلى « الفيدانتا » ومعناها الحرفي خاتمة الڤيدا .

« ومحور الفيدانتا هو أن الله والنفس الإنسانية شيء واحد ،

فإن خيل للإنسان أنهما شيئان مختلفان ، فما ذاك إلا لأن إدراكه أضيق من أن يرى اتحادهما ، وإن الإنسان ليظل على ضلاله هذا حتى يحطم من نفسه حدود الذات»[1] .

وتحطيم حدود الذات يفسره بعضهم بالتخلص من الجسد ، وينشأ عن هذا ما هو مشهور عن الهندوكيين من تعذيب الجسد وتعريضه لأشق التجارب في سبيل تخليص الروح من سيطرته لتنطلق منه في النهاية وتتحد مع الذات الأقدس وتصل إلى درجة النيرڤانا .

وهو لا يصل إلى هذه الدرجة إلا حين تتطهر روحه وتخلص وتصبح جديرة بأن تتحد بالذات الأقدس .

هنا يقوم التناسخ بتحقيق هذه الغاية . فالإنسان حينما يموت تنتقل روحه إلى جسم حيوان أو إنسان ، وتلاقي العذاب ألواناً حتى تتطهر بهذا العذاب ، فتصل في النهاية إلى «النيرڤانا» وتستريح من التناسخ .

أما البوذية وهي حديثة نشأت قبل الميلاد بحوالي ٥٠٠ عام فلا تؤمن بهذا التناسخ ، ولا ترى تعذيب البدن لتطهير الروح ، وترفع عن الروح الإنسانية عبء المخاوف وتطمعه في رحمة الله ، وتبشر الفرد بالوصول إلى درجة «النيرڤانا» متى صفت روحه وتخلصت من حب الذات ولذائذ الجسد ، واتجهت إلى الروح الأعظم بكل قواها .

ومن كلمات بوذا عند احتضاره لتلميذه «أناندا» نفهم هذه النزعة :

«أشار إلى جسده قائلاً : هذا المزيج يجب أن يتحلل إلى عناصره ويتلاشى ، لا يحوّلْك شأن من الشؤون عن مواصلة جهادك الروحي

---

(١) كتاب قصة الأدب في العالم صفحة ٥٥ الجزء الأول للأستاذين أحمد أمين بك وزكي نجيب .

يا أناندا ، وسوف تخلص من سوأة الشهوة الملحة ، وسوأة الكينونة الفردية ، وسوأة الخزعبلات والجهالة » .

وكذلك من وصاياه لبعض أتباعه :

« يا أيها الرهبان ، تلكم هي الحقيقة السامية عن الآلام : الميلاد عذاب ، الشيخوخة عذاب ، المرض عذاب ، الموت عذاب ، فراق ما نحب عذاب ، فوات ما نتوق إليه عذاب ، وقصارى القول التعلق بالحياة عذاب .

« تلكم أيها الرهبان ، الحقيقة السامية عن وقوف الآلام : تقف الآلام بوقوف هذا الظمأ ، وهو وقوف لا يتأتى إلا في غياب العواطف . تقف بالتخلي عن الظمأ ، بالاستغناء عنه ، بالتخلص منه ، بالقضاء على شهوات النفس .

« تلكم – أيها الرهبان – الحقيقة السامية عن السبيل إلى وضع حد للآلام : هو السبيل ذو المسالك الثمانية : صدق الإيمان ، وصدق الحديث ، وصدق السلوك ، وصدق الكسب ، وصدق الاجتهاد ، وصدق التفكير ، وصدق التأمل[1] » .

كلتا العقيدتين : الهندوكية والبوذية ، ليس فيهما إذن عالم آخر على النحو المعهود في الديانة المصرية القديمة ، والديانة الزرادشتية ، والأساطير الإغريقية . إنما هو تناسخ وآلام وعذاب تكفر عن السيئات في الديانة الهندوكية ، ومقاومة للشهوات وتجرد من الأطماع ، وانسلاخ من الذاتية في الديانة البوذية ، تؤدي في النهاية إلى الفناء في الروح الأعظم ، إلى النيرفانا والاتحاد بذات الإله !

* * *

---

(١) كتاب سندباد عصري للدكتور حسين فوزي . يلاحظ أنها سبعة لا ثمانية .

ونعود إلى الإغريق فنجد الشاعر «بندار» في القرن الخامس قبل الميلاد يقول في قصيدته الأولمبية الثانية : «سيجد العظماء في الأرض قاضياً في الجحيم ، فالذين ارتكبوا منهم أعمالاً محرمة تحاكمهم الإلهة «أنانكي» . ومع أنه لا يبين كيف تجري هذه المحاسبة ، إلا أنها خطوة كبيرة في القرب من العقيدة المصرية في عدالة هذا الحساب .

ثم تمر السنوات حتى يأتي أفلاطون (مولده بين سنتي ٤٣٩ — ٤٢٧ ق . م) فيقول :

«فإذا جاءت الأموات أمام قاضيهم دعاهم «ردامانت» (وهو أخو مينوس) إلى القرب منه ؛ ثم فحص روح كل واحد منهم من غير أن يعرف لمن هي ... فإذا وجدها مملوءة فساداً وخبثاً ، وكانت قد عاشت بعيداً عن الحقيقة ، بعث بها إلى السجن لتتلقى فيه العقاب الذي تستحقه» .

ثم يقول :

«وردامانت يرسل المحكوم عليهم إلى قاع الجحيم بعد أن يسمهم بميسم تبعاً لقابليتهم أو عدم قابليتهم للتطهير ، أما الروح الذي يرى أنه عاش في الطهر وفي الحقيقة فإنه يبتهج به ويرسله إلى الجزائر السعيدة[1]» .

وبهذا يرجع أفلاطون إلى استدراك ما فات هوميروس ، ويصل إلى شاطئ العقيدة المصرية التي ظهرت قبله بألفين وخمسمائة عام !

ثم يمر نحو خمسة قرون حتى يجيء «فرجيل» شاعر الرومان الأكبر (٧٠ — ١٩) قبل الميلاد . فيؤلف ملحمة «الإنيادة» من اثني

---

(١) ترجمة المرحوم عبد القادر حمزة باشا عن «موري» .

عشر فصلاً ، ستة منها على مثال « الأوذيسية » وستة على مثال « الإلياذة » لهوميروس . وفي أحد الفصول الستة يذهب « إينياس » بطل الملحمة إلى العالم السفلي للالتقاء بروح أبيه « أنشيز » لاستفتائها في مستقبله ومستقبل ذريته . ويهبط مع كاهنة تقوده إلى منازل الموتى ، وقد امتلأت أشباحاً وأرواحاً ، ويعبران نهر « ستكس » (وهو نهر في الجحيم مليء بالحيات والحيوانات المخيفة) ويشرف على عبورها « شارون » النوتي الكئيب (الذي يقود أرواح الموتى) ، ثم تمضي الكاهنة يتبعها « إينياس » في عالم كله يأس وقنوط ، تروح فيه وتغدو صنوف من أشباح الموتى ، وهنالك يلتقي « إينياس » بكثير من أبطال « طروادة » ... وأخيراً يلقى أباه فينبئه بما قد كتب لسلالته من مجد وفخار [١] .

وجحيم « فرجيل » هي نفسها جحيم « هوميروس » المستقاة من الجحيم المصرية كما مر منذ قليل ، مع بعض النقص والتعديل .

* * *

وندع الإغريق والرومان لنتجه إلى بني إسرائيل ، نبحث في عقائدهم عن العالم الآخر . فأما في العهد القديم – كتاب اليهود الأول [٢] – فلا نجد ذكراً للعالم الآخر بتاتاً . ومن السياق كله نفهم أن الجزاء على الشر كان يتحقق في الدنيا بالقياس إلى الأفراد وإلى الجماعات ؛ فإله بني إسرائيل لم يكن يغفل عن أخذ المسيء منهم بإساءته ، فرداً كان منهم أو جيلاً من أجيالهم .

---

(١) مستقى من كتاب : « قصة الأدب في العالم » . ومن « أساطير الحب والجمال عند الإغريق » للأستاذ دريني خشبة .

(٢) الثاني هو التلمود ، وقد ترجمت أجزاء منه إلى بعض اللغات غير العبرية .

ولكن هذه العقيدة لم تستطع أن تقاوم المشهود في واقع الحياة ، وهو أن الشر قد يذهب بعافية ، والخير قد يعكس . وعندئذ أخذ الصراع يبرز في الضمير الإسرائيلي بين العقيدة الساذجة وهذا الواقع في الحياة ، ويبدو هذا الصراع على أتمه في «سفر أيوب» أحد أسفار العهد القديم .

وهنا أقتبس من فصل جيد كتبه الأستاذ «علي أدهم» عن هذا السفر في كتابه «نظرات في الحياة والمجتمع» ما يغنيني عن الكد في التلخيص والتعليق :

«في الإصحاح الثالث عشر من سفر أيوب يقول أيوب في رده على أصحابه ، وتحدثه عن الذات العلية : «إنه ولو قتلني أبقى آملاً له ، غير أني أحتج عن طرقي أمامه» . وهذه الكلمة التي يجتمع فيها الإيمان التام بطائف من الإنكار والمروق ، وتمتزج فيها الثقة المطلقة بظل من الشك والارتياب ، تختصر تلك الحجج والبينات التي يقدمها أيوب دفاعاً عن نفسه ، وتعزيزاً لموقفه ، بعد أن حاول كتم بثه ، وقمع عواطفه ، والصبر على ما ابتلاه به الله من فادح الخطب ومبرح الألم في ذلك السفر القيم البعيد المغزى المنسوب إليه ، وهو من أروع أسفار العهد القديم ، وأحفلها باللمحات الكاشفة ، والنظرات النافذة ، والخواطر الجريئة ، وقد تناول بصراحة قليلة النظير موقف الإنسان «مولود المرأة ، قليل الأيام ، كثير الشقاء» من الله «صانع عظائم تفوت البحث ، وعجائب تفوق العد» . والتماس الإنسان العدالة ، وبحثه عن الحكمة في حوادث الحياة ، وحقائق الوجود . وهو يصور أبدع تصوير وأدقه وأصدقه الصراع الشديد بين الشكوك التي تساور الإنسان من ناحية وجود عدالة إلهية متجلية في تجارب البشر ، ومصاير الأمم ،

والإيمان القوي الذي يحاول أن يدرأ عن نفسه غوالب الشكوك ، ويتقي هجماتها ، وتمكنه في النهاية من مطاردتها وقهرها .

«وهذا السفر يكشف عن مرحلة هامة من مراحل تفكير بني إسرائيل الديني عندما بدأت الشكوك تتسرب إلى الاعتقاد القائل بأن الرجل الصالح المستقيم يلقى في حياته المثوبة العاجلة ، لاستقامة طرقه ، وسلامة طويته ، وأن من يجانب الصلاح ويقترف الآثام ، يحل به العقاب ، وينال الجزاء الوفاق . فقد لوحظ أن حقائق الحياة اليومية وحوادثها المتواترة المألوفة لا تؤيد هذا الاعتقاد الساذج ، ولا تؤكد أن الشرير يلقى جزاء شره ، وأن الخير يثاب على ما قدمت يداه ، بل قد يغلب على أمره وتجني عليه استقامته . وقد أخذت هذه المسألة تشغل العقول ، وتقلق النفوس ، وتثير الخواطر ، فهل يشك في العدالة الإلهية ، أو أن هناك في وقائع الحياة وحركات الكون عدالة تخفى على العين وتدق عن الفكر متوارية في هذا الظلم البادي ، وبذلك تتسع آفاق فكرة العدالة ، وتسمو وتكتسح ما في طريقها من الاعتراضات التي تنم عن النظر الكليل والفهم القاصر ؟ وكان يزيد الأمر خطورة أن فكرة الحياة الأخرى لم تكن بعد قد استبانت ظلالها واتجهت إليها الأفكار» .

ولا بد أن تكون فكرة العالم الآخر قد أخذت تنمو عند بني إسرائيل في تاريخهم الطويل بعد كتابة العهد القديم ، فإننا نجد في إنجيل متّى في الإصحاح الثاني والعشرين منه : «في ذلك اليوم جاء إليه صَدوقيون الذين يقولون ليس قيامة .. إلخ» فنفهم أنها فرقة من فرق الإسرائيليين على عهد المسيح ظلت على أنه ليس قيامة ، بينما نعرف أن «الفريسيين» يقولون بالقيامة . نعلم هذا من سفر أعمال

الرسل «الإصحاح الثالث والعشرين» حين يقول بولس الرسول: «أنا فريسي ابن فريسي على رجاء قيامة الأموات».

يقول ذلك لوالي قيصرية الذي حرضه اليهود ليقبض على بولس بحجة أنه «مفسد ومهيج فتنة بين جميع اليهود الذين في المسكونة» ثم يقول في الإصحاح الرابع والعشرين:

«هكذا أعبد إله آبائي مؤمناً بكل ما هو مكتوب في الناموس والأنبياء، ولي رجاء بالله فيما هم ينتظرونه: أنه سوف تكون قيامة للأموات الأبرار والأثمة» فقد وجد اعتقاد إذن بين جماعة من بني إسرائيل بيوم آخر.

ولكننا لا نعرف على وجه التحديد متى تسربت هذه العقيدة إلى بني إسرائيل وأول إشارة نجدها في سفر «أشعياء» الذي كانت حياته حوالي القرن الثالث ق. م. ولكن ليس هناك ما يجزم بأن المقصود بها هو يوم القيامة، ذلك قوله على هيئة نبوءة.

«هو ذا الرب يخلي الأرض، ويفرغها ويقلب وجهها ويبدد سكانها» إلى أن يقول:

«ويكون أن الهارب من صوت الرعب يسقط في الحفرة، والصاعد من وسط الحفرة يؤخذ بالفخ. لأن ميازيب من العلاء انفتحت وأسس الأرض تزلزلت. انسحقت الأرض انسحاقاً. تشققت الأرض تشققاً. تزعزعت الأرض تزعزعاً. ترنحت الأرض ترنحاً كالسكران، وتدلدلت كالعِرزال، وثقل عليها ذنبها فسقطت ولا تعود تقوم.

«ويكون في ذلك اليوم أن الرب يطالب جند العلاء في العلاء، وملوك الأرض على الأرض، ويجمعون جمعاً كأسارى في سجن،

ويغلق عليهم في حبس . ثم بعد أيام كثيرة يتعهدون ، ويخجل القمر ، وتخزى الشمس ، لأن رب الجنود قد ملك في جبل صهيون وفي أورشليم . وقدام شيوخه مجد » .

ولكن هذا اليوم قد يكون يوماً من أيام الدنيا ، بل الأرجح هو هذا . فهو يقول في الإصحاح الخامس والعشرين :

« ويقال في ذلك اليوم : هو ذا إلهنا انتظرناه فخلصنا ، هذا هو الرب الذي انتظرناه . نبتهج ونفرح بخلاصه . لأن يد الرب تستقر على هذا الجبل ، ويداس « مؤاب » في مكانه كما يداس التبن في ماء المزبلة . فيبسط يديه كما يبسط السابح ليسبح ، فيضع كبرياءه مع مكايد يديه ، وصرح ارتفاع أسوارك يخفضه ، يضعه ، يلصقه بالأرض كالتراب » .

وفي الإصحاح السادس والعشرين :

« في ذلك اليوم يغني بهذه الأغنية في أرض يهوذا : لنا مدينة قوية . يجعل الخلاص أسواراً ومترسة ، افتحوا الأبواب لتدخل الأمة البارة الحافظة الأمانة ... » .

وإذن فهذا اليوم قد يكون يوم انتصار « إسرائيل » على عدوه « مؤاب » ويكون بذلك يوماً محلياً يتنبأ به أشعياء كبقية النبوءات في العهد القديم .

كذلك ترد إشارة أخرى إلى يوم كيوم القيامة في الإصحاح الثاني عشر من سفر « دانيال » الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد . وهي أدل على يوم قيامة من إشارة أشعياء ، ولكنها هي الأخرى قد تكون حديثاً عن يوم من أيام الأرض ، ونبوءة من نبوءات المستقبل لشعب إسرائيل . فهو يقول حكاية عن وحي الرب إليه :

« في ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك ، ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت . وفي ذلك الوقت ينجي شعبك ، كل من وجد مكتوباً في السفر ، وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء إلى الحياة الأبدية ، وهؤلاء إلى العار ، للازدراء الأبدي ، والفاهمون يضيئون كضياء الجَلَد ، ، والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور » .

ولكن هذا يجيء بعد حديث طويل عن قيام ثلاثة ملوك في فارس وملك رابع أغنى وأقوى ، يهجمون على مملكة يونان ... إلخ ، ثم يجيء ذلك اليوم في النهاية . وهذا ما يجعل تلك الإشارة ليست نصاً مؤكداً على يوم قيامة . فقيام الرسل والصالحين من الموت كثيراً ما يرد في نبوءات كهذه على أنه علامة لشعب إسرائيل ، تقع في سياق الحياة ، ولا تدل على نقلة إلى عالم آخر .

على أن الإشارة في الإنجيل وفي أعمال الرسل إلى اعتقاد اليهود بيوم قيامة كافية في إثبات وجود هذا الاعتقاد في النهاية . وإن يكن حدث متأخراً جداً كما يبدو . مما يدل على أنهم لم يتأثروا في هذه النقطة بالعقائد المصرية .

* * *

أما المسيحية فعندها « ملكوت الرب » و« الحياة الأبدية » للنعيم . وعندها « جهنم » و« النار » و« الظلمة » للعذاب . وهناك « يوم الدين » يوم يأتي ابن الإنسان (المسيح) مع ملائكة الله . ولا نستطيع أن نجزم متى ؟ أيوم القيامة أم يوم قيامته بعد دفنه بثلاثة أيام كما ورد في الأناجيل :

جاء في الإصحاح ١٦ من إنجيل متى : «فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته ، وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله . الحق أقول لكم : إن من القيام هنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته»[١] .

وجاء في الإصحاح ١٩ من هذا الإنجيل : «فقال يسوع لتلاميذه : الحق أقول لكم : إنه يعسر أن يدخل غنيّ إلى ملكوت السمٰوات . وأقول لكم أيضاً : إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله» .

وجاء في نفس الإصحاح : «متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون أسباط بني إسرائيل الاثني عشر . وكل من ترك بيوتاً ، أو إخوة أو أخوات ، أو أباً ، أو أماً ، أو امرأة ، أو أولاداً ، أو حقولاً ، من أجل أسمى ، يأخذ مائة ضعف ، ويرث الحياة الأبدية»[٢] .

وجاء في الإصحاح ١٢ من الإنجيل نفسه : «أقول لكم : إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين» .

وجاء في الإصحاح ١٦ من هذا الإنجيل : «وأنا أقول لك أيضاً : أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات» .

وجاء في الإصحاح ١٨ منه : «فإن أعثرتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك ؛ خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من

---

(١) هذا النص يعني قيامة المسيح بعد ثلاثة أيام من صلبه كما جاء في «العهد الجديد» .
(٢) قد يؤخذ من هذا النص أن ذلك يوم القيامة

أن تلقى في النار الأبدية ولك يدان أو رجلان . وإن أعثرتك عينك فاقلعها وألقها عنك ؛ خير لك أن تدخل الحياة أعور من أن تلقى في جهنم النار ولك عينان » .

وجاء في الإصحاح التاسع من إنجيل مرقس زيادة على ما جاء في إنجيل متى في هذا الموضع قوله : « من أن تلقى في جهنم النار التي لا تطفأ حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ » .

وجاء في الإصحاح الثامن من إنجيل متى : « وأقول لكم : إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ، ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السموات . وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان » .

وجاء في الإصحاح ١١ من هذا الإنجيل : « وأنت يا كفر ناحوم المرتفعة إلى السماء ستهبطين إلى الهاوية ، لأنه لو صنعت في « سدوم » القوات المصنوعة فيك لبقيت إلى اليوم . ولكن أقول لكم : إن أرض سدوم تكون لها حالة أكثر احتمالاً يوم الدين مما لكِ » .

وجاء في الإصحاح ٢٦ منه : « وأقول لكم : إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا ، إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي » .

وهكذا لا نعثر إلا على هذه الإشارات المختصرة للنعيم في ملكوت السموات وللعذاب في جهنم النار أو في الظلمة الخارجية . ومرة واحدة نعثر على بعض التفصيل في الإصحاح الخامس والعشرين من إنجيل متى :

« ومتى جاء ابن الإنسان في مجده ، وجميع الملائكة القديسين معه ، فحينئذ يجلس على كرسي مجده ، ويجتمع أمامه جميع الشعوب ،

فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء ، فيقيم الخراف عن يمينه ، والجداء عن اليسار ؛ ثم يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يا مباركي أبي ، رِثوا الملكوت المعدّ لكم منذ تأسس العالم ، لأني جعت فأطعمتموني ، عطشت فسقيتموني ، كنت غريباً فآويتموني ، عرياناً فكسوتموني ، مريضاً فزرتموني ، محبوساً فأتيتم إليّ . فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين : يا رب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك ، أو عطشاناً فسقيناك ، ومتى رأيناك غريباً فآويناك ، أو عرياناً فكسوناك ؟ ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك ؟ فيجيب الملك ويقول : الحق أقول لكم : بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر ، فبي فعلتم .

« ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار : اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته . لأني جعت فلم تطعموني ، عطشت فلم تسقوني ، كنت غريباً فلم تؤووني ، عرياناً فلم تكسوني ، مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني . حينئذ يجيبونه هم أيضاً قائلين : يا رب ، متى رأيناك جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو عرياناً أو مريضاً أو محبوساً ولم نخدمك ؟ فيجيبهم قائلاً : الحق أقول لكم : بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر في لم تفعلوا ؛ فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي ، والأبرار إلى حياة أبدية » .

هذه هي الصورة الوحيدة المفصلة للقيامة والحساب ، والنعيم والعذاب ، في الأناجيل التي بين أيدينا ، والتي عليها الديانة المسيحية إلى اليوم ، هي والرسائل والشروح التي ليس هنا مكان تفصيلها على كل حال .

* * *

ومع وجود بعض اليهود والمسيحيين في الجزيرة العربية فإن عقيدة العالم الآخر لم تستطع أن تنتشر في عرب الجزيرة . فظلت فكرة البعث فكرة غريبة تقابل بأشد استنكار حينما جاء محمد – صلى الله عليه وسلم – بالقرآن :

﴿ وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل يَنَبِّئكم – إذا مُزِّقتم كل مُمَزَّق – إنكم لفي خَلْقٍ جديد ؟ أفترى على الله كذباً أم به جِنَّة ؟ ﴾ وقالوا : ﴿ إنْ هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهرُ ، وما لهم بذلك من عِلم ، إن هم إلا يظنون ﴾ .

ومن هنا نقلهم القرآن إلى آفاق العالم الآخر كما لم تجل قط في تاريخ الإنسانية ، وكما لم يتصورها خيال بشري منذ أن نبتت في ضمير مصر القديمة حتى أظل البشرية الإسلام . ولعل عرض مشاهد القيامة يبين مدى هذه الفقرة التي رفع العربَ اليها الإسلام ، فإذا هم يؤمنون بعالم آخر ، و بجنة ونار ، ونعيم وعذاب وعدالة مطلقة ، ورحمة واسعة ، في صورة أكمل وأنقى من كل تصور سابق في تاريخ الإنسانية الطويل .

وقصة ذلك العالم مفصلة فيما يأتي من الفصول .

العالم الآخر في القرآن

« مشاهد القيامة » في القرآن من أبرز مواضع التصوير فيه ، وهي التي تنطبق عليها - بصفة خاصة - جميع السمات التي تحدثت عنها في كتاب « التصوير » والتي اقتطفت بعضاً منها في مقدمة هذا الكتاب .

لقد عني القرآن بمشاهد القيامة : البعث والحساب ، والنعيم والعذاب ؛ فلم يعد ذلك العالم الآخر الذي وعده الناس بعد هذا العالم الحاضر ، موصوفاً فحسب ، بل عاد مصوَّراً محسوساً ، وحيًّا متحركاً ، وبارزاً شاخصاً ؛ وعاش المسلمون في هذا العالم عيشة كاملة : رأوا مشاهده ، وتأثروا بها ؛ وخفقت قلوبهم تارة ، واقشعرت جلودهم تارة ؛ وسرى في نفوسهم الفزع مرة ، وعاودهم الاطمئنان أخرى ؛ ولفحهم من النار شواظ ، ورف إليهم من الجنة نسيم . ومن ثم باتوا يعرفون هذا العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود .

هذا العالم بسيط كل البساطة ، واضح وضوح العقيدة الإسلامية : موت وبعث ، ونعيم وعذاب . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم الجنة بما فيها من نعيم ؛ وأما الذين كفروا وكذبوا بلقاء الله ، فلهم النار بما فيها من جحيم . ولا شفاعة هناك ، ولا فدية من العذاب ، ولا اختلال قيد شعرة في ميزان العدالة الدقيق :

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

﴿يوم لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً﴾ ...

ولكن هذه الحقيقة البسيطة الواضحة تعرض في صور شتى ؛ وترتسم في عالم كامل ، حافل بالمشاهد ؛ وتتراءى عشرات من الأوضاع والأشكال والسمات ؛ وتؤلف بذلك ملاحم فنية رائعة ؛ تتملاها النفس ، ويتابعها الخيال ؛ ويستغرق فيها الحس وتتراءى فيها الظلال ؛ وتضيف إلى الثروة الأدبية الفنية صفحات مفردة ، لا شبيه لها ولا مثال .

وأياً ما كانت الأوضاع والأشكال – التي سنعرض لها من بعد بالتفصيل – فإن هناك سمة واحدة شاملة : إنها مشاهد حية ، منتزعة من عالم الأحياء ، لا ألوان مجردة ، ولا خطوط جامدة . مشاهد تقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات ، والخواطر والخلجات ، وترسم المواقف وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية ، أو في شخوص من الطبيعة تخلع عليها الحياة ... ثم تفترق الشيات والسمات بعد ذلك في شتى المشاهد ، فلا تخل بهذه السمة الأصيلة الشاملة لجميع المشاهد .

* * *

وسمة أخرى كذلك أصيلة في هذه المشاهد جميعاً : إنها حاضرة اليوم تراها العين ، وتحسها النفس . والفارق السحيق بين العالمين فارق قريب ، بل لا فارق هناك في بعض الأحيان . بل ربما كانت «الأخرى» هي الحاضرة وكانت «الدنيا» ماضياً بعيداً يتذكره المتذكرون !

تلك سمة تحيي هذه المشاهد في النفس ، وتقوي أثرها في الحس ،

وتتحقق بوسائل شتى ، نستعرض بعضها على سبيل الإجمال :

مرة يبدو أول المشهد في الحياة الدنيا ، ونهايته في الحياة الأخرى ، دون توقف وبلا فواصل ، فيخيل إليك أنها قريب من قريب ، وأن الإنسانية تقطع الرحلة على مشهد منك في استطراد عجيب :

﴿ هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . إنّا خلقنا الإنسانَ من نُطْفةٍ أمشاجٍ نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً . إنّا هديناه السبيلَ إما شاكراً وإما كفوراً . إنا أعْتدنا للكافرين سلاسلَ وأغلالاً وسعيراً . إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً . عيناً يشربُ بها عبادُ الله يفجّرونها تفجيراً ﴾ ... إلخ .

ويستمر السياق إلى صور من النعيم والعذاب ؛ فتحس أنك قطعت الرحلة الطويلة في لحظات . وهي رحلة تبدأ قبل خلق الإنسان ، يوم أن لم يكن شيئاً مذكوراً ، وتنتهي في الجنة وفي النار ، وتضم في خلالها الحياة ، في بضع فقرات قصار !

ومرة يريك الدنيا والأخرى حاضرتين معاً . فهؤلاء جماعة يستعجلون النبي بالعذاب بينما هم في حوزة جهنم :

﴿ يستعجلونك بالعذاب ! وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ !

ومرة يبدأ في قصة تقع في الدنيا ، ثم يتابع بقيتها فإذا نحن في الأخرى : هذا فرعون يؤم قومه في الحياة ، ثم يستمر الشوط ، حتى يؤمهم إلى النار :

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسُلطان مبينٍ . إلى فرعونَ وملَئِهِ ، فاتّبعوا أمرَ فرعونَ وما أمْرُ فرعون برشيدٍ . يَقْدُمُ قومَه يومَ القيامة ، فأوردهم النارَ ، وبئس الوِرْد المورود ! ﴾

ومرة يزاوج بين مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة ، ويسوقهما مساقاً واحداً كأنما هما حاضران في الزمان ، يتبادلان التقديم والتأخير :

﴿ فإذا النجومُ طُمستْ ، وإذا السماء فُرِجَتْ ، وإذا الجبالُ نُسِفتْ ، وإذا الرسل أُقِّتَتْ ، لأيِ يومٍ أُجِّلَتْ ، ليوم الفصْل ، وما أدراك ما يومُ الفصْل ؟ ويلٌ يومئذ للمكذبين . ألم نُهْلكِ الأوّلين ، ثم نُتْبِعُهمُ الآخِرين ؟ كذلك نفعلُ بالمجرمين . ويلٌ يومئذ للمكذبين . ألم نخلقْكم من ماءٍ مَهينٍ ، فجعلناه في قرار مَكينٍ ، إلى قَدَرٍ معلومٍ ، فَقَدَرْنا فنِعمَ القادرون ؟ ويلٌ يومئذ للمكذبين . ألم نجعل الأرضَ كِفَاتاً[1] ، أحياءً وأمواتاً ، وجعلنا فيها رواسيَ شامخاتٍ ، وأسقيناكم ماءً فُراتاً ؟ ويل يومئذ للمكذبين . انطلقوا إلى ما كنتم به تُكذِّبون ، انطلقوا إلى ظلٍّ ذي ثلاثِ شُعَبٍ ، لا ظليلٍ ولا يُغني من اللهب ، إنها تَرْمي بشررٍ كالقَصْرِ[2] ، كأنه جِمَالةٌ[3] صُفْرٌ . ويلٌ يومئذ للمكذّبين ﴾ .. إلخ

---

(١) كفاتاً : وعاء .

(٢) القصر : جمع قصرة ، وهي الشجرة الغليظة .

(٣) جمالة : جمع جمل وهو الحبل الغليظ .

ومرة ينتقل من الخبر إلى الإنشاء ، أو من الوصف إلى الحوار . فيخيل إليك أن المشهد حاضر يوجه فيه الخطاب ، أو يدور فيه الحوار :

﴿ وجاءتْ سكرةُ الموت بالحق . ذلك ما كنتَ منه تَحيدُ . ونُفخَ في الصُّور ، ذلك يومُ الوعيد . وجاءت كلُّ نَفسٍ معها سائقٌ وشهيد . لقد كنتَ في غفلة من هذا فكشفْنا عنك غِطاءك فبصرُك اليومَ حديدٌ[1] . وقال قرينه : هذا ما لديَّ عتيدٌ[2] . ألقيا في جهنم كلَّ كفَّار عنيدٍ ، منَّاعٍ للخيرِ مُعْتدٍ مُريبٍ ، الذي جعلَ مع الله إلهاً آخرَ . فألقِياهُ في العذابِ الشديدِ ﴾ ... إلخ .

ومرة يتحدث عن الدنيا كأنها ماضٍ كان ، والأخرى كأنها الحاضر الآن :

﴿ وسيقَ الذين كفروا إلى جهنم زُمَراً ، حتى إذا جاءوها فُتِحت أبوابها وقال لهم خزَنَتها : ألمْ يأتكم رسلٌ منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ! ولكن حَقَّتْ كلمةُ العذاب على الكافرين ﴾ !

وهكذا تلتقي هذه الألوان من التعبير عند سمة واحدة ، هي

---

(١) نافذ .

(٢) حاضر .

استحضار المشهد وإحياؤه ، كأنما هو مشهود محسوس . وذلك بلا ريب أعظم تأثيراً في النفوس .

* * *

وسمة ثالثة في هذه المشاهد ، وفي صور القرآن جميعاً ، تلك هي سمة « التناسق » ولقد أفردت لهذه السمة فصلاً مطولاً في كتاب « التصوير الفني » وكل ما فيه ينطبق على « مشاهد القيامة » . وهو تناسق يتجلى أولاً في جزئيات المشهد ، فتبدو هذه الجزئيات منسقة ؛ بين بعضها البعض لون من التماثل أو التشابه أو التداعي أو التقابل . ولكنها من جوّ واحد لا نشوز فيه ولا مفارقات . ويتجلى ثانية في جرس الألفاظ ليدل هذا الجرس على صورة معناه في بعض الأحيان ، وليؤلف مع بقية الألفاظ إيقاعاً يناسب جوّ المشهد في جميع الأحيان ؛ فإذا الموسيقى المصاحبة للمشهد تكمل جوّه ، وتناسب أحاسيسه ، وتشترك مع الألفاظ في تصوير الغرض العام . ويتجلى ثالثاً في اتساق المشهد كله بألفاظه ومعانيه وجرسه وإيقاعه ، مع السياق الذي يعرض فيه ، سواء جاء تعقيباً أو مقدمة لبرهان ، أو تأكيداً لقضية أو تثبيتاً لإيمان ... إلخ . ومشاهد القيامة في القرآن كلها مسوقة لأداء الغرض الديني ، ذلك الغرض الأول للقرآن . ولكنها تتصل بالوجدان الديني عن طريق الوجدان الفني .

وتفصيل هذه الألوان من التناسق هنا يستغرق فصلاً كالفصل الذي استغرقه في كتاب « التصوير الفني في القرآن » . لذلك نكتفي بهذا القول المجمل ، ونحيل على استعراض المشاهد في هذا الكتاب ، وقد وقفنا عند بعضها لنبرز هذا التناسق فيها بما يقتضيه المقام .

أقول : وقفنا عند بعضها – دون سائرها – وجعلنا هذا البعض

نماذج للتناسق ، لأن تقصيه في كل مشهد يضخم الكتاب ، وقد يبدو فيه بعض التكرار . وبعد أن يقرأ القارئ تلك النماذج المفصلة يستطيع أن يطبق هو عليها بلا عسر ولا اقتسار .

* * *

تعنى هذه المشاهد بتصوير الهول في يوم القيامة ، ذلك الهول الذي يشمل الطبيعة كلها ، ويغشى النفس الإنسانية ويهزها . ولا يكاد يخلو مشهد واحد من اشتراك الأحياء فيه ، وقلما تنفرد الطبيعة بالهول إلا أن يدب فيها نوع من الحياة . ولكن مرة تكون الشخوص البارزة في المشهد هي أفراد الطبيعة جميعاً ، ومرة تكون هي النفوس الآدمية الواعية أو المخلوقات الحيوانية المتنوعة ، ومرة يكون المسرح مشتركاً بين هؤلاء وهؤلاء .

مرة تبرز تلك الشخوص كاملة في الطبيعة الصامتة وفي الحيوان الأعجم وفي الإنسان سواء :

﴿إذا الشمسُ كوِّرت ، وإذا النجومُ انكدرت ، وإذا الجبالُ سُيِّرتْ وإذا العِشارُ[1] عُطِّلتْ ، وإذا الوحوشُ حُشِرتْ ، وإذا البحارُ سُجِّرت[2] ، وإذا النفوسُ زوِّجتْ ، وإذا الموءودةُ سُئلتْ بأي ذنب قُتِلتْ ، وإذا الصحفُ نُشِرتْ ، وإذا السماء كُشِطَتْ ، وإذا الجحيمُ سُعِّرتْ ، وإذا الجنةُ أُزلفتْ : علمتْ نفْس ما أحضَرتْ﴾ ...

---

(١) العشار : النوق الحوامل .

(٢) سجرت : ملئت .

فتحس أن الهول يشمل الأرض والسماء ، والحيوان والإنسان ، والصغار والكبار ، والجنة والنار وكلها في موقف الهول والانتظار .

ومرة تبرز مشاهد الطبيعة وحدها يحركها الهول ويرجها :

﴿ إذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة . إذا رُجَّت الأرض رجًّا ، وبُسَّت الجبال بَسّاً ، فكانت هباءً منبثاً ﴾ .

ومرة نلمح الهول في ظلال نفسية ، وخلجات شعورية :

﴿ يومَ يَفِرُّ المرءُ من أخيه ، وأمِّه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . لكل أمرئ منهم يومئذ شأنٌ يُغنيه ﴾ ...

﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ؟ يومئذ يودُّ الذين كفروا وعَصَوُا الرسول لو تُسَوَّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ . ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم : إن زَلْزَلَة السّاعة شيءٌ عظيم . يومَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كل مرضِعة عما أرضعت ، وتَضَعُ كل ذات حَمْلٍ حَملها ، وترى الناسَ سُكارى وما هم بسُكارى ، ولكنّ عذابَ الله شديد ﴾ .

ومرة تشترك مجالي الطبيعة مع شخوص الآدميين ، في تصوير الهول العظيم :

﴿ القارعة . ما القارعة ؟ وما أدراك ما القارعة ؟ يوم يكون النّاسُ كالفَرَاشِ المبثوث ، وتكون الجبال كالعِهْنِ[1] المنفوش ﴾ . ﴿ يومَ

(١) الصوف .

تَرْجُفُ الأرْضُ والجبالُ ، وكانت الجبال كثيبا مَهِيلاً ، إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعونَ رسولاً ؛ فعَصى فرعونُ الرسول ، فأخذناه أخذاً وبيلاً . فكيف تَتَّقُون – إن كفرتُم – يوماً يجعل الوِلدان شِيباً ، السماء مُنْفَطِرٌ به ؟ كان وعده مفعولاً ﴾ .

* * *

وتعنى هذه المشاهد بتصوير مواقف الحساب ، قبل النعيم والعذاب وهنا نلتقي بألوان شتى من طرق العرض الكثيرة ، وسمات شتى للموقف المعروض .

مرة يطول مشهد العرض والحساب حتى لتحسبه سوف يدوم ؛ ومرة يعرض سريعاً خاطفاً لا تكاد تتملاّه العيون . وهذا أو ذلك تقرره الأصول الفنية ، القائمة على أسس نفسية شعورية ، وتحدده طبيعة الموقف ، ويلتقي بالغرض الديني في النهاية فيؤديه .

مرة يطول على هذا النحو :

﴿ وبَرَزُوا لله جميعاً ، فقال الضعفاءُ للذين استكبروا : إنَّا كنَّا لكم تَبَعاً فهل أنتم مُغْنُون عنا من عذابِ الله من شيء ؟ قالوا : لو هدَانا الله لهديناكم ، سواءٌ علينا أجَزِعنا أم صَبَرنا ، ما لنا من محيص . وقال الشيطان لَمّا قُضِيَ الأمرُ : إنّ الله وعَدَكم وعْدَ الحق ، ووعدتُكم فأخلَفْتُكم ، وما كان ليَ عليكمْ من سُلطان إلا أن دعوتُكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بِمُصرِخِكم وما أنتم بِمُصرِخيَّ ، إنّي كفرتُ بما أشركتمونِ من قبلُ ، إنّ الظالمين لهم عذابٌ أليم ﴾ ...

﴿ ويومَ يَعَضُّ الظالمُ على يديه ، يقول : يا ليتني اتخذتْ مع الرسول سبيلاً . يا ويلتَا ! ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلني عن الذِّكر بعد إذ جاءني ، وكان الشيطانُ للإنسان خَذولاً ﴾ ... ﴿ كلُّ نفس بما كسبتْ رهينة . إلا أصحابَ اليمين . في جناتٍ يتساءلون عن المجرمين : ما سلككم في سَقَر ؟ . قالوا : لم نك من المصَلّين ، ولم نكُ نطعمُ المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ﴾ .

وهكذا يترك المشهد الأول للحوار والخصام ، ويترك المشهد الثاني للندم والحسرات ، ويترك الثالث للاعتراف الطويل ، لأن كلا من هذه المواقف يستدعي التمهل والتطويل ، ليتم التأثر والتأثير .

ومرة يقصرُ العرض حتى ليبدو كاللمح :

﴿ ووُفِّيَت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴾ ... ﴿ فإذا نُفِخَ في الصُّور فلا أنسابَ بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ ... ﴿ يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ .

وتختلف أسباب القصر هنا بحسب المواضع التي ترد فيها . تارة يكون القصر لأن الموقف موقف هدوء وسكون وجلال وخشوع ، لا يليق فيه الأخذ والرد والجدل والنقاش . وتارة يكون الحسم والفصم هو المقصود ، فتذكر جملة واحدة ينتهي بعدها كل جدال . وتارة يكون المراد أن كل شيء واضح ، فلا حاجة إلى كلام أو مِحال .

وهكذا من شتى الأغراض التي تستدعي العرض الخاطف القصير .

* * *

وتعنى هذه المشاهد بتصوير النعيم والعذاب ، بعد البعث والحساب وهي تعرضهما مرة ماديين يلمسهما الحس ، ومرة معنويين تدركهما النفس ، ومرة تجمع بين هذا اللون وذاك .

يتجسم العذاب المادي المحسوس في مثل هذه الصورة :

﴿ والذين يكنزون الذهبَ والفضةَ ولا ينفقونها في سبيل الله فبشِّرهم بعذَابٍ أليم . يومَ يُحْمَى عليها في نار جهنم ، فتُكوَى بها جباهُهم وجنوبهم وظهورهُم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ ... ﴿ هٰذان خصْمان اختصموا في ربهم ، فالذين كفروا قُطِّعتْ لهم ثياب من نار ، يُصَبُّ من فوق رءوسهم الحميم ، يُصْهَرُ به ما في بطونهم والجلود ؛ ولهم مَقامعُ من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها — من غَمٍّ — أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق ﴾ .

وهو عذاب — كما ترى — يمس الجلود والبطون ، ويشوي الأمعاء والجسوم !

كذلك يتجسم النعيم المادي المحسوس في مثل هذه الصورة :

﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين؟ في سِدْرٍ مخضود[1] ، وطَلْحٍ منضودٍ ، وظلٍّ ممدود ، وماءٍ مسكوب ، وفاكهةٍ كثيرةٍ ، لا

---

(١) لا فيه شوك .

مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ ، وفُرُشٍ مرفوعة . إنا أنشأناهنَّ إنشاءً ، فجعلناهن أبكاراً ، عُرُباً[1] أتراباً ، لأصحاب اليمين ﴾ ... ﴿ وإن للمتقين لَحُسْنَ مآب : جناتِ عَدْنٍ مفتحةً لهم الأبوابُ ، مُتَّكِئين فيها يَدْعون فيها بفاكهةٍ كثيرةٍ وشرابٍ ، وعندهم قاصراتُ الطَّرف أترابٌ . هذا ما توعَدون ليوم الحسابِ ﴾ .

وهو نعيم تتمتع به البطون والأجسام ، وتلتذّه الجوارح والأبدان .

ويدق النعيم والعذاب ويعمقان ، حتى ليغدوان ظلالاً نفسية رقيقة ، تنفرد بها النفوس أو تنضح منها على الوجوه ، في مثل هذه الصور . للنعيم :

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُداً ﴾ . ﴿ ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِدّيقين والشهداء والصالحين ، وحَسُنَ أولئك رفيقاً ﴾ ... وللعذاب : ﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ، يومَ ينظر المرء ما قَدَّمتْ يداه ، ويقول الكافرُ : يا ليتني كنتُ تراباً ﴾ . ﴿ ولو تَرَى إذْ وُقِفوا على ربهم ، قال : أليسَ هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا ! ﴾ ...

إلى آخر هذه المشاهد التي يبدو فيها النعيم والعذاب خالصين في النفس والضمير ، من حبور واطمئنان وود ، أو ندم وخزي وتأنيب .

---

(١) متحببات إلى أزواجهن .

وتارة تختلط مظاهر النعيم أو مظاهر العذاب وتزدوج ، فيبدو النعيم أو العذاب المادي ، ممازجاً للنعيم أو العذاب الروحي . وهذا هو الغالب في مشاهد النعيم والعذاب . نضرب منها بعض الأمثال : للنعيم :

﴿ إن المتقين في جناتٍ ونَهَرٍ في مَقْعَد صِدْقٍ عند مليكٍ مقتدر ﴾. ﴿ إن أصحابَ الجنة اليوم في شُغُلٍ فاكهون ، هم وأزواجُهم في ظلال على الأرائك متكئون ، لهم فيها فاكهة ، ولهم ما يَدَّعون . سلامٌ قَوْلاً من ربٍّ رحيم ﴾ ... ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورُهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنّاتٌ تجري من تحتها الأنهار ﴾ ...

وللعذاب : ﴿ إن شجرة الزَّقُّوم ، طعامُ الأثيم ، كالمُهْل يغلي في البطون كغَلْي الحميم . خذوه فاعْتِلُوه ، إلى سواء الجحيم ، ثم صُبُّوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذُق إنك أنتَ العزيزُ الكريم ! إن هذا ما كنتم به تَمْتَرون ﴾ . ﴿ يومَ يُدَعُّون إلى نار جهنم دعاً . هذه النار التي كنتم بها تكذبون . أفسحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون ؟ ﴾ ... ﴿ والذين كفروا لهم نارُ جهنم ، لا يُقْضَى عليهم فيموتوا ، ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابها ، كذلك نجزي كلَّ كفور . وهم يصطرخون فيها : ربنا أخرجْنا نعملْ صالحاً غير الذي كنّا نعمل ! أوَلم نعمِّركم ما يتذكر فيه من تذكَّرَ ؟ وجاءكم النذيرُ ؟ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ ...

وهكذا يصحب النعيم المادي لون من التكريم المعنوي ، ويصحب

العذاب الحسي ذلك التبكيت النفسي ؛ فليتقي كلاهما في الحس والنفس ، ويكون النعيم مضاعفاً كما يكون العذاب .

* * *

وكما يوصف النعيم والعذاب وصفاً مصوراً مشخصاً ، كذلك قد يبدو في هيئة ظلال ، تلقيها التعبيرات ، فتدل على الاسترواح للنعيم ، كما تدل على الضيق بالعذاب ، ولو لم يوصف ذلك النعيم وهذا العذاب .

تسمع المؤمنين يقولون : ﴿ الحمد لله الذي أذهبَ عنّا الحزَنَ ، إن ربنا لغفورٌ شكور . الذي أحلّنا دار المُقَامة من فضله ، لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنا فيها لغوب ﴾ فتحس برد الراحة ، ولذة النعيم ، وروْح الاطمئنان ، وهدوء الضمير .

وتسمع الكافرين في جهنم ينادون من وراء الأسوار : ﴿ يا مالكُ ، لِيقْضِ علينا ربُّك ﴾ . فتحس ضيق الصدور ، وألم العذاب ، ووهج النار ، ولفح الجحيم . وإن لم يقل لك كيف هذا الجحيم .

وتقرأ عن الذين كفروا وعصوا الرسول : ﴿ يومئذٍ يودُّ الذين كفروا وعَصَوُا الرسولَ لو تُسَوَّى بهم الأرض ﴾ فتتراءى لك ظلال نفسية واضحة للخزي القاتل والخجل المميت ، في موقف المواجهة ، حين يستدعي الشهود من كل أمة ، ويجاء بالرسول شهيداً على الذين كفروا وعصوا الرسول !

كما تقرأ عن العذاب ﴿ من يُصْرَفْ عنه يومئذ فقد رَحِمه ﴾

فيرتسم لك هول هذا العذاب الذي يعد مجرد صرفه رحمة ، ولو لم يقل لك شيئاً عن هول هذا العذاب .

وهكذا تقوم الظلال السريعة الخفيفة ، مقام الصور الكاملة العنيفة ، فتغني غناءها في التصوير ، وتقوم مقامها في التعبير ، وتدع للخيال مجاله في رسم الظلال ، وتصوير السمات ، وتأليف الأشكال .

* * *

ومن أطرف مشاهد القيامة ، ذلك الجدل العنيف الذي يقوم بين المشركين وآلهتهم أو بين المتبوعين وأتباعهم ؛ وذلك السمر اللطيف الذي يدور بين المؤمنين والملائكة ، أو بين المؤمنين والمؤمنين . وفي الكتاب ألوان شتى مشروحة ، فنكتفي هنا بعرض بعض المشاهد بلا تعليق :

﴿ ولو يَرَى الذين ظلموا إذ يَرَوْن العذابَ أن القوة لله جميعاً ، وأن الله شديد العذاب . إذ تبرّأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا ، ورأَوُا العذابَ وتقطعت بهم الأسبابْ . وقال الذين اتَّبعُوا : لو أن لنا كَرَّةً فنتبرأَ منهم كما تبرأوا منّا ! كذلك يُريهم اللهُ أعمالَهم حَسَراتٍ عليهم ، وما هم بخارجين من النار ﴾ ....

﴿ ولو ترَى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يَرْجعُ بعضُهم إلى بعضٍ القولَ : يقول الذين اسْتُضْعِفوا للذين اسْتَكْبَروا : لولا أنتم لكُنّا مؤمنين ! قال الذين استكبروا للذين اسْتُضْعِفوا : أنحنُ صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين ! وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكرُ الليلِ والنهارِ ، إذ تأمروننا أن نكفرَ بالله ونجعل

له أنداداً ! وأسرُّوا الندامة لمّا رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ، هل يُجْزَوْنَ إلا ما كانوا يعملون ؟ ﴾

... ﴿ قال قرينه : ربَّنا ما أطغيتُه ولكن كان في ضلال بعيد . قال : لا تختصموا لديّ : وقد قدمتُ إليكم بالوعيد ﴾ .

ذلك لون من الجدل العنيف بين أهل النار ، فإليك لوناً من السمر اللطيف بين أهل الجنة :

﴿ وأقبل بعضُهم على بعضٍ يتساءلون : قالوا : إنا كُنَّا في أهْلِنا مُشْفِقِين ، فمَنَّ الله علينا ووَقانا عذابَ السَّمُوم ، إنّا كُنّا من قبلُ ندعوه ، إنّه هوَ البرُّ الرَّحيم ﴾ .

﴿ فأقبل بعضُهم على بعض يتساءلون : قال قائل منهم ، إنّي كان لي قرين ، يقول أئنك لمن المُصَدِّقين ؟ أئذا مِتْنا وكنّا تُراباً وعظاماً أئنّا لمدينون ؟ قال : هل أنتم مُطّلعون ؟ فاطّلعَ فرآه في سواء الجحيم . قال : تالله إن كِدْتَ لَتُرْدِين ، ولولا نعمةُ ربي لكنتُ من المُحْضَرِين . أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذَّبين ؟! ﴾ .

وبهذا القدر نكتفي من هذه المشاهد الطريفة ، فكلها واردة بعد ذلك في الكتاب مع الشرح الكامل . والبيان الطويل . وحسبنا أن كشفنا في هذا الفصل المجمل عن طبيعة هذه المشاهد وألوانها وطرائقها بلا تفصيل ولا تطويل .

مشاهد القيامة

سورة القلم (ن)[1]

﴿ يومَ يُكشَفُ عن ساقٍ ويُدْعوْن إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعةً أبصارهم تَرْهَقهم ذِلّةٌ ، وقد كانوا يُدعَوْن إلى السجود وهم سالمون ﴾ .

* * *

هنا يبرز للخيال مشهد شاخص من مشاهد القيامة . فهؤلاء الذين كانوا يُدعون في الدنيا إلى السجود فلا يلبون ، اعتماداً على أنه لن يكون هناك يوم آخر . هؤلاء يُدْعَوْن الآن ، وقد جد الجد ، وشُمِّر عن الساق والساعد ، يدعون إلى السجود تبكيتاً لهم وتوبيخاً . وقد فات الأوان عن استدراك ما كان ، فلا يستطيعون السجود . إما لفوات الوقت المناسب ، وإما للهول الذي يغشاهم ويعجزهم عن الحراك . وهم منكسو الرؤوس ، خاشعون خشوع الذلة ، وقد كانوا يأبون خشوع العبادة . فالجزاء إذن وفاق على ما كانوا يصنعون .

وهول الموقف هنا هول نفسي حي ، نستشفه من الظلال النفسية التي يلقيها موقف هؤلاء الأحياء خاشعين ترهقهم ذلة ، يواجهون

---

(١) السورة الثانية ، سبقتها سورة العلق ، وفيها إشارة عارضة للقيامة . وهي مكية إلا عشر آيات فمدنية .

التبكيت والتوبيخ ، ويطلب إليهم حيث لا يستطيعون ، ما كانوا يأبونه قادرين !

وهنا وقد شخص الموقف حتى لكأنه مشهود ، يتوجه إلى الرسول الأمين الذي يلقى العنت من المكذبين ، فيقول :

« فذرني ومن يكذِّب بهذا الحديث » ولا عليك منه فأنا به كفيل . إنه لغافل عما يراد به ، معتمد على ما بين يديه من النعيم . وإن هو إلا أحبولة تؤدي به إلى مثل هذا المشهد الذي مر منذ حين :

« سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأُمْلي لهم إن كيدي متين » وسيعلمون ذلك ولكن حيث لا ينفعهم ما يعلمون . « يوم يُكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ... » !

وبهذا التهديد المستتر ، بعد الاستعراض المؤثر ، يبلغ من النفس الإنسانية أعماقها ، وقد ارتعش الحس ، وتهيأ للاعتبار .

سورة المزمل [1]

﴿ واصبرْ على ما يقولون واهجرْهم هَجْراً جميلاً ، وذَرْني والمكذِّبين أُولى النَّعْمةِ ومهِّلهم قليلاً . إنَّ لَدَيْنا أنْكالاً وجحيماً ، وطعاماً ذا غُصَّة ، وعذاباً أليماً . يوم تَرْجُف الأرضُ والجبالُ ، وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ﴾ .

﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولاً ، شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعونُ الرسول ، فأخذناه أخذاً وبيلاً . فكيف تتّقون —

(١) السورة الثالثة . مكية إلا ثلاث آيات .

إن كفرتم – يوماً يجعل الوِلْدانَ شِيباً ، السماءُ مُنْفطِرٌ به ؟ كان وعدُه مفعولاً . إنَّ هذه تذكِرة ، فمن شاء اتَّخَذ إلى ربّه سبيلاً ﴾ .

* * *

« إن لدينا أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً » يجيء هذا التهديد رداً على تكذيب « أولي النعمة » خاصة . فالطعام ذو الغصة هو الجزاء المقابل للنعمة . وأولو النعمة يستأهلونه ، لأنهم لم يراعوا نعمتهم ، ولم يشكروا واهبها إياهم . فاصبر على كيدهم واهجرهم ، واكظم انفعالاتك ، وليكن هذا الهَجر جميلاً لا هُجر فيه ، وان هذا لفي حاجة إلى طاقه أخرى من الصبر الجميل .. اصبر ودعهم لي فأنا بهم كفيل ، وإن مهلتهم لقصيرة .. إن لدينا قيوداً تنكل بهم وتؤذيهم ، وجحيماً تحجمهم وتشويهم ، وطعاماً تلازمه الغصة « ذو غصة » ! وعذاباً أليماً في يوم رهيب مخيف ...

ثم يرسم مشهد اليوم المخيف :

« يومَ تَرْجُفُ الأرض والجبالُ وكانت الجبال كثيباً مهيلاً » .

فها هي ذي صورة للهول تتجاوز الإنسان ونفسه إلى الطبيعة كلها والإنسان من جملتها . فليتمل الخيال – إن استطاع – صورة ذلك الهول الذي ترجف له الطبيعة في أكبر مجاليها : الأرض والجبال . وإنا لا نعرضكم لهذا اليوم إلا بعد أن نرسل إليكم رسولاً يحاول هدايتكم ويشهد عليكم :

« إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً » وإنكم لتُدلِون بقوّتكم ، فأين أنتم من فرعون في قوته ؟

« فعصى فرعونُ الرسولَ فأخذناه أخذاً وبيلاً » ، أفتريدون أن تؤخذوا إذن كما أخذ فرعون القويُّ ؟ وإذا انتهت هذه الدنيا « فكيف تتقون – إن كفرتم – يوماً يجعل الولدان شيباً ، السماء منفطر به » .

إن صورة الهول هنا لتنفطر لها السماء ، ومن قبل ارتجفت لها الأرض والجبال ، وإنها لتشيب الولدان . وإنه لهول ترتسم صوره في الطبيعة الصامتة ، وفي الإنسانية الحية . وعلى الخيال أن يتملى هذه الصور الشاخصة . وإنه ليتملاها فيهتز لها الوجدان ؛ وإنه ليؤكدها تأكيداً : « كان وعدُه مفعولاً » ، فلا شك فيه ، ولا مفر منه ؛ وما هذا الإنذار إلا للذكرى : « إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً » وإن السبيل إلى الله لآمن وأيسر ، من السبيل إلى هذا الهول العصيب !

سورة المدثر [1]

﴿ فإذا نُقر في النّاقور ، فذلك يومئذ يومٌ عسيرٌ ، على الكافرين غيرُ يسير . ذَرْني ومن خلقتُ وحيداً ، وجعلتُ له مالاً ممدوداً ، وبَنينَ شهوداً ، ومهّدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيدَ ! كلاّ . إنه كان لآياتنا عنيداً . سأُرهقهُ صَعوداً . إنه فكَّر وقدَّر ، فقُتل ! كيف قدَّر ؟ ثم قُتل ! كيف قدَّرَ ؟ ثم نظر ، ثم عبَس وبَسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : إنْ هذا إلا سحرٌ يُؤْثر ، إنْ هذا إلا قولُ البشر . سأُصليه سقَر . وما أدراك ما سقر ؟ لا تُبقِي ولا تَـذَر ، لَوَّاحةٌ للبشر . عليها

(١) السورة الرابعة . مكية .

تسعةَ عشر . وما جعلنا أصحابَ النار إلا ملائكةً ، وما جعلنا عِدَّتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستَيْقن الذين أوتو الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين أوتواالكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ كذلك يُضل الله من يشاء ويَهدي من يشاء ، وما يعلم جنودَ ربك إلا هو ، وما هي إلا ذكرى للبشر . كلا ، والقمرِ ، والليلِ إذا أدبرَ ، والصبح إذا أسفرَ . إنها لإحدى الكُبَر ، نذيراً للبشر ، لمن شاء منكم أنْ يتقدَّم أو يتأخر . كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ رهينة . إلا أصحابَ اليمين ، في جناتٍ ، يتساءلون عن المجرمين : ما سَلَكَكم في سقر ؟ قالوا : لم نكُ من المصلين ، ولم نكُ نُطْعِم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذِّب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين . فما لهم عن التذكرةِ مُعْرِضين ، كأنهم حُمُر مستنفِرة ، فَرَّتْ من قَسْوَرةٍ ؟ ﴾ .

* * *

جاءت هذه المشاهد للقيامة ، بعد أمر للرسول بالصبر على مكاره الرسالة :

﴿ يا أيها المدثر ، قمْ فأنذر ، وربَّك فكبِّر ، وثيابَك فطهر ، والرُّجْزَ فاهجر ، ولا تمنُن تستكثر ، ولربك فاصبر﴾ .

ويرجح أن هذه السورة تالية لسورة المزمل . والأمر بالصبر هنا كالأمر بالصبر هناك تقريباً .

ولأول مرة هنا يذكر النقر في الناقور . أي النفخ في الصور[1] . حيث يحدث النفخ ما يشبه النقر لشدة وقعه في السمع . وذلك تمهيداً لقوله : « فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير » .

وفي هذا التعبير إبهام للعذاب . يقف الإنسان أمامه زامًّا على أنفاسه ، محسًّا إحساساً غامضاً بالشدة ، دون أن يرسم خياله صورة معينة لليوم العسير . فوقعه العامّ المبهم هو المقصود هنا ، والحالة النفسية الرهيبة هي الهدف المرسوم .

فإذا فعل الموقف فعله في النفس ، وإذا دب فيها الروع الخفي في سكون وصمت ، كان هذا الوقت هو أنسب الأوقات لتهديد ذلك المعتز بماله وجاهه حين يخلي الرسول بينه و بين الله صاحب القوة الرهيبة ، وصاحب اليوم العسير :

« ذرني ومن خلقت وحيداً ... » إلخ .

ذرني له منفردَيْن . يا للهول ! حين تبرز القوة الكبرى لهذا المخلوق الضعيف . لقد أنعمت عليه بشتى النعم (وتعدادها هنا والإطالة فيها غرض مقصود) ... « ثم يطمع أن أزيد ! » فهو لا يشكر ، ولا يؤمن بالمنعم . كلاّ ، فلن أزيده شيئاً ، بل « سأرهقه صَعُوداً » بعد أن « مهدت له تمهيداً » ...

سأجشمه الصعاب الوعرة (ولكنه لا يقولها هكذا في الأسلوب اللفظي المعنوي . إنما هو يرسم صورة حسية ، صورة الإصعاد في الوعر من الطريق ، والتوقل في عسر ومشقة) سأرهقه صعوداً .

---

(١) البوق .

«سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر ؟ لا تُبقي ولا تذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر» .

وبذلك يرسم صورة لسقر . يبدؤها بالاستهوال والتجهيل : «وما أدراك ما سقر ؟» ثم يختمها بصورتها تلتهم كل شيء ولا تبقي على شيء . وهي بعد هذا كله سليطة تلوح للبشر وتتعرض في عنف وتبجح ، وتلوّح بشرتهم بلظاها المستعر . وعليها حراس متعددون لا تجدي معهم قوة صاحبنا ولا أهله وبنوه . وهذا العدد لمجرد التكثير «وما يعلم جنود ربك إلا هو» .

وإذا كانت صورة سقر هذه إنما تتعرض للتذكير والتأثير ، ولإظهار الحقيقة وإشهارها ، فقد تلاها قسم بمشاهد سافرة ظاهرة ، كأنما هي إطار مشع لصورة منيرة :

«والقمر ، والليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر . إنها لإحدى الكُبر . نذيراً للبشر» وهنا التناسق في المشهد الذي يرتسم في الحس : القمر المضيء ، والليل المدبر ، والصبح المسفر . كله إطار واضح ، وبداخله : «إنها لإحدى الكبر . نذيراً للبشر» . إنها لإحدى العظائم السافرة الظاهرة التي يراها البشر نذيراً لهم ليس فيه من خفاء . فكل إنسان إذن وما يشاء لنفسه : «لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر» .

وكل إنسان مسؤول عما يكسب مقيد به كالرهين . «كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين» . وإنهم لمسؤولون عما كسبوا مرهونون به . ولكن لما كانوا قد صنعوا خيراً ، فكأن قيد الرهن قد فك عنهم ، فصح أن يستثنوا من هذا التعميم : «إلا أصحاب اليمين» .

والنعيم هنا لا يكون بالنجاة والفكاك وحدهما ، ولكنه كذلك بالشعور به ، وبالامتياز دون المجرمين ؛ فهو نعيم نفسي معنوي ،

يرسمه في مشهد حوار بينهم وبين المجرمين : «يتساءلون عن المجرمين : ما سلككم في سقر» !

وهنا ينطلق المجرمون يجيبون في إسهاب وتطويل :

« قالوا : لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين» .

وكان يكفي أن يجيبوا بجملة واحدة : كنا كافرين ولكنّ في هذا الإسهاب اتساقاً مع قوله : « كل نفس بما كسبت رهينة » فهم هنا يذكرون « حيثيات الحكم » على أنفسهم بتطويل وإسهاب . وفي طول العرض للمشهد حكمة أخرى فنية تحقق الغرض الفني والديني من عرضه . فموقف الاعتراف موقف مؤثر ، ومن الأصول الفنية أن يطول ليسري إلى نفوس النظارة في بطء وتطويل !

فإذا استوفت الحيثيات ، صدر الحكم العادل : « فما تنفعهم شفاعة الشافعين» وكل النظارة موافقون !

وإذ كان هذا العرض كله للتذكير والتحذير : « فما لهم عن التذكرة معرضين » ؟ ... هنا يرسم لهم صورة منكرة : « كأنهم حُمُرٌ مستنفرة ، فرت من قسورة » . حمر وحشية تفر من الأسد الكاسر . أجل ، فما يعرض عن التذكرة بعد هذا كله إلا الحُمُرُ . والحمر المستنفرة ، وأولئك هم الذين « لا يخافون الآخرة » !

سورة المسد[1]

﴿ تَبَّتْ يدَا أبي لهب وَتبّ . ما أغْنَى عنه ماله وما كَسب . سَيَصْلى

(١) السورة السادسة مكية سبقتها سورة الفاتحة وليس فيها شيء من مشاهد القيامة وإن كانت فيها إشارة إليها .

ناراً ذاتَ لهب . وامرأتهُ حَمَّالةَ الحَطب . في جيدها حبل من مَسَد﴾ .

° ° °

أبو لهب . سيصلي ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، سيغل عنقها بحبل من مسد[1] ...

تناسق في اللفظ وتناسق في الصورة . فجهنم هنا نار ذات لهب ، يصلاها أبو لهب ، وامرأته التي تحمل الحطب وتلقيه في طريق محمد لإيذائه . والحطب مما يوقد اللهب . وهي تحزم الحطب بحبل ، فعذابها في النار ذات اللهب أن تغل بحبل من مسد ، ليتم الجزاء من جنس العمل ، وتتم الصورة بمحتوياتها الساذجة : الحطب والحبل والنار واللهب ، يصلى به أبو لهب ، وامرأته حمالة الحطب !

وتناسق من لون آخر في جرس الكلمات ، مع الصوت الذي يحدثه شد أحمال الحطب ، وجذب العنق بحبل من مسد . اقرأ : «تبت يدا أبي لهب وتبّ» تجد فيها عنف الشد والحزم ، الشبيه بشد الحطب وحزمه ، والشبيه كذلك بغل العنق وجذبه ، والشبيه بجو الحنق والتهديد الشائع في السورة .

وهكذا يلتقي تناسق الجرس الموسيقي ، مع حركة العمل الصوتية ، بتناسق الصور في جزئياتها المتناسبة ، بتناسق الجناس اللفظي ومراعاة النظير في التعبير ؛ ويتسق مع جو السورة وسبب النزول . ويتم هذا كله في خمس فقرات قصار ، وفي سورة من أقصر سور القرآن ، قد لا يبدو في ظاهرها جمال ، حين يتجه «الذهن» إلى البحث عن «المعاني» . ولكن حين يتجه الوجدان إلى الصور والظلال ، وإلى

---

(١) ليف .

الإيقاع والتناسق ، يجد هذه الوفرة من السمات الفنية : وهذه الصور المطوية ، وتلك اللمحات والألوان ، التي تجتمع في فقرات قصار جد قصار !

سورة التكوير [1]

﴿ إذا الشمسُ كُوِّرَتْ ، وإذا النجومُ انكدرتْ ، وإذا الجبالُ سُيِّرَتْ ، وإذا العِشارُ عُطِّلَتْ ، وإذا الوحوشُ حُشِرتْ ، وإذا البحارُ سجِّرتْ ، وإذا النفوسُ زُوِّجتْ ، وإذا الموءودةُ سُئلتْ ، بأي ذنب قُتِلتْ ، وإذا الصحف نشِرتْ ، وإذا السماء كُشطتْ ، وإذا الجحيمُ سُعِّرتْ ، وإذا الجنةُ أُزلفتْ ، علِمتْ نفْسٌ ما أَحْضَرتْ ﴾ .

* * *

هنا مشهد انقلاب تام لكل معهود ، وثورة شاملة لكل موجود ، تشترك في الانقلاب والثورة الأجرام السماوية والأرضية ، والوحوش النافرة ، والدواجن الأليفة ، ونفوس البشر ، وأوضاع الأمور ... وهنا ينكشف كل مستور ، ويتضح كل مجهول ... وهنا يتهيأ كل شيء لموقف الفصل ، والجزاء على الخير والشر ، في يوم عجيب غريب .

ويبدأ المشهد بحركة جائحة ، وثورة ثائرة . وكأنما انطلقت من عقالها المردة المدمرة ، فراحت تقلب كل شيء ، وتنثر كل شيء . تهيج الساكن ، وتروّع الآمن ... والموسيقى المصاحبة للمشهد سريعة

---

(١) السورة السابعة مكية .

الحركة ، لاهثة الإيقاع ، تشترك بإيقاعها السريع في تصوير المشهد ، وتمثيله في الإحساس .

فالشمس التي ترسل بأشعتها الطليقة المنتشرة ، قد انحسر ضوؤها وطويت أشعتها ، فلا ضوء ولا شعاع . والنجوم المتماسكة المنيرة ، قد انفصم رباطها فتناثرت وخبأ نورها فأظلمت . والجبال الثابتة الجامدة ، قد خفت ورقت وسيِّرت . والنوق العشار الساكنة المربوطة ، قد أرسلت وأهملت . والوحوش النافرة قد هالها الرعب فحشرت ، وانزوت تتجمع من الهول وهي الشاردة في الشعاب ! والبحار المنبسطة السارية قد تجمعت مياهها فامتلأت مجاريها . والنفوس المفردة من أجسادها قد التقت بها فهي أزواج . والموءودة التي قتلت في صمت وبلا محاكمة ولا جريمة ، بعثت لتسأل وتناقش في ذنبها الذي وئدت له ، ولا ذنب لها . فليجيب عنها الذين لم يسألوها ولم يحاكموها ! والصحف المطوية قد نشرت فهي مكشوفة مقروءة . والسماء التي كانت حجاباً للأرض وستاراً للجو قد كشطت وأزيحت فلا ستر ولا خفاء . والجحيم قد أمدت بالوقود وتأججت بالنيران ، والجنة قد هيئت وقربت للموعودين . وفي هذا اليوم الذي ينقلب فيه كل شيء ، ويتهيأ فيه كل شيء . في هذا اليوم الغريب العجيب ، الذي يصنع الغرائب والعجائب . في هذا اليوم تعلم كل نفس ما أحضرت معها من أعمال حيث لا ستر لشيء ولا خفاء .

* * *

الانقلاب هو طابع المشهد الذي تعرضه هذه السورة . وهو انقلاب شامل للأوضاع والأشياء . والانقلاب مخيف ، والنفس

الإنسانية بطبيعتها تستريح للمألوف ، وتشفق من التقلبات . فما بال هذه الانقلابات .

إن عرضها في هذه الصورة المروعة لكفيل بإثارة الخوف والإشفاق ، والتفكير مرة ومرة ، قبل العصيان والإباق !

لهذا يعقب على المشهد المثير بأنه لا يقسم بشيء من مشاهد الطبيعة على أن القرآن والدين عند الله ، أرسل بهما رسولاً أميناً من ملائكته إلى نبيه الكريم . فلا شك فيها ولا تظنين . فليؤمن بها من كان يكفر :

﴿ فلا أقسم بالخُنَّس[1] ، الجَوارِ الكُنَّس[2] ، والليل إذا عَسْعَس[3] ، والصبح إذا تنفّس : إنه لقول رسول كريم ﴾ . إلخ .

والمقسم به هنا من جنس المشاهد التي عرضت آنفاً . فالتناسق التصويري واضح ، والمقسم عليه هو صميم الدعوة الإسلامية ، يؤكده بأنه ليس في حاجة إلى القسم عليه ، وذلك في أنسب الظروف النفسية للإذعان والتصديق ، فلا حاجة إلى قسم ولا توكيد .

سورة الأعلى[4]

﴿ فذكِّر – إن نفعتِ الذكرى – سيذَّكَّر من يخشى ؛ ويتجنبها الأشقى ، الذي يَصلَى النارَ الكبرى ؛ ثم لا يموتُ فيها ولا يحيا ﴾ .

* * *

(١) الخنس : الكواكب التي تخنس في بعض دورتها فلا تظهر .

(٢) الكنس : النجوم التي يحجبها ضوء الشمس ، فكأنها في كناس أي بيت الظباء .

(٣) اشتد ظلامه .

(٤) السورة الثامنة مكية .

في هذا المشهد نوع من العذاب جديد لم يسبق من قبل عرضه . وهو عذاب ممل لا يؤدي إلى موت ولا يبقي على حياة . وهي صورة محسوسة من جانب ، تلقى ظلاً غير محسوس من الجانب الآخر : فأما الصورة فهي هذه النار الكبرى ، والمعذبون فيها لا يجدون الموت ولا يذوقون الحياة . وأما الظل فهو الحالة النفسية لهذا الذي لا يموت فيستريح ، ولا يحيا فيستمتع ؛ ولكنه يبقى هكذا معلقاً إلى غير أمد معلوم !

وتستطيع أن تكتب السطور الطوال في وصف ذلك العذاب ، فلا تبلغ ما بلغته هذه الفقرة وحدها : «لا يموت فيها ولا يحيا» فقد درج الناس على أن يروا أنفسهم إما أحياء وإما أمواتاً . فتلك صورة جديدة لا موت فيها ولا حياة . وهي تتعمق في المشاعر في صمت ورهبة ، لتحرك فيها الإحساس بالحيرة والقلق الغامضين من تلك الحال ، التي لا نهاية لها في الواقع ولا في الخيال .

« فذكِّر . إن نفعت الذكرى . » ذكّر بهذا الذي يكون ، وبهذه الصورة من العذاب . ذكّر . فستجد قلوباً « تخشى » ! وستجد قلوباً تتجنب الذكرى . تلك قلوب كتبت عليها الشقوة . كتبت عليها أن تصلى النار الكبرى ، ثم لا تموت فيها ولا تحيا .

سورة الفجر [1]

﴿ كلا إذا دُكّت الأرضُ دكاً دكاً ، وجاء ربُّك والمَلكُ صَفاً صَفاً ، وجيء يومئذٍ بجهنم . يومئذ يتذكر الإنسانُ ، وأنّى له الذّكرى ؟

---

(١) السورة العاشرة مكية . سبقتها سورة الليل وفيها إشارة قصيرة للنار .

يقول : يا ليتني قدَّمتُ لحياتي ! . فيومئذ لا يعذِّبُ عذابه أحدٌ ، ولا يوثِقُ وَثَاقه أحدٌ ﴾ .

﴿ يا أيتها النفسُ المطمئنةُ ، ارجِعي إلى ربِّك راضيةً مرضيّةً ، فادخلي في عبادي ، وادخلي جنّتي ﴾ .

* * *

ذلك نموذج للمقابلة النفسية بين الكافرين والمؤمنين في يوم الروع العظيم . ففي وسط الهول الذي ترسم صورته هذه الفقرات :

« إذا دكّت الأرض دكاً دكاً ، وجاء ربك والملك صفاً صفاً ، وجيء يومئذ بجهنم ... » تلك الفقرات التي تصور العرض العسكري تشترك فيه جهنم – بموسيقاه المنتظمة الإيقاع ، القوية التنغيم ، المنبعثة من البناء اللفظي الشديد الأسس ... يوم لا يعذِّب أحد كعذاب الله ولا يوثق أحد كوثاقه – والوثاق هنا وما فيه من الشدة يتسق مع الدك والصفّ – يوم يقف الإنسان نادماً بعد فوات الأوان ... يتذكر . وأنى له الذكرى ؟ يقول : يا ليتني قدمت لحياتي . وليت ما عادت تجدي ...

في وسط هذا الهول المروع ، يقال لمن آمن :

« يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » .

هكذا في عطف ولطف : « يا أيتها » وفي روحانية وتكريم : « يا أيتها النفس » وفي وسط الروع « المطمئنة » وفي وسط الوثاق والشدّ الانطلاق والرخاء « ارجعي إلى ربك » بما بينك وبينه من صلة وإضافة « راضية مرضية » بهذا الانسجام الذي يغمر الجو كله بالرضى

والتعاطف . « فادخلي في عبادي » ممتزجة بهم متوادة معهم « وادخلي جنتي » الجنة المضافة لي . والموسيقى حول المشهد مطمئنة متموجة رخية ، في مقابل تلك الموسيقى الشديدة العسكرية .

فالمقابلة هنا بين حالة وحالة ، وبين موسيقى وموسيقى والإيقاع دائماً في القرآن وسيلة من وسائل التصوير ، يتسق مع جو المشهد ويوحي به للضمير .

سورة العاديات [1]

﴿ والعادياتِ ضَبْحاً . فالمُورِيَاتِ قَدْحاً . فالمُغيراتِ صُبْحاً ، فأَثَرْنَ به نَقْعاً ، فوَسطْنَ به جَمْعاً ... إنَّ الإنسانَ لربِّهِ لكَنودٌ ، وإنه على ذلك لشهيدٌ ، وإنه لِحُبِّ الخير لَشديدٌ . أفلا يَعْلَمُ إذا بُعْثِرَ ما في القبور ، وحصِّلَ ما في الصُّدور : إن ربَّهم بِهِمْ يَوْمئذٍ لخبيرٌ ﴾ .

في هذا المشهد صورة ، وإطار للصورة !

صورة ليوم يبعثر فيه ما في القبور بعثرة شديدة شاملة بغير تخصيص أو تحديد ؛ ويؤخذ الخافي في الصدور أخذاً شديداً شاملاً كذلك يعبر عنه بالتحصيل ، أي جمع المحصول ، كأن ما خفي فيها وما عملته في دنياها حصاد يجمع ويحصل ، بعد ما تنثر القبور وتبعثر .

وإطار للبعثرة وما فيها من إثارة ... إطار من منظر الخيل العادية الراكضة ، تضبح بأصواتها اللاهثة ، وتوري الشرر بحوافرها القادحة ، حينما تغير صبحاً وعلى حين غفلة ، فتثير النقع وتعكر الجو ، وتتوسط

---

(١) هذه السورة هي الرابعة عشرة (مكية) وقد مرت ثلاث سور خالية من مشاهد القيامة .

الجمع في اندفاع وقوة ... يقسم بهذا كله على أن الإنسان جاحد لربه ، منكر لفضله ، شديد الأثرة ، ينطوي صدره على الحب البغيض لذاته ، غير مفكر في اليوم الذي تبعثر فيه القبور ، ويكشف عما في الصدور .

والإطار من جنس الصورة ، والمشاهد كلها مبعثرة مغبرة ، فيها المفاجأة والعنف ، وفيها الشد والدفع ، والموسيقى المصاحبة تلقى مثل هذا الأثر في الحس ، وفيها التناسق الملحوظ بين الصورة والجرس .

سورة عبس (1)

﴿ فإذا جاءت الصّاخَّة : يومَ يَفِرُّ المرء من أخيه ، وأمِّه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . لكل امرئٍ منهم يومئذ شأنٌ يُغْنيه . وجوهٌ يومئذٍ مُسْفِرةٌ ، ضاحكة مُسْتبشرة . ووجوهٌ يومئذ عليها غَبَرةٌ ، تَرْهَقَها قَتَرةٌ . أولئك هم الكَفَرَة الفَجَرة ﴾ .

* * *

الصاخّة لفظ ذو جرس عنيف نافذ ، يكاد يخرق صماخ الأذن ، وهو يشق الهواء شقاً ، حتى يصل إلى الأذن صاخاً ملحاً ... وهو يمهد بهذا الجرس المزعج للمشهد الذي يليه : مشهد المرء يفر وينسلخ من ألصق الناس به : « من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه » . أولئك الذين تربطهم به روابط لا تنفصم ؛ ولكن هذه الصاخة تشرخ الروابط شرخاً وتشقها شقاً .

---

(1) السورة (٢٤) مكية ، وقد مرت سبع سور ليس فيها مشاهد للقيامة ، وقد ذكرت مجرد ذكر في سورة التكاثر (١٦) وسورة النجم (٢٣) .

والهول في هذا المشهد هول نفسي بحت ، يفزع النفس ويفصلها عن محيطها ، ويستبد بها استبداداً : فلكلٍ نفسه وشأنه ، ولديه الكفاية من الهم الخاص به الذي لا يدع له فضلة من وعي أو جهد : « لكل أمرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .

وما بين السطور أكثر بكثير مما تحويه السطور ، والظلال الكامنة في طياتها ظلال عميقة سحيقة . فما يوجد أخصر ولا أشمل من هذا التعبير ، لتصوير الهم الذي يشغل الحس والضمير : « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .

ثم تعرض بجانب الصورة الأولى صورة ثانية للمقابلة بين الفريقين في هذا اليوم الهائل الذي يلهي المرء عن أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . فنرى في اللوحة وجوهاً مسفرة مشرقة ضاحكة مستبشرة ، أولئك هم الأخيار البررة . ونرى بجانبها وجوهاً مغبرة مكدرة ، تغشاها ظلمة وانكدار ، ويبدو عليها مضض وإرهاق .. أولئك هم الكفرة الفجرة .

سورة البروج [1]

﴿ إنَّ الذين فَتَنُوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا ، فلهم عذابُ جهنمَ ، ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ ، ذلك الفوزُ الكبير ﴾ .

* * *

(١) السورة (٢٧) مكية . سبقتها القدر والشمس ، ولا ذكر فيهما للقيامة .

جاءت هذه الآيات تعقيباً على قصة أصحاب الأخدود . وهم جماعة من نجران آمنوا بالمسيحية ، فعذبهم ذو نواس اليهودي الحميري بأن شق لهم أخدوداً وأوقد فيه ناراً ، ثم كبهم فيه ، فماتوا بالحريق ، على مرأى من الجموع التي جمعها لتشهد مصرعهم ، وهم لا يرتدون عن دينهم الذي اختاروه .

وابتدأت السورة بالقسم بمشهد جمع عظيم في يوم القيامة يناسب مشهد الجموع التي شهدت يوم الأخدود :

والسماءِ ذات البُروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود» بهذا التنكير للتهويل والتكثير فيمن يَشْهَد ومن يُشَهد من تلك الجموع التي ستكون في «اليوم الموعود» أما السماء ذات البروج ، فتشترك في تهويل المنظر وتضخيم اليوم وتتسق روعتها مع روعته وضخامتها مع ضخامته .

والقسم بهذه السماء ذات البروج وباليوم الموعود وما فيه من شاهد ومشهود يجيء لإثبات أن أصحاب الأخدود قد كتب عليهم القتل وانتهى الأمر ، كما قتلوا أولئك المؤمنين : «قتل أصحاب الأخدود» .

ولما كان المشهد الأول مشهد «حريق» في الأخدود ، كان من التناسق الفني بين المناظر أن يكون عذاب جهنم فيه «حريق» : «فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق» فهذا التناسق في اللوحات ملحوظ دائماً في تصوير القرآن للمشاهد . ولعل من تناسق التقابل مع الحريق ، أن يكون للمؤمنين جنات ، وجنات تجري من تحتها الأنهار . فالنار والأنهار متقابلان . ولما كان أصحاب الأخدود قد فازوا في الدنيا بقوتهم ، جاء التعقيب على دخول المؤمنين الجنة بأنه «الفوز الكبير» وذلك تناسق ملحوظ .

سورة القارعة [1]

﴿ القارعة . ما القارعة ؟ وما أدراك ما القارعة ؟ يوم يكون الناس كالفَرَاش المبثوث ، وتكون الجبال كالعِهْنِ المنفوش . فـأما من ثَقُلَتْ موازينُه ، فهو في عيشةٍ راضية . وأما من خفَّتْ موازينُه ، فأُمُّه هاوية . وما أدراك ماهيهْ ؟ نارٌ حامية ﴾ .

القارعة القيامة ، وفي هذه التسمية ما يلقي صورة القرع واللطم على حين غفلة . والمشهد المعروض هنا مشهد هول ماديّ يبدو الناس في ظله ضئالاً على كثرتهم ، فهم « كالفراش المبثوث » مستطارون لذلك مستخَفّون ؛ وتبدو الجبال الثابتة كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح الهوج . فمن تناسق العرض أن تسمى القيامة بالقارعة ، ليتسق الظل الذي يلقيه اللفظ ، والجرس الذي تشترك فيه حروفه كلها ، مع منظر الناس كالفراش المبثوث والجبال كالعهن المنفوش .

وقد ألقيت الكلمة أولاً بلا خبر ولا تمييز ، لتلقي ظلها وجرسها : « القارعة » ثم أعقبها سؤال للتهويل : « ما القارعة ؟ » ثم الإجابة بسؤال آخر للتجهيل : « وما أدراك ما القارعة » ؟ وحينما بلغت النفس أقصى درجات الصبر على الجهل والهول ، كان الجواب أشد هولاً : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعِهْنِ المنفوش » .

وتمشياً مع طريقة « التجسيم » التي تكثر في تصوير القرآن جعل لوزن الأعمال المعنوية موازين حسية ، على مشهد من الناس المبثوثين

---

(١) السورة (٣٠) مكية . سبقتها سورة التين وسورة قريش ، ولا ذكر فيهما لليوم الآخر .

كالفراش : «فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية» وكفى . «وأما من خفت موازينه فأمه هاوية» وهنا يأخذ في التفصيل – وصور العذاب أشد تفصيلاً في القرآن من صور النعيم على العموم ، لأن الإطالة فيها أوقع في الحس وأروع للنفس – و«أمه» أي مأواه ، ولكني أحسب أن في ذكر هذا اللفظ هنا نكتة خاصة ينشئها التوهم العارض من ظاهر اللفظ ... كما ألمح نوعاً من تناسق التخييل بين خفة الموازين وارتفاع كفتها ، وبين هُوِيّ المأوى إلى الحضيض . فهو تقابل بين هذه وتلك في الارتفاع والانخفاض .

ولما كان التعبير : «فأُمُّه هَاوِيَة» غامضاً لم يسبق وروده – وهذا الغموض مقصود للتهويل بالمصير المجهول – فقد أعقبه سؤال للتجهيل «وما أدراك ماهيهْ ؟» ثم التفسير «نارٌ حَامِيَةٌ» .

وهذا اللون من التعبير المطول عن العذاب ، يتناسق مع الأصول الفنية ومع الأغراض الدينية . فالموقف هنا يطول عرضه عن طريق إطالة التعبير – وتلك إحدى طرق التطويل في العرض – لأن مكثه أمام المخيّلة أشد إثارة للحس وترويعاً للنفس . وذانك غرض فني وغرض ديني يلتقيان . وتلك سمة دائمة في تصوير القرآن .

سورة القيامة [1]

١ – ﴿ فإذا بَرِقَ البصرُ ، وخَسَفَ القمرُ ، وجُمِعَ الشمسُ والقمرُ يقولُ الإنسانُ يومئذٍ : أينَ المَفَرُّ ؟ كلاَّ ! لا وَزَرَ [2] ، إلى ربِّكَ يومئذ

(١) السورة (٣١) مكية .

(٢) لا ملجأ .

المُسْتَقَرّ . يُنَبَّأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قدَّم وأخَّر . بل الإنسانُ على نفسه بَصِيرةٌ ولو ألْقَى مَعَاذِيره ﴾ .

٢ - ﴿ كلاَّ بل تحبون العاجلةَ وتذَرُون الآخرة : وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ ، إلى ربِّها ناظرة . ووجوهٌ يومئذ باسِرةٌ[١] ، تَظنُّ أنْ يُفْعَلَ بها فاقِرةٌ[٢] ﴾ .

٣ - ﴿ كلاَّ ! إذَا بلغَتِ التَّراقي ، وقيلَ : مَنْ راقٍ ؟ وظَنَّ أنَّه الفراقُ ، والتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ . إلى ربِّكَ يومئذٍ المَسَاقُ . فلا صدَّق ولا صلّى ، ولكنْ كَذّب وَتولّى ، ثم ذهب إلى أهله يَتمطَّى ... ﴾

* * *

المشهد الأول هنا مشهد لهول القيامة ، تشترك فيه الحواس الإنسانية والمشاهد الكونية ، والنفس البشرية : فالبصر يخطف ، والقمر يخسف ، والشمس تقترن بالقمر بعد افتراق ، وقد انفرط نظام الكون على نحو ما مر في سورة التكوير . وفي وسط الذعر والانقلاب ، يتساءل الإنسان المذعور المرعوب : أين المفرّ ؟ ولا ملجأ ولا مستقر ، فالمستقر والمرجع إلى الله ، حيث « يُنبأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قدّم وأَخَّر » وحيث لا تقبل منه المعاذير ، فهو على نفسه بصير .

ومما يلاحظ هنا أن كل شيء سريع قصير : الفقر ، والفواصل ، والايقاع الموسيقي ، والمشاهد الخاطفة ؛ وكذلك عملية الحساب :

---

(١) كالحة .

(٢) داهية تقصم فقار الظهر .

﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يومئذ بما قدَّم وأخَّر ﴾ هكذا في سرعة وإجمال . وقد تم التناسق بين هذا كله بالقصر والسرعة . ولقد كان هذا كله مقصوداً كذلك ، فهو إجابة على سؤال من يتهكم بالقيامة ويستطيل آمادها : «يسأل : أيّان يومُ القيامةِ ؟» فجاءه الجواب سريعاً خاطفاً حاسماً ليس فيه ريث ولا إبطاء ، حتى في إيقاع النظم ، وجرس اللفظ : «بَرِقَ . خَسَفَ . أين المفرّ ؟ كلا لا وَزَرَ» ... إلخ .

أما المشهد الثاني فتكملة للمشهد الأول ، اعترضه أمر للرسول بألا يعجل لسانه بترديد ما يوحي إليه فلا خوف من أن ينساه : «لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه ...» – ويبدو أن هذه كانت حادثة ملابسة للآيات السالفة – ثم خطاب لمن يتساءلون عن القيامة كأنها لا تجيء !

«كلاَّ ! بلْ تحبون العاجلة وتذرون الآخرة : وجوهٌ يومئـذٍ ناضرة ...» إلخ .

ومما يلحظ هنا أن هناك نوعاً من تداعي الصور في الحس . فقد أسلفت أن المشهد الأول سريع خاطف ، فجاء بعده : «لا تحرك به لسانك لتعجل به» وجاء بعده كذلك تسمية الدنيا باسم «العاجلة» وهو تناسق في الحس لطيف دقيق ، تتبع فيه ألفاظُ العجلة والسرعة ، موسيقى العجلة والسرعة ، ومشاهد العجلة والسرعة ، وتتلاحق كلها في حس السامع والقارئ لتلك الآيات متتاليات .

ثم نخلص إلى المشهد الثاني وهو تكملة للمشهد الأول ، فنرى صورة النعيم هنا وصورة العذاب كأنهما ظلال نفسية وشعورية ، ترتسم على الوجوه وتبدو في القسمات : «وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ ، إلى ربها ناظرة» تلك وجوه أهل النعيم . «ووُجوهٌ يومئذٍ باسرةٌ . تظنُّ أنْ

يُفعلَ بها فاقرةٌ » فهي ليست كالحة فحسب ، ولكن يخالجها التوجس أن تنزل بها داهية تقصم الفقار . والتوجس شر من وقوع العذاب .

والمشهد الثالث مشهد الاحتضار . يصوره هنا متصلاً بمشهد البعث ، كأن ليس بينهما فاصل .

وقد سار في تصوير المشهد على نسق خاص . ذلك أنه عرض مشهد الاحتضار – الذي سيأتي – كأنه حاضر الآن ؛ ثم جعل الحياة – وهي حاضرة – كأنها من ذكريات الماضي ؛ ليَرى هذا الذي التفّتْ منه الساق بالساق من الهول والرعب ، أو من الداء والألم ، وبلغت روحه التراقي ، وتساءل من تساءل : ألا من راقٍ يرقيه ويرفع عنه هذه الحال ، وتوقع هو أنه مفارق هذه الدنيا وما فيها ... ليرى صورته هذه ، ويستحضر في خياله صورته الأخرى . وهو يكذّب ويتولّى ، ويذهب إلى أهله يتمطى ، تيهاً وكبراً ... وبينا هو يستعرض الصورتين على هذا التقديم والتأخير يفاجأ بأنه هناك في الآخرة ، فلا وقت للاستعراض ! فإن « إلى ربك يومئذ المساق » .

واستعراض المشاهد على هذا النحو ، بما فيه من تقديم وتأخير ومفاجأة وسرعة ، أوقع في الحس من الجهة الدينية ؛ وهو كذلك أشد إحياءً للمنظر من الجهة الفنية وهما متوافقتان في تصوير القرآن .

سورة الهمزة [1]

﴿ ويلٌ لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزةٍ ، الذي جمع مالاً وعدَّدَهُ ، يحسَبُ أنّ

---

(١) السورة (٣٢) مكية .

مالَه أخلَدَه . كلا ! ليُنْـبَذَنَّ في الحُطَمَةِ . وما أدراكَ ما الحطمةُ ؟ نارُ الله الموقَدَةُ ، التّي تطَّلِعُ على الأفئدةِ . إنها عليهم مُؤْصَدَةٌ ، في عَـمَدٍ مُمَدَّدة ﴾ .

* * *

صورة للعذاب مادية ونفسية ، وصورة للنار حسية ومعنوية . وقد لوحظ فيها التقابل بين الجرم ، وطريقة الجزاء وجوّ العقاب ... فصورة الهُمَزَةَ اللمَزَةَ الذي يدأب على الهزء بالناس وعلى لمزهم في أنفسهم وأعراضهم ، وهو يجمع المال فيظنه كفيلاً بالخلود ... صورة هذا المتعالي الساخر المستقوي بالمال . تقابلها صورة «المنبوذ» المهمل المتروك في «الحطمة» التي تحطم كل ما يلقى إليها ، فتحطم كيانه وكبرياءه . وهي النار «تطّلع» على فؤاده الذي ينبعث منه الهمز واللمز ، وتكمن فيه السخرية والكبرياء والغرور . وتكملة لصورة المحطم المنبوذ المهمل ، هذه النار مقفلة عليه ، لا ينقذه منها أحد ، ولا يسأل عنه فيها أحد ؛ وهو موثق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام .

وفي جرس الألفاظ شدة : «عدّده ... كلاّ ... لَيُنبَذَنَّ ... تطَّلع ... مؤصدة ممدّدة» وفي معاني العبارات توكيد : «لَيُنْبَذَنَّ في الحطمة . وما أدراك ما الحطمة ؟ نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة . إنها عليهم مؤصدة» . وفي التصوير شدة : «ويل لكل همزة لمزة ... كلاّ لَيُنْبَذَنَّ في الحطَمةِ ... نار الله الموقدة ... التي تطلع على الأفئدة» .

وفي ذلك كله لون من التناسق التصويري يتفق مع فعلة «الهمزة اللمزة» ... الذي «يحسب أن ماله أخلده» !

سورة المرسلات [1]

﴿ والمُرْسَلاتِ عُرْفاً ، فالعاصفاتِ عَصْفاً ، والنَّاشراتِ نَشْراً ، فالفارقاتِ فَرْقاً ، فالمُلْقِياتِ ذِكْراً : عُذْراً أو نُذْراً . إنَّ ما توعَدُون لَواقِع ﴾ .

﴿ فإذا النجومُ طُمِستْ ، وإذا السماءُ فُرِجَتْ ، وإذا الجبالُ نُسِفتْ ، وإذا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ، لأيِّ يومٍ أُجِّلتْ ؟ ليومِ الفصلِ ، وما أدراكَ ما يومُ الفَصْلِ ؟ ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبينَ ! ﴾ .

﴿ ألم نُهلِكِ الأوّلينَ ، ثمَّ نُتْبِعُهمُ الآخِرينَ ؟ كذٰلكَ نفعلُ بالمُجْرِمينَ . ويلٌ يومئذٍ لِلمكذّبينَ ! ﴾

﴿ ألمْ نَخْلُقْكُم مِنْ ماءٍ مَهينٍ ، فجَعلناهُ في قَرارٍ مَكينٍ ، إلى قَدَرٍ معلومٍ ، فَقَدَرْنا فنِعْمَ القادرون ؟ ويل يومئذ لِلمكذبينَ ﴾ .

﴿ ألمْ نجعلِ الأرْضَ كِفَاتاً [2] ، أحياءً وأمواتاً ؟ وجعلنا فيهاَ رواسيَ شامخاتٍ ، وأسقيْناكم ماءً فُراتاً ؟ ويلٌ يومئذ لِلمكذبينَ ! ﴾ .

﴿ انطلِقُوا إلى ما كُنتم به تكذِّبون ، انطلقوا إلى ظِلٍّ ذِي ثلاثِ شُعَبٍ ، لا ظليلٍ ولا يُغني مِنَ اللّهبِ ، إنها تَرْمِي بشَرَرٍ كالْقَصْرِ ، كأنّهُ جِمَالةٌ صفرٌ . ويلٌ يومئذ للمكذِّبين ! ﴾ .

---

(١) السورة (٣٣) مكية إلا آية .

(٢) وعاء يضم الجميع .

﴿ هٰذا يومُ لا ينطِقُونَ ، ولا يُؤذَنُ لهم فَيعتذرونَ . ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين ! ﴾ .

﴿ هذا يومُ الفَصْلِ جمعناكُم والأَوَّلِينَ . فإنْ كانَ لكمْ كيدٌ فكيدونِ . ويلٌ يَومئذٍ للمكذِّبينَ ﴾ .

﴿ إنَّ المتَّقِين في ظلالٍ وعيونٍ ، وفواكهَ مما يشتهونَ . كُلوا واشربوا هنيئاً بما كنتمْ تَعملونَ . إنا كذلكَ نَجْزِي المحسنينَ . ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين ﴾ .

﴿ كُلُوا وتَمَتَّعوا قليلاً إنكم مُجْرمون . ويلٌ يومئذ لِلمكذِّبين . وإذا قيل لهم : ارْكَعوا لا يركعون . ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين . فبأيِّ حديثٍ بعده يؤمِنونَ ! ﴾ .

هذه السورة نسق خاص – مع سورة الرحمن وسورة القمر وستجيئان – فيها ازدواج كامل بين العالم الحاضر والعالم الآخر ، واستعراض مزدوج بين صور الدنيا وصور الآخرة ، في معرض البرهان على البعث لمن يكذب بهذا اليوم ، وأمامه في الدنيا شواهد تشير إلى هذا اليوم الموعود ، ولديه آيات على قدرة الخالق ونعمته ، ولكن يكفر بها ويكذب . وفي هذا النسق تأتي صور الآخرة برهاناً وجدانياً للتأثير في الحس والضمير ؛ كما تُعرض الآيات الحاضرة في الدنيا برهاناً وجدانياً على وقوع الآخرة . فهناك ازدواج في العرض ، لا نستطيع معه فصل هذه الصور عن تلك ، لأن هذه وتلك مسوقتان في معرض واحد لغرض واحد هو الإقناع الوجداني .

وتبدأ السورة بقسم : « والمرسلات عرفاً » ... إلخ ، وهي « أشياء » تذكر بأوصافها دون ماهياتها . هي « أشياء » عامة ، مرسلات للتعريف عامة ، عاصفات عصفاً بأوضاع كذلك عامة ، ناشرات آثارها نشراً ، فارقات بين الأوضاع والأشياء ، ملقيات ذكراً للأعذار أو للإنذار ... ما هذه « المرسلات » ؟ الغموض هنا والتعميم مقصودان للتهويل . فيقال في كتب التفسير : إنها طوائف من الملائكة ، أو هي آيات القرآن ، أو هي الأرواح البشرية .

وأحسّ أنها جاءت هكذا غامضة لتبقى هكذا غامضة ، مجهولة الكنه والمصدر ، ملحوظة الوصف والأثر ... يتلقاها الحس شبه مسحور ، فيحس بها قوًى خفية الذوات ملحوظة الآثار . وآثارها بسببٍ مما نحن فيه ، وهو الدلالة على القوة المجهولة التي تملك اليوم الموعود .

أقسم بهذه ... « إنَّ ما تُوعَدُونَ لَواقع » . ثم يبدأ الاستعراض ، فإذا مشاهد الطبيعة في انقلاب ، وأجرام السماء في اضطراب : النجوم مطموسة لا نور فيها ولا ضياء ؛ والسماء مصدوعة فيها شقوق وفروج ؛ والجبال منسوفة لا تماسك لها ولا قوام ... والرسل جاء موعدها لحضور الاستعراض والشهادة يوم الحساب . وقد كان موعدها هو ذلك اليوم : يوم الفصل . وإنه ليوم هائل عظيم و « ويل يومئذ للمكذبين » .

فإذا انتهى المشهد الأول من مشاهد القيامة ، وختم بإثبات الويل فيه للمكذبين . بدأ مشهد من مشاهد الدنيا ، فيه هو الآخر دليل على القوة الكبرى ، ومقدرة على التنكيل بالمكذبين حتى قبل يوم اليقين : « ألم نهلك الأولين ، ثم نتبعهم الآخرين » ؟ بلى ! كان ذلك . « كذلك نفعل بالمجرمين » في الدنيا وفي الآخرة و « ويل يومئذ للمكذبين » .

ثم يبدأ مشهد ثالث . هو استعراض صور الخلق منذ البدء . فالذي خلق يبعث ، والذي أنشأ يُرجِع ، والذي جعل كل مرحلة من الخلق بنظام وحكمة لا يدع الناس هملاً : « ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون ؟ » بلى ! كان ذلك . إذن «ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين» .

ثم يبدأ مشهد رابع هو مشهد الأرض التي تضم الجميع كالوعاء ، تضم الأحياء والأموات ، وفيها الرواسي الشامخات والماء الفراتٍ ... أليس في هذا كله ما يفتح القلوب للإيمان ؟ « ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين » .

فإذا انتهى استعراض هذه المشاهد التي تمت في الدنيا بين سمعهم وبصرهم : مشهد الموت والفناء للأجيال السالفة وهو حادث منظور ؛ ومشهد الحياة تنشأ من ماء مهين ، وتنمو بنظام مقدور ؛ ومشهد الأرض التي تعي الأحياء والأموات وفيها الجبال الراسخة والمياه الجارية ، على أعين الناظرين ... إذا انتهى هذا الاستعراض في الدنيا نقلهم إلى مسرح الآخرة نقلاً في تهكم وتأنيب :

« انطلِقوا إلى ما كنتم به تكذِّبون » ! فهذا هو أمامكم تشهدونه — وتلك طريقة القرآن في استحضار اليوم الآخر كأنه اليوم الحاضر — « انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شُعَب » إنه ظل لدخان جهنم « لا ظليل ولا يغني من اللهب » إنما هو ظل خانق لا ظل فيه . وإنما تسميته بالظل هنا امتداد للتهكم في قوله : « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون » ! وهو تمنية ما تكاد تطوف بخيالهم حتى يفجعوا فيها . فهو ظل ولا ظل . فانطلقوا « إنها » — وإنكم لتعرفونها فلا حاجة إلى ذكر اسمها ! —

«إنها ترمي بشرر» كأنه الشجر الغليظ . فيا للهول ! الشرارة قَصْرَةٌ[1] . فما بال الموقدة كلها ؟ فهنا تهويل بالضخامة ، وقد أتبع التشبيه الأول بتشبيه آخر يؤكد الضخامة أيضاً . «كأنها جمالةٌ صفر» أي حبال غليظة من حبال السفن . وفي اللحظة التي يُستغرق فيها الحس بهذه الأهوال ، يأتي التقريع والتحذير : «ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين» .

ثم يأخذ في استكمال المشهد – بعد عرض الهول المادي في صورة جهنم – بعرض الهول النفسي ، وقد استغرق الحس في ذلك الهول ، فنفذ إلى صميم النفس :

«هذا يومُ لا ينطقونَ . ولا يُؤذنُ لهمُ فيعتذرُونَ» فالهول هنا كامن في الصمت الرهيب ، والخشوع المهيب ، الذي لا يتخلله كلام ، ولا يقطعه اعتذار ، فلقد فات الأوان ، و«ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين» !

«هذا يومُ الفصلِ» . لا يوم الاعتذار . وقد «جمعناكُم والأولين» فهاتوا كيدكم إن كان لكم كيد ، وأظهروا مقدرتكم إن كانت لكم قدرة . ولا شيء إلا الصمت المطلق على هذا التأنيب الأليم .

فإذا انتهى مشهد التأنيب أمام الجموع الحاشدة ، بدأت عملية «الفرزِ» فأما المتقون فهم «في ظلال» . ظلال حقيقية في هذه المرة ، لا ظلٍ ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب ، وفي «عيون»

---

(١) بعض المفسرين يفسر القصر بالقصر المبنى ، والجمالة بالجمال الحيوانية . ولكن الذي يتابع التناسق الفني في صور القرآن يجزم بتفسيرنا لهما . فالتناسق بين النار الموقدة والشجرات الغلاظ ملحوظ فهي وقود . والتضخيم يتم بأن يكون الشرر الصغير في حجم الشجر الغليظ الذي تأكله النار . ثم إن التناسق بين عود الشجرة والحبل الغليظ كذلك ملحوظ في الشكل العام وفي مجاورة الحبل للوقود . والملاحظ دائماً في صور القرآن أن تكون «وحدة الرسم» منسقة الأجزاء متداعية الأشكال في الخيال . (يراجع فصل التناسق في كتاب التصوير الفني) .

ماء . لا في شواظ نار . «وفواكه مما يشتهون» وهم يتلقون فوق هذا تكريماً معنوياً على مرأى من الجموع ومسمع : «كلوا واشربُوا هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين» ويا لطف هذا التكريم من العلي العظيم ... وأما المكذبون فويل يومئذٍ للمكذِّبين ! أيها المجرمون : كلوا في هذه الدنيا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون ، ولن يكون لكم مثل هذا الذي شاهدتموه من تكريم المتقين ... وهنا تختلط الدنيا بالآخرة في فقرتين متواليتين ، وفي مشهدين معروضين كأنهما حاضران ، وإن كان أحدهما بعد أزمان ، فبينما الخطاب موجه للمتقين في الآخرة إذا هو موجه للمكذبين في الدنيا ، وكأنما يقال لهم : اشهدوا الفارق بين الموقفين الشاخصين في هذه اللحظة الحاضرة . ثم يتحدث عن المكذبين بأنهم «إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون» مع أنهم يشاهدون هذا الاستعراض ، ويسمعون ما يقال للمتقين وما يقال للمكذبين ! «فبأيٍّ حديثٍ بعده يؤمنون» ؟

إن الاستعراض على هذا النحو عجيب . ولكنه أوقع في الحس وأدخل إلى النفس . فالسامع والقارئ إنما يعيشان في هذا الاستعراض ، ويريان مشاهده تتحرك ، ومناظره تتجسم ، حيث تلتقي الأزمان الثلاثة ، وتتلاشى في اللحظة المنظورة .

سورة ق [1]

﴿وجاءت سَكْرَةُ الموت بالحق . ذلك ما كنتَ منه تَحيدُ . ونُفِخ في الصُّورِ . ذلك يومُ الوعيد . وجاءتْ كلُّ نفْسٍ معها سائقٌ

---

(١) السورة (٣٤) مكية إلا آية .

وشهيد . لقد كنتَ في غفلةٍ من هذا ، فكشفْنا عنك غطاءك فبصرُك اليوم حديد[1] . وقال قرينُه : هذا ما لديّ عتيدٌ . ألقيا في جهنم كلَّ كَفّار عنيد ، منّاعٍ للخير مُعْتَدٍ مُريبٍ ، الذي جعل مع الله إلهاً آخرَ ، فألقياه في العذاب الشديد . قال قرينهُ : ربَّنا ما أطغيتُه ولكنْ كان في ضلالٍ بعيدٍ . قال : لا تختصموا لَديّ وقد قدّمتُ إليكم بالوعيدِ ، ما يُبدَّل القولُ لَديّ وما أنا بظلاّمٍ للعبيدِ ، يوم نقولُ لجهنم : هل امتلأتِ ؟ وتقولُ : هل من مزيد ؟ وأُزْلِفت الجَنَّةُ للمتَّقين غير بعيدٍ . هذا ما توعَدونَ لكلِّ أوّابٍ حفيظٍ ، من خشيَ الرحمنَ بالغيبِ وجاءَ بقلبٍ مُنيبٍ . ادخلوها بسلاَمٍ ذلك يومُ الخلودِ ، لهُم ما يشاءونَ فيها ولدينا مزيد ﴾ .

* * *

يبدأ المشهد في الدنيا وينتهي في الآخرة ، فالعالم الحاضر والعالم الآخر ليسا منفصلين ، والمسافة بينهما ليست بعيدة على كل حال .

وسورة « ق » كلها تستعرض قضية البعث التي يكذب بها الكافرون تكذيباً شديداً « بلْ عجبُوا أنْ جاءهم منذرٌ منهم ، فقال الكافرون هذا شيء عجيبٌ ! أئذا متنا وكنا تراباً ؟ ذلك رَجْعٌ بَعيد » .

وفي صدد الرد على هذا التكذيب أخذ يستعرض أمامهم الصور المشهودة في هذه الحياة الدنيا : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها وما لها من فروج ، والأرضَ مددناها وألقينا فيها

---

(١) نافذ .

رواسيَ وأنبتنا فيها من كلِّ زوج بهيج ، تبصرةً وذكرى لكلِّ عبدٍ منيب ، ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جناتٍ وحبَّ الحصيد ، والنخلَ باسقاتٍ لها طلعٌ نضيدٌ ، رزقاً للعباد ، وأحيينا به بلدةً ميتاً ؟ كذلك الخروج » .

وهكذا حين انتهى من ذلك الاستعراض للخلق والإنبات في الأرض وإحياء البلد الميت بالماء النازل من السماء – وكلها صور مشهودة يمر بها الناس غافلين عن دلالتها العميقة الناطقة بالقدرة على الإحياء والإخراج – قال : « كذلك الخروجُ » .

ثم أخذ يستعرض بعد هذا تاريخ المكذبين قبلهم : عاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تُبَع .. ويذكر في اختصار مصارعهم ... وهي كذلك شواهد القدرة على الإماتة والإهلاك ، بعدما تقدمت شواهد القدرة على الإحياء والإخراج .

حتى إذا انتهى من استعراض الموت والحياة جعل يستعرض مراقبة الخالق لمن خلق وهم أحياء ، تمهيداً لحسابهم بعد الممات : « ولقد خلقنا الإنسانَ ونعلمُ ما توسوسُ به نفسُه ، ونحن أقرب إليه من حبلِ الوريدِ . إذ يتلقَّى المتلقِّيان : عن اليمين وعن الشمال قعيدٌ ، ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيدٌ » .

فلم يترك الإنسان إذن سدى ، وهذه أعماله كلها تحصى ، يحصيها عليه رقيبان يتلقيان عنه كل ما يصدر منه ويسجّلان – وذلك تجسيم للاحصاء والرقابة على طريقة القرآن في تجسيم الميزان وغير الميزان – وهو يتمشى مع طريقة التصوير الذي يلمس الحس ويشغل الخيال .

° ° °

وهنا يبدأ في عرض صورة اليوم الآخر تالية مباشرة لصورة الموت وسكراته ، وكأنما الصورتان حاضرتان : « وجاءت سكرة الموت بالحق . ذلك ما كنت منه تحيد . ونفخ في الصور . ذلك يوم الوعيد » .. إلخ .

فلنلق أنظارنا إلى الساحة لنشهد كل « نفس » ومعها سائق وشهيد . (كل نفسٍ) فالنفس هنا هي التي تحاسب ، وهي التي تحصى عليها الأعمال والنيات والحركات والخلجات . لقد جاءت ومعها هذان الحارسان . وهذا هو الخطاب يتوجه بالتبكيت والتأنيب : « لقد كنتَ في غفلةٍ من هذا فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد » نافذ يبصر ما كان محجوباً بالغفلة والتكذيب . ثم يتقدم القرين — ونفهم من السور الأخرى في القرآن أنه شيطان يرافق الضال ، ويملي له في الضلال ، وإن كان في يوم القيامة يتبرأ منه ، وقد يشهد عليه ! — يتقدم هذا القرين ليقول : إن ما عنده من أخبار هذا المخلوق مهيأ حاضر . « وقال قرينه هذا ما لديّ عتيد » . عندئذ يصدر الأمر الذي لا يرد : « ألقيا في جهنم كل كفارٍ عنيد ، منّاع للخير معتدٍ مريب . الذي جعل مع الله إلهاً آخر ، فألقياه في العذاب الشديد » ! ثم ها هو ذا قرينه يتقدم ليبرئ نفسه من تهمة إغوائه : و« قال قرينه : ربنا ما أطغيتُه ، ولكن كان في ضلالٍ بعيد » .

ولكن الأمر العالي يعقب سريعاً بالتزام الصمت ، فما هذا يوم الخصام والجدال « قال : لا تختصموا لديّ ، وقد قدّمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لديّ » فلا تبديل ولا تعديل فيما حوته السجلات . « وما أنا بظلاّم للعبيد » إنما يجزى كل أمرئ بما أسلفت يداه .

ولقد كان المشهد إلى هنا مشهد عرض وحوار ينتهي بإلقاء المجرم

في النار . فلتعرض كذلك جهنم ، ولتشخص مخلوقة حية تشترك هي الأخرى في الحوار ، وتدل على هولها بلفظها . ليتم التناسق بين جزئيات المشهد وأفراده في طريقة الاستعراض ، فما دام الحوار هنا هو طريقة العرض ، فليكن حوار مع جهنم المعروضة مع الجميع : «يوم نقول لجهنم : هل امتلأت ؟ وتقول : هل من مزيد ؟»

وبهذا السؤال والجواب ينفتح المجال للخيال لتصور المشهد من وراء الحوار ، وتخيل الصورة من وراء الظلال . هذه هي الأجسام تقذف إلى جهنم وقد فتحت أفواهها ، حتى إذا توالى القذف وتكدس الوقود ، قيل لها هل امتلأت ؟ وقد نالت ما يحقق لها الامتلاء . ولكنها قد التهمت ما ألقي إليها التهاماً ، وإنها لتتحرق وتتلمظ إلى وقود جديد ، وتقول : «هل من مزيد» ؟

وحينما تشهد الجموع هذا المنظر الرهيب ، يكون على الجانب الآخر ، الجنة مقربة مهيأة للمتقين ، وهم يلقون التكريم الأدبي بجانب النعيم الحسي ، فيسمعون من الملأ الأعلى : «هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ، ذلك يوم الخلود» ... ثم يتوجه بالقول إلى الجموع زيادة في التكريم والتنويه بالرضى عن هؤلاء المحظوظين : «لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد» !

* * *

هذا مشهد تمثيلي سينمائي . فيه الصورة وفيه الحركة . والمشاهد تتتابع محسوسة مجسمة ، والحوار يزيدها حياة وحرارة . ويمتد الحوار إلى جهنم ، ليتم التناسق في الإخراج ، من جميع الأطراف .

وإنه لمشهد مؤثر في الوجدان ، مثير للمشاعر والخيال ، يؤدي

غرضه الديني في يسر ، ثم ينطلق إلى عالم الفن الطليق ، لا تحده قيود الغرض المحدود ، فلغة الجمال الفني تستطيع أن تخاطب الوجدان الديني ، ولا تعارض بينهما في تصوير القرآن .

سورة الطارق[1]

﴿ والسماءِ والطارقِ . وما أدراك ما الطارقُ ؟ النَجمُ الثاقبُ . إنْ كلُّ نفس لَمَّا عليها حافِظ . فلينظر الإنسان مِمَّ خُلِق . خُلِق من ماءٍ دافقٍ ، يخرُج من بين الصُّلْب والتَّرائب . إنه على رَجْعِه لقادرٌ ، يومَ تُبلَى السرائرُ ، فما له من قوة ولا ناصر . والسماء ذاتِ الرَّجْع ، والأرضِ ذات الصَّدْع ، إنه لقولٌ فصلٌ وما هُوَ بالهزْل ﴾ .

صورة اليوم الآخر هنا صورة معنوية ، لتكشّف السرائر المطوية ، حيث لا تعصم الإنسان قوة ، ولا يكون له يومها نصير . فسره مكشوف وقوته ضعيفة ، وناصره معدوم . وللموقف على هذا الوضع ظله المؤثر في النفوس .

ولكن في الصورة هنا تناسقاً مع الإطار ، ومع جميع شخوص المشهد المبثوثة حول الصورة الأساسية ، لتبرزها في جوها المناسب :

تبدأ السورة بالقسم . القسم بالسماء وبالطارق ، والطارق مجهول يسأل عنه بالتعظيم والتجهيل «وما أدراك ما الطارق ؟» ثم يجاب بأنه «النجم الثاقب» الذي يطرق في الظلام ، فيثقب الظلام بنوره ويتغلغل

(١) السورة (٣٦) مكية . سبقتها سورة «البلد» وليس فيها مشاهد للقيامة .

فيه بشعاعه . وعلام يقسم بهذا النجم الذي يثقب الظلام وينفذ فيه بالشعاع ؟ يقسم على أن كل « نفس » عليها حافظ . والنفس مستورة خافية ، ولكن هذا الحافظ ينفذ إليها ويسجل عليها سرائرها وما يجري فيها ، ويكشفها كشفاً « يوم تبلى السرائر » . فما أشبهه بالطارق « النجم الثاقب » ؛ وما أشد اتساق الصورة مع الإطار في هذا الجانب .

ثم نمضي في استعراض الجوانب الأخرى : « فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » . وهذا الماء الدافق ينبثق من ظلام مجهول في كيان الإنسان كما ينبثق الشعاع في كبد الظلام . والذي يدفع به إلى الأرحام ، قادر على رجعه « يوم تبلى السرائر » ... وهذا تناسق آخر في الهيئة والحركة بين الدفع والرجع على نحو من الأنحاء ... فلنمض في الاستعراض :

إننا نجد بعد قَسماً آخر : « والسَماء ذات الرَّجْع ، والأرض ذات الصَّدْع ، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل » .

والرجع المطر المنهمر ، والصدع الشق في الأرض يتفتح عن النبات . وهنا نجد ألواناً من التناسق الكامل مع المشاهد الماضية جميعاً .

فالمطر النازل ، والصدع المشقوق ، هما في الهيئة والحركة ، كالنجم الثاقب يشق الظلام ، ويصدعه من جهة ؛ ومن جهة أخرى كالماء الدافق يخرج من بين الصلب والترائب ، وكالرحم المصدوعة تنشق عن الوليد كما تنشق الأرض بالنبات وتتفتح كلاهما عن الحياة الوليدة الجديدة بقدرة خفية مكنونة .

ثم تناسق آخر في سمة أخرى :

« فما له من قوة ولا ناصر » . « والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع » . وفي الرجع والصدع عنف وشق . في المعنى أولاً ، ثم في

الإيقاع الموسيقي الذي يلقى في الحس معنى القوة والحسم ثانياً . فهو تناسق تام بين نفي القوة والناصر عن الإنسان ، وإثبات القوة والحسم لخالق الأرض والسماء .

وهكذا يتم التناسق بين الصورة والإطار من شتى الجوانب ، وبين مفردات المشهد ووحداته من كل جانب ؛ وتجيء الموسيقى المصاحبة للمشهد بالإيقاع الذي يتمشى مع الجوّ العام . وذلك كله في سورة قصيرة لا تتجاوز بضعة أسطر وعشر فقرات .

سورة القمر [1]

١ - ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مُزْدَجَرٌ ، حكمةٌ بالغةٌ فما تُغنِ النُّذُر . فتولَّ عنهم يوم يَدْعُ الدّاعِ إلى شيءٍ نُكُر ، خُشَّعاً أبصارُهم يخرجون من الأجداث كأنهم جرادٌ منتشِر ، مُهْطِعين إلى الداعِ ، يقول الكافرون : هذا يومٌ عسِر ﴾ .

٢ - ﴿ سيهزم الجمعُ ويولّون الدُّبُر ؛ بل الساعةُ موعدُهم والساعةُ أدهى وأمرّ . إن المجرمين في ضلال وسُعُر ، يوم يُسحبون في النار على وجوههم : ذوقوا مَسَّ سقر . إنا كلَّ شيءٍ خلقناه بقَدَر . وما أمرُنا إلا واحدةٌ كلمْحٍ بالبصر ... إن المتقين في جنات ونَهَر . في مَقعَد صِدْقٍ عند مليك مقتدر ﴾ .

* * *

(١) السورة (٣٧) مكية إلا ثلاث آيات .

في هذه السورة مشهدان من مشاهد القيامة تربط بينهما رابطة الغرض العام الذي تعالجه هذه السورة كلها .

فنحن أمام جماعة يكذبون بعدما وقعت بين أيديهم الأحداث الداله على القدرة ، فـ « انشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » (ونحن لا ندري كيف انشق القمر ومتى ؛ ولكن التاريخ لا يحفظ لنا اعتراضاً من الكفار على ذكر هذه الواقعه التي يحببهم بها القرآن ، فليس لنا إلا أن نعلم أن حادثاً فلكياً مّا ، وُصف بهذا الوصف، وجُوبِه به القوم هذه المجابهة ، فلم يكن لهم عليه اعتراض) ثم هم يكذبون بعد ما ألقيت إليهم أنباء المكذبين قبلهم وما وقع عليهم من العذاب الماحق في هذه الدنيا «ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مُزْدَجَر» . وقص عليهم في هذه السورة أنباء قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وآل فرعون . وكلهم صب عليهم العذاب وأصابهم النكال . وبين كل قصة وأخرى كان يردد : «فكيف كان عذابي ونُذُرِ» للتهكم والاستنكار ، على النسق الذي اتبع من قبل في سورة المرسلات في ترديد قوله : «ويلٌ يومئذٍ للمكذبين» للتقرير والتحذير .

ثم عرض المشهد الأول بعد ذكر انشقاق القمر ، كما عرض المشهد الثاني بعد ذكر قصص المكذبين ، وسؤاله : «أكُفَّاركم خير من أولئكم ؟ أم لكم براءةٌ في الزبر ؟ أم يقولون نحن جميعٌ منتصر ؟» وعقب بقوله : «سيُهزم الجمعُ ويولّون الدُبر ...» إلخ .

والمشهد الأول مشهد مختصر سريع ، يتناسق مع «اقتربت الساعة وانشق القمر» ومع الإيقاع الموسيقي في السورة كلها ، وهو متقارب سريع ، وهو مع سرعته شاخص متحرك ، مكتمل السمات والحركات . «هذه جموع خارجة من الأجداث في لحظة واحدة

كأنها جراد منتشر (ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصور المنظر المعروض) وهذه الجموع تسرع في سيرها نحو الداعي ، دون أن تعرف لم يدعوها وإلام يدعوها . فهو يدعو «إلى شيء نُكُرٍ» لا تدريه . «خُشَّعاً أبصارُهم» وهذا يكمل الصورة ويمنحها السمة الأخيرة . وفي أثناء هذا التجمع والخشوع والإسراع «يقول الكافرون : هذا يوم عسر» . فماذا بقي من المشهد لم يشخص بعد هذه الفقرات القصار ؟ إن السامعين ليتخيلون الآن ذلك اليوم النكُر ، فإذا هو حشد من الصور . صورهم هم – وإنهم لمن المبعوثين – يتجلى فيها الهول الحي ، الذي يؤثر في نفس كل حي !»[1] .

والمشهد الثاني يرسم صورة من العذاب الحسي المعنوي والنعيم الحسي المعنوي أيضاً ، تأتي بعد صورة المشهد الأول تالية له في ترتيب الوقوع كذلك .

فها نحن أولاء في يوم الساعة «والساعة أدهى وأمر» من كل عذاب رأوه في الدنيا ، أو جاءتهم به الأنباء عمن كذبوا فأهلكوا بالطوفان ، وبالصيحة ، وبالريح الصرصر ، وبالصاعقة ، وبالإغراق إنه أدهى وأمر من ذلك كله . فالمجرمون في ضلال وسُعُر . في ضلال يعذب العقول والنفوس ، وفي سُعُر يكوي الجلود والابدان . وها هم أولاء يسحبون في النار على وجوههم في عنف وتحقير ، ويزادون عذاباً بالإيلام النفسي : «ذوقوا مسّ سقَر» ذوقوا فنحن لا نخلق الناس ونتركهم سدى : «إنا كل شيء خلقناه بقدَر» ولحكمة

---

(١) من كتاب «التصوير الفني في القرآن» .

وأجل . «وما أمرنا إلا واحدةٌ كلمح بالبصر» كما انشق القمر ، وكما أخذ فرعون أخذ عزيز مقتدر .

وبينما هؤلاء يسحبون في النار سحباً ، ويلقون فيها تحقيراً وهوناً ، ويعانون فيها حيرة وضلالاً ، إذا المؤمنون هادئون ناعمون : «في جنات ونهر» مطمئنون مكرمون «في مقعد صدق عند مليكٍ مقتدر» . فهل من مُدّكر ؟ وأمامه تلك المشاهد والصور ؟

سورة ص [1]

﴿ وإن للمتّقين لَحُسْنَ مآب : جناتِ عدنٍ مفتّحةً لهم الأبوابُ ، مُتّكئِينَ فيها ، يَدْعُون فيها بفاكهةٍ كثيرةٍ وشراب ؛ وعندهم قاصراتُ الطَّرْفِ أترابٌ . هذا ما توعَدون ليوم الحساب . إن هذا لَرِزْقُنا ما لَه مِن نفادٍ ﴾ .

﴿ هذا وإن للطاغين لشرَّ مآب : جهنمَ يَصْلَوْنها فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حَميمٌ وغَسَّاق ، وآخرُ من شكلِه أزواجٌ ﴾ .

﴿ هذا فوجٌ مقتحِمٌ معكم . لا مرحباً بهم إنهم صَالُو النار ! قالوا : بل أنتم لا مرحباً بكم ، أنتم قدّمتموه لنا ، فبئس القرار ! قالوا : ربَّنا من قدَّم لنا هذا فزِدْه عذاباً ضِعْفاً في النار ! ﴾ .

﴿ وقالوا : ما لنا لا نَرى رجالاً كنا نعدُّهم من الأشرار ؟

(١) السورة (٣٨) مكية .

أتخذناهم سِخْرِياًّ ؟ أم زَاغتْ عنهم الأبصارُ ؟﴾ .

﴿إنَّ ذلك لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أهلِ النار﴾ .

* * *

يبدأ المشهد هنا بمنظرين متقابلين تمام التقابل في المجموع وفي الأجزاء ، وفي السمات والهيئات : منظر «المتقين» لهم «حسن مآب» ومنظر «الطاغين» لهم «شر مآب» . فأما الأولون فلهم جنات مفتحة الأبواب ، ولهم فيها راحة الإتكاء ومتعة الطعام والشراب ، ولهم كذلك متعة الشباب في الحوريات وكلهن أتراب شوابّ ، وهن مع هذا قاصرات الطرف لا يتطلعن إلى إعجاب الآخرين من الرجال تطّلع الشواب ! ... وهو متاع دائم لا ينفد فهو أبداً متجدد .

وأما الآخرون فلهم مهاد . ولكنه لا راحة فيه . فهو جهنم «فبئس المهاد» ! ولهم فيه شراب ساخن وطعام مقيء ، إنه ما يغسِق ويسيل من أهل النار ! ولهم أصناف أخرى من شكل هذا العذاب . يعبر عنها بأنها «أزواج» في معنى مضاعفة . وفي هذه الكلمة مشاكلة لفظية مع قاصرات الطرف أزواج أهل الجنة ! لمجرد السخرية والتهكم الملحوظين في اللفظ ، وإن لم يكن معناه معنى الأزواج ! وكذلك نلمح السخرية في تسمية جهنم بالمهاد في مقابل مهاد المؤمنين بالجنات !

ثم يتم المشهد بمنظر ثالث ، يحييه الحوار ، ويشخصه للأنظار :

فها نحن أولاء أمام جماعة من أهل جهنم ، وقد كانت في الدنيا متوادة متحابة ، فهي اليوم متناكرة متنابزة . كان بعضهم يملي لبعض في الضلال ؛ وكان بعضهم يتعالى على المؤمنين ، ويهزأ من دعواهم في النعيم .

ها هم أولاء يقتحمون النار فوجاً بعد فوج . هذا هو الفوج الأول ينقل إليه نبأ اقتحام الفوج الثاني : «هذا فوجٌ مُقتحمٌ مَعكم» فماذا يكون الجواب ؟ يكون : «لا مرحباً بِهِمْ . إنَّهم صالو النار» ! .

فهل يسكت المشتومون ؟ كلا ! فها هم أولاء يردون : «قالوا : بل أنتم لا مرحباً بكم . أنتم قدّمْتُموه لنا ، فبئسَ القرار» وإذا دعوة جامعة : «قالوا ربّنا مَن قدَّم لنا هذا فَزِدْه عذاباً ضِعْفاً في النار» !

ثم ماذا ؟ ثم ها هم أولاء يفتقدون المؤمنين ، الذين كانوا يتعالون عليهم في الدنيا ويظنون بهم شراً ، ويسخرون من أمانيهم في النعيم ، فلا يرونهم معهم مقتحمين :

«وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً . كنا نَعُدُّهُم من الأشرار . اتخذناهم سخرياً ؟ أم زاغت عنهم الأبصار ؟» ...

كلا . لم تزغ أيها القوم ، فلو ألقيتم بأبصاركم إلى جنات النعيم لوجدتموهم هنالك متكئين !

«إن ذلك لحقٌّ تخاصمُ أهل النارِ» .

وإننا لنشهد الآن هذا التخاصم كما لو كان حاضراً في العيان ! وإن كل نفس آدمية لتحسّ في حناياها وقع هذا المشهد وتتقيه ، وتحاذر - لو ينفع الحذر - أن تقع فيه !

سورة الأعراف [1]

﴿يا بَني آدمَ إمّا يأتينَّكم رسُل منكم يَقصّون عليكم آياتي . فمن اتّقى وأصلحَ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ؛ والذين كذّبوا

---

(١) السورة (٣٩) مكية إلا سبع آيات .

بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحابُ النار همْ فيها خالدون . فمَنْ أظلمُ ممن افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته ؟ أُولئك ينالهم نصيبُهم من الكِتاب ، حتَّى إذا جاءتْهم رسُلُنا يَتوفَّوْنهم قالوا : أين ما كنتم تَدْعون من دونِ اللهِ ؟ قالوا : ضلوا عنا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين . قال : ادخلُوا في أُمم قد خَلَتْ من قَبْلكم من الجنّ والإنس في النَّار ؛ كلما دخلتْ أمّةٌ لعنتْ أُختَها ، حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أُخراهم لِأُولاهم : ربَّنا هؤلاء أضلُّونا فآتهم عذاباً ضِعْفاً من النار. قال : لِكلٍّ ضِعفٌ ولكنْ لا تَعْلمون . وقالت أُولاهم لأخراهم : فما كان لكم علينا من فضل ، فذوقوا العذابَ بما كنتم تكسبون ﴾ .

﴿ إن الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفتَّح لهم أبوابُ السماء ولا يَدخلُون الجنَّة حتَّى يلجَ الجمَلُ في سَمِّ الخِياط . وكذلك نَجزي المجرمين . لهم مِنْ جهنمَ مِهادٌ ومِنْ فوقِهم غَواشٍ . وكذلك نجزي الظالمين . والذين آمنوا وعملوا الصالحات – لا نُكلِّف نفْساً إلا وُسْعَها – أولئك أصحابُ الجنَّةِ هم فيها خالدون . وَنَزْعنا ما في صُدورِهم من غِلّ تَجري من تحتهم الأنهارُ ؛ وقالوا : الْحمْدُ لله الذي هَدانا لهذا ـ وما كُنّا لِنَهتدي لَولا أن هَدانا اللهُ ـ لقد جاءت رُسُل ربِّنا بالحق . ونُودوا : أنْ تلكُم الجنَّةُ أُورِثْتمُوها بما كنتم تعملون ﴾ .

﴿ ونادى أصحابُ الجنَّة أصحابَ النَّار أنْ : قدْ وجدْنا ما وعدنا ربُّنا حقاً ، فهل وجدْتم ما وعَد ربُّكم حقاً ؟ قالوا : نعم !

فأذّن مُؤذّن بينهم : أنْ لعنةُ الله على الظالمين ، الذين يَصدُّون عن سبيل الله وَيبْغُونها عِوَجاً ، وهم بالآخرة كافرون ﴾ .

﴿ وبينهما حِجابٌ وعلى الأعرافِ رجالٌ يعرفون كلاًّ بسيماهُم ونادَوْا أصحابَ الجنة أنْ : سلامٌ عليكم . لَمْ يَدْخلوها وهم يطمعون ﴾

﴿ وإذا صُرِفت أبصارُهم تِلقاءَ أصحابِ النار قالوا : ربَّنا لا تجعلنا مع القوم الظّالِمينَ ﴾ .

﴿ ونادى أصحابُ الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم . قالوا : ما أغنى عنكم جَمْعُكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم اللهُ برحمة ؟ ادخلوا الجنة لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ .

﴿ ونادى أصحابُ النارِ أصحابَ الجنَّةِ : أن أفيضوا علينا من الماء أوْ مِمّا رزقكم اللهُ . قالوا : إن اللهَ حرّمهما على الكافرين ، الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرّتهم الحياةُ الدنيا . فاليومَ ننساهم كما نسوا لِقاء يومِهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ .

ربما كانت هذه أطولَ مشاهد القيامة وأحفلها بالمناظر المتتابعة والحوار المتنوّع . وهي تجيء في السورة تعقيباً على قصة آدم وخروجه من الجنّة بإغواء الشيطان له ولزوجه ، وتحذير الله لأبنائه أن يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنة ، وإخبارهم بأنه سيرسل إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته – على نحو ما أثبتنا في أول الآيات المنقولة هنا – ثم يأخذ في عرض مشاهد القيامة ، فإذا الذي يقع فيها مصداق لما ينبئ به هؤلاء الرسل ؛ وإذا الذين يطيعون الشيطان فيكذبون قد

حرموا العودة إلى الجنة ، وفتنوا عنها كما أخرج الشيطان أبويهم منها ؛ وإذا الذين خالفوا الشيطان فأطاعوا ، قد ردوا إلى الجنة ونودوا من الملأ الأعلى : «أن تلكُم الجنَّة أُورِثتموها بما كنتم تعملون» فكأنما هي أوبة المهاجرين وعودة المغتربين إلى دار النعيم .

وفي هذا السياق بين القصة السابقة ومشاهد القيامة اللاحقة من التناسق الفني ما فيه . فهي قصة تبدأ في الجنة على مشهد من الملائكة يوم أن خلق آدم وزوجه وأسكنا الجنة ففتنهما الشيطان عن الطاعة وأخرجهما من النعيم - كما جاء في قصة آدم في السورة - وتنتهي كذلك في الجنة على مشهد من الملائكة في اليوم الآخر فيتصل البدء بالنهاية ، ويضمان بينهما فترة الحياة الدنيا فيما لا يتجاوز صفحتين من كتاب ، حافلتين بالمشاهد . ومنها مشهد الاحتضار . وهو يتسق في الوسط مع البدء والنهاية كل الاتساق .

إنها ملحمة رائعة لا ينقصها الشعر ، فهي مصوغة في القالب الفني الذي يتضاءل أمامه الشعر ، وتجتمع له كل عناصر الجمال .

والآن نأخذ في استعراض هذه الملحمة ومشاهدها العجيبة :

ها نحن أولاء أمام مشهد الاحتضار - وهو برزخ بين الدنيا والآخرة - احتضار الذين افتروا على الله الكذب أو كذبوا بآياته - وقد حضرتهم رسل ربهم يتوفونهم ويقبضون أرواحهم . فدار بين هؤلاء وأولئك حوار : «أينَ ما كنتم تَدعونَ من دُون الله ؟» أين آلهتكم التي اعتصمتم بها في الدنيا وفتنتم بها عن الإيمان بالخالق الأعلى ؟ أين هي الآن في اللحظة الحاسمة التي تسلب منكم فيها الحياة

فلا تجدون لكم عاصماً من الموت يحفظ عليكم الحياة ؟ ويكون الجواب هو الجواب الوحيد الذي لا معدى عنه ولا مغالطة فيه : «قالُوا ضلوا عنّا» وغابوا ، فنحن لا نعرف لهم مقراً ، وهم لا يسلكون إلينا طريقاً . ألا ما أضيع عباداً لا تهتدي إليهم آلهتهم ، ولا تسعفهم في مثل هذه اللحظة الحاسمة ! وما أخيب آلهة لا تهتدي إلى عبادها في مثل هذا الأوان ! واليوم إذن لا جدال ولا محال «وشَهدوا على أنفُسهم أنهم كانوا كافرين» .

فإذا انتهى مشهد الاحتضار فنحن أمام المشهد التالي له في النار — فالزمان بين الاحتضار والبعث يطوى هنا طياً ، وكأنما يؤخذ أولئك المحتضرون من الدار إلى النار ! — « قال : ادخلوا في أمم قَدْ خلَتْ مِنْ قَبْلكم مِنْ الجنّ والإنْس في النار» . انضموا إلى زملائكم من الجن والإنس ، أليس إبليس هو الذي عصى ربه وهو الذي أخرج آدم من الجنة وزوجه ، وهو الذي أغوى العصاة من أبنائه ؟ فليدخلوا جميعاً سابقين ولاحقين في نار الجحيم .

ولقد كانت هذه الأمم في الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها ، ويملي متبوعها لتابعها ، فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها ، وكيف يكون التنابز فيها : «كلما دخلت أمة لعنت أختها» فما أبأسها من عاقبة تلك التي يلعن فيها الأخ أخاه ! «حتى إذا أدّاركوا فيها جميعاً» وتلاحق آخرهم بأولهم ، واجتمع قاصيهم بدانيهم ، بدأ الخصام والجدال : «قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلّونا ، فآتهم عذاباً ضِعفاً من النار» . وهكذا تبدأ المهزلة الأليمة ويتكشف المشهد عن الأصفياء والأولياء وهم متناكرون أعداء يتهم بعضهم

بعضاً ، ويطلب له من «ربنا» شر الجزاء . من «ربنا» الذي كانوا من قبل ينكرونه ، وهم اليوم يتوجهون إليه بالدعاء ! فيكون الجواب طمأنة للداعين باستجابة الدعاء ؛ ولكنها طمأنة ساخرة واستجابة أليمة : «قال : لِكلٍّ ضِعف ولكن لا تعلمون» فاطمئنوا ، فأنتم وهم ستنالون هذا الضعف الذي تطلبون ! ... وكأنما شمت المدعو عليهم بالداعين حينما سمعوا جواب الدعاء ، فإذا هم يتوجهون إليهم بالشماتة يقولون : لستم بأفضل منا فتنجوا ، ولسنا أُولاكم بالعذاب ، فكلنا فيه سواء : «وقالت أُولاهم لأخراهم : فما كان لكم علينا من فضل ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون» .

وبهذا ينتهي ذلك الجانب الساخر الأليم ، ليتبعه تقرير وتوكيد لهذا المصير الذي لن يتبدل أبداً – وذلك قبل عرض الجانب الآخر الذي يصور المؤمنين في جنات النعيم – «إن الذين كذبوا بآياتنا» ، واستكبروا عنها ، لاتُفَتَّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجملُ في سَمِّ الخياط» . ودونك فقف بخيالك ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب . مشهد الحبل الغليظ تجاه ثقب الإبرة الصغير [1] ! فحين تجد ذلك الحبل الغليظ يلج في هذا الثقب الصغير ، فانتظر حينئذ أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين ، وأن يدخلوا إلى جنات

---

(1) بعض المفسرين يفسر الجمل هنا بأنه الحيوان المعروف . ولكن الذي يدرس طريقة التصوير في القرآن وتناسق أجزاء اللوحة ووحدة الجو في المنظر . يلحظون التنافر بين الجمل والإبرة . كما يلحظون التناسق إذا كان الجمل هو الحبل الغليظ . أمام ثقب الإبرة الذين يدخل منه الخيط الدقيق . والاستحالة متوافرة . فالمعنى يتحقق والصورة تتناسق بهذا التفسير الأخير .

النعيم ! أما الآن – وإلى أن يلج الجمل في سم الخياط – فهم في النار التي تداركوا فيها جميعاً وتلاعنوا .

« وكذلك نجزي المجرمين » . وإليك صورتهم فيها : « لهم من جهنم مِهادٌ ومن فوقهم غواشٍ » فالنار فراش لهم ، يدعوه للسخرية مهاداً – وما هو ممهد ولا لين ولا مريح – والنار غطاء لهم يغشاهم من فوقهم « وكذلك نجزي الظّالمين » !

والآن فانظر إلى الجانب الآخر : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » قدر ما استطاعوا وفي حدود طاقتهم « لا نكلف نفساً إلا وسعها » ما بال هؤلاء ؟ « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » أصحابها وملاّكها ، فقد أورثوها جزاء ما عصوا الشيطان الذي أخرج أبويهم من الجنة .

وإذا كان أولئك الكافرون المكذبون يتلاعنون في النار ويتخاصمون وتغلي في صدورهم الأحقاد بعد أن كانوا أصفياء أولياء ، فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنة إخوانٍ متصافون يرفّ عليهم السلام والولاء : « ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ » وإذا كان أولئك يصطلون النار من فوقهم ومن تحتهم فهؤلاء « تجري من تحتهم الأنهار » وإذا كان أولئك يشتغلون بالتنابز والخصام فهؤلاء يشتغلون بالحمد والاعتراف « وقالوا : الحمد لله الذي هدانا لهذا – وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله – لقد جاءت رسلُ ربنا بالحقّ » وإذا كان أولئك ينادَون : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » زيادة في الإيلام والتحقير فهؤلاء ينادون بالتأهيل والتكريم : « ونُودُوا : أن تلكُم الجنَّة أورثتموها بما كنتم تعملون » .

ثم يستمر العرض فإذا نحن أمام مشهد لاحق للمشهد السابق . لقد استقر أصحاب الجنة في الجنة ، واستقر أصحاب النار في النار .

وإذا الأولون ينادون الآخرين من هناك : «أنْ قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقاً ، فهل وجدتم ما وَعَدَ ربكم حقاً ؟» - وفي هذا السؤال من التهكم المرّ ما فيه ، فالمؤمنون على ثقة من تحقق الوعيد كتحقق الوعد سواء ، ولكنه سؤال ! - ويجيء الجواب من هناك : «نعم !» حيث لا مجال لنكران أو محال . وعندئذ ينتهي الجدل ويغلق الحوار «فأذَّنَ مؤذِّن بينهم : أنْ لعنة الله على الظالمين» .

ثم يتوجه النظر إلى جانب من الساحة - ساحة العرض الفسيحة - فإذا مشهد آخر ، مشهد «الأعراف» الفاصلة بين الجنة والنار ، وكأنما هي «نقطة مرور» يفرز فيها أهل الجنة وأهل النار ، ويوجه كل إلى مستقره هنا أو هناك ؛ وعليها رجال يعرفون هؤلاء وهؤلاء بسيماهم ، فيوجّهونهم إلى حيث هم ذاهبون ، ويشيعون كلاً منهم بما يستحق من تحقير أو تكريم ! ...

وهؤلاء هم يتوجهون إلى أهل الجنة بالترحيب والسلام ، ويتوجهون إلى أهل النار بالتبكيت والإيلام : «أهؤلاء الّذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ؟» انظروا أين هم الآن ؟ إنهم في الجنة يتلقون السلام !

وأخيراً ها نحن أولاء نسمع صوتاً آتياً من النار ملؤه الرجاء والذلة والاستجداء : «ونادى أصحاب النَّار أصحاب الجنَّة : أن أفيضوا علينا من الماء أو ممَّا رزقكم الله» ! وها نحن أولاء نتلفت إلى الجانب الآخر ننتظر الجواب ، فإذا هو المعذرة والتذكير : «قالوا : إنَّ الله حرَّمهما على الكافرين» !

وحين ينتهي الاستعراض الكبير على هذا النحو المؤثر يجيء

التعقيب متناسقاً مع الابتداء : تذكيراً بهذا اليوم الذي مرت مشاهده . وتحذيراً من تكذيب آيات الله الذي جاء بها الرسل إلى بني آدم انتظاراً لتأويل هذه الآيات . فما تأويلها إلا وقوعها على النحو الذي عرضت به . وحينئذ لا فسحة ولا شفيع :

﴿ هل ينظرون إلاَّ تأويله ؟ يوم يأتي تأويله يقول الَّذين نسوه من قبل : قد جاءت رسل ربِّنا بالحقِّ ، فهل لنا من شُفعاء فيشفعوا لنا أو نُردُّ فنَعْملَ غيرَ الذي كنَّا نعملُ ؟ قد خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفتَرون ﴾ !

سورة يس[1]

﴿ ويقولون : متى هذا الوعدُ إنْ كنتم صادقين ؟ ما ينظرون إلا صيحةً واحدةً تأخذهم وهم يَخِصِّمون ، فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يَرجِعون . ونفخ في الصُّور فإذا همْ من الأجداث إلى رَبِّهم ينسلون . قالوا : يا ويلَنا ! من بَعثَنا من مرقدِنا ؟ هذا ما وعدَ الرحمن وصدَق المرسَلُون . إن كانت إلا صيحةً واحدةً فإذا هُم جميعٌ لدينا مُحْضَرون . فاليومَ لا تُظلم نفْسٌ شيئاً ، ولا تُجْزَون إلا مـا كنتم تعملون ﴾ .

---

(١) السورة (٤١) مكية . سبقتها سورة الجن . وليس فيها إلا إشارتان لليوم الآخر : إحداهما : «وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً» والثانية : «ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً . حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً» .

﴿ إن أصحابَ الجنَّةِ اليومَ في شُغُل فاكهون ، هم وأزواجُهم في ظِلال على الأرائك مُتَّكئون ، لهم فيها فاكهةٌ ولهم فيها ما يدَّعون . سلامٌ ، قوْلاً من ربٍّ رحيم ﴾ .

﴿ وامتازوا اليومَ أيُّها المجرمون . ألمْ أعهدْ إليكم يا بني آدم أنْ لاَ تَعبدوا الشيطانَ إنه لكم عدوٌ مبين ، وأن اعبدوني ، هذا صراطٌ مستقيم ؟ ولقد أضَلَّ منكم جِبلاً كثيراً ، أفَلَمْ تكونوا تعقلون ؟ هذه جهنم التي كنتم تُوعَدون ، اصلَوْها اليومَ بما كنتم تكفرون ﴾ .

﴿ اليومَ نَختمُ على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ، فاسْتَبَقوا الصراطَ ، فأنَّى يُبصرون ! ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مُضِيًّا ولا يَرجعون ﴾ .

* * *

يسأل المكذبون : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » فيكون الجواب مشهداً خاطفاً سريعاً ، فما هي إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يتجادلون ويتخاصمون ، فإذا هم أموات لا يملكون حتى التوصية ولا العودة إلى أهليهم ليموتوا بين أيديهم . وبهذا يرتسم المشهد الأول بعد الصيحة الأولى .

ثم إذا صيحة أخرى ، فإذا هم ينتفضون من الأجداث ويمضون سراعاً وهم في دهش وذعر يتساءلون : « مَنْ بعثنا مِنْ مرقدنا » ؟ ثم يفركون عيونهم فيتأكدون : « هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون » .

ثم إذا صيحة ثالثة « فإذا هم جميع لدينا محضرون » وقد انتظمت الصفوف وتهيأ الاستعراض في مثل لمح البصر أو رجع الصدى . وإذا الجميع ينصتون فيسمعون : « فاليوم لا تُظلم نفس شيئاً ولا تُجزون إلا ما كنتم تعملون » !

وفي هذه السرعة التي تتم بها المشاهد الثلاثة تناسق في الرد على أولئك الشاكّين المستريبين في يوم « الوعد » المبين !

ثم تبدأ عملية الفرز المعهودة ، ويتلفت البصر عن اليمين وعن الشمال . فلنلق أنظارنا يميناً : هؤلاء أصحاب الجنة مشغولون بما هم فيه من النعيم ملتذون متفكهون ، وإنهم لفي ظلال مستطابة يستروحون نسيمها ، وعلى أرائك متكئين في راحة ونعيم هم وأزواجهم ، لهم فيها فاكهة ولهم كل ما يشاءون ، فهم ملاّك محقق لهم كل ما يدّعون ولهم فوق اللذائذ الحسية التأهيل والتكريم : « سلام ، قولاً من رب رحيم » .

ثم لنلق أبصارنا شمالاً : هؤلاء أصحاب النار يتلقون الزجر والتحقير : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » انعزلوا في هذا الركن بعيداً عن المؤمنين . « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ؟ » من يوم أن أخرج أباكم من الجنة « وأن اعبدوني » فإن « هذا صراط مستقيم » ؟ فلم تحذروا الشيطان الذي أضل منكم أجيالاً كثيرة « أفلم تكونوا تعقلون ؟ » . كلاّ ما كان لكم عقل ولا دين . فتلقوا جزاءكم المهين « هذه جهنم التي كنتم توعدون . إصْلَوْها اليوم بما كنتم تكفرون » !

فإذا انتهى هذا المشهد فنحن أمام مشهد جديد عجيب : هؤلاء هم الكافرون يختم على أفواههم فلا تملك ألسنتهم النطق ، بينما تنطلق

أيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما كانوا يكسبون ! وإنه لمشهد عجيب يثير الخيال ، ويحرك الوجدان ، حيث تنقلب الأحوال ، وحيث يواجه الإنسان هذا الحادث الفذَّ ، يخذل بعضه فيه بعضاً ، وتشهد جارحة على جارحة ، وتتفكك الشخصية الإنسانية إلى أجزاء وآحاد !

وبينما نحن في دهش لهذا المشهد الفريد العجيب ، إذا هو يحرك خيالنا ليستعرض مشهداً آخر يفرضه جدلاً ، ولكنه يتمثل للخيال واقعاً : مشهد هؤلاء القوم وقد طمست أعينهم وأطلقوا يستبقون الصراط فهم لا يتلمسون ولا يتحسسون ، بل يستبقون ويتخبطون ! «فأنَّى يبصرون» !؟

وبينما الخيال مستغرق في تملي هذا المشهد ، وتتبع حركاتهم فيه وهم عميان مطموسون يتسابقون ويخبطون ! إذا حركة جديدة تقف هذه الحركات فجأة ، فهؤلاء هم قد جمدوا في مكانهم واستحالوا تماثيل لا يمضون ولا يرجعون ، بعد أن كانوا منذ لحظة عمياناً يستبقون ويضطربون ! «ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مُضياً ولا يرجعون» !

سورة الفرقان[1]

١ - ﴿ بل كذّبوا بالساعة ، وأعْتدْنا لمن كذّب بالساعة سعيراً ، إذا رأتْهم من مكان بعيدٍ سَمِعُوا لها تَغيّظاً وزفيراً ، وإذا أُلْقوا منها مكاناً ضيقاً مُقَرّنين دَعْوا هنالك ثبوراً . لا تَدْعُوا اليومَ ثُبوراً واحداً وادْعوا ثبوراً كثيراً . قُل : أذلك خيرٌ أمْ جَنّةُ الخُلْدِ التي وُعِدَ المتقون ، كانت لهم

(١) السورة (٤٢) مكية إلا ثلاث آيات .

جزاءً ومصيراً ، لهم فيها ما يشاءون خالدين . كانَ على ربّك وعداً مسئُولاً ؟ ﴾ .

﴿ ويومَ يحشُرهم وما يَعْبدُون مِن دون الله ، فيقول : أأنتم أضللْتم عِبادِي هؤلاءِ أمْ هُم ضلّوا السبيل ؟ قالوا : سُبْحانَك ! ما كان ينبغي لنا أن نتّخذ مِن دونك مِن أولياءَ ، ولكنْ متَّعتَهم وآباءَهم حتى نَسُوا الذّكْرَ وكانوا قوماً بُورا . فقد كذّبوكم بما تقولون ، فما تستطيعون صَرْفاً ولا نَصراً ، ومن يَظلِمْ منكمْ نُذِقْه عذاباً كبيراً ﴾ .

٢ – ... ﴿ وقال الذين لا يَرْجون لقاءَنا : لوْلا أُنزِل علينْا الملائكةُ أو نَرى ربّنا ؟! لقد استكبروا في أنفسهم وعَتَوْا عُتُوّاً كبيراً . يومَ يَرَوْن الملائكةَ لا بُشرَى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حِجراً محجوراً ، وقَدِمنا إلى ما عَمِلوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثوراً . أصحابُ الجنّةِ يومئذ مُسْتقرَاً وأحسنُ مَقيلاً . ويومَ تشققُ السماءُ بالغمامِ ونُزّل الملائكةُ تنزيلاً ، المُلْكُ يومئذ الحقُّ للرحمن ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً .

﴿ ويوم يَعَضُّ الظالمُ على يديْه ، يقول : يا ليتني اتَّخذتُ مع الرسول سبيلاً ! يا ويْلتَا ! ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ! لقد أضلّني عن الذّكْر بعدَ إذ جاءني ، وكان الشيطانُ للإنسان خَذُولاً ﴾ .

٣ – ﴿ الذين يُحشَرون على وجوههم إلى جهنمَ أولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ سبيلاً ﴾ .

١ - التشخيص ، ونعني به خلع الحياة وتجسيمها على ما ليس من شأنه الحياة المجسمة من الأشياء والمعاني والحالات النفسية ... فنّ في القرآن كثير الورود فيما يعرضه من الصور يبلغ من الجمال مستوى رفيعاً[1] ، بما يبث من الحياة في الأشياء ، فتنتفض شخوصاً تأخذ من الأحياء وتعطي ، وتجاوبهم بالحس والحركة والحياة ...

ونحن هنا أمام مشهد من هذه المشاهد التي تستجيش الخيال : مشهد النار المستعرة وقد دبت فيها الحياة ، فإذا هي تنظر فترى أولئك المكذبين بالساعة وتراهم من بعيد ، وإنها «إذا رأتهم من مكانٍ بعيد سمعوا لها تَغَيُّظاً وزفيراً» فهي هنا تتحرق عليهم ، وتصعد الزفرات غيظاً منهم ، وإنها لفي انتظارهم ؛ وهي تزفر غيظاً ، وتتحرق نقمة ؛ وهم إليها في الطريق ! مشهد رهيب ومنظر عجيب ، ولحظات انتظار يا لها من لحظات !

«وإذا ألقوا منها مكاناً ضيِّقاً مقرَّنين دعوا هنالك ثبوراً» ... لقد وصلوا إلى هذه الغول النارية الفظيعة ؛ المتحرقة من النقمة ، المتهيئة للانقضاض . وصلوا فلم يتركوا لهذه الغول طلقاء يصارعونها فتصرعهم ويتحامونها فتغلبهم .. بل ألقوا إليها إلقاء ، وألقوا مقرّنين قد قرنت أيديهم إلى أرجلهم في السلاسل ، وألقوا هنالك في مكان ضيق يزيدهم ضيقه كرباً ؛ فراحوا يدعون الهلاك ينقذهم من هذا البلاء . فالهلاك اليوم أمنية المتمني والمنفذ الوحيد للخلاص من هذا الكرب الذي لا يطاق ... ثم ها هم أولاء يسمعون رد الدعاء . يسمعونه تهكماً ساخراً

---

(١) يراجع فصل «التخييل الحسي والتجسيم» في كتاب التصوير الفني في القرآن .

مريراً ميئساً من الخلاص : «لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً» ! .

وحينما يصل التأثر بهذا المشهد الشاخص غايته ، يتوجه إلى النبي بالقول : «وقل : أذلك خير أم جنَّةُ الخلد التي وُعد المتقون كانت لهم جزاءً ومصيراً ، لهم فيها ما يشاءون خَالِدين ، كان على ربك وعداً مسئولاً ؟» . الجنة خير ! وهل هناك مجال للموازنة بين الجنة وهذا الكرب الذي لا يطاق ؟ أيها الناس إذن لكم الخيار بين هذا وذاك !

ثم يمضي بعد هذه اللفتة القصيرة في حينها المناسب ، يعرض مشهداً آخر من مشاهد العذاب : مشهد أولئك المكذبين بالساعة الذين يشركون مع الله آلهةً أخرى . لقد حشروا وحشر معهم ما كانوا يعبدون من دون الله ، ووقف الجميع عباداً ومعبودين على قدم المساواة أمام الخالق الواحد القهار . عندئذ يوجِّه الخطاب لهؤلاء المعبودين : «أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أمْ هم ضلوا السبيل» ؟ وإن الله ليعلم ، ولكن هذا الاستجواب رهيب في ساحة الاستعراض . والجواب هو الإنابة من هؤلاء «الآلهة» لله الواحد القهار ، والتبرؤ من ذلك الكفر والضلال والزراية على أولئك الجاحدين الجهال : «قالوا : سُبحانكَ ! ما كان ينْبغي لنا أَنْ نتَّخذ من دُونك من أولياء . ولكنْ متَّعْتَهُم وآباءَهم حتَّى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً» هالكين بائرين ... عندئذ يتوجه إلى أولئك العباد الجهال بالخطاب : «فقَدْ كَذَّبوكُم بما تقولون . فما تستطيعونَ صَرفاً ولا نصراً» ، فلا أنتم تملكون صرف العذاب عنكم . ولا الانتصار لأنفسكُم . إنما أنتم هالكون مغلوبون ...

وبينما نحن وهم في ساحة العرض الكبير ، نسمع الحوار ونشهد

الاستجوابَ ، إذا السياق ينقلنا وينقلهم إلى الدنيا في الوقت الذي لا تزال صورة العرض قائمة ؛ فيقول : «ومَنْ يَظْلِمْ منكُمْ نُذِقْهُ عذاباً كبيراً» ليجيء هذا الوعيد وصورة الموقف الرهيب لم تبرح الأذهان . وتلك في الكثير طريقة القرآن ، تجمع بين الدنيا والآخرة في ومضة خاطفة ، وبين مشاهد النعيم والعذاب ، والترغيب فيها والتخويف منها في سياق سريع ، لأنها تخاطب الوجدان بهذه المشاهد لتحقيق الغاية من الترغيب والتخويف .

٢ – وكان بعض الكُفَّار يحتجّ على تكذيب الرسول بأنه بَشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق : «وقال الذينَ لا يرجونَ لقاءَنا : لولا أُنزِل علينا الملائِكَةُ أو نَرى ربَّنا» وكان الجواب رسْم مشهد لما سيكون يوم يتحقق اقتراحهم فيرون الملائكة ... «يوم يرون الملائِكَةَ لا بُشْرى يومئذٍ للمُجْرِمينَ» فإنما ذلك هو يوم الدِّين ، يوم لا يبشر المجرمون ولكن يعذبون ! فيا لها من استجابة لما يقترحون ! يومئذٍ يقولون : «حِجراً محجوراً» أي حراماً محرماً . وهي جملة اتّقاء للشر وللأعداء كانوا يقولونها في الدنيا استبعاداً لأعدائهم وتحرزاً من أذاهم ، فهي تجري على ألسنتهم من الذهول حين يُفاجأون . ولكن أينَ هم اليوم مما كانوا يقولون ؟ إن هذا الدعاء لا يعصمهم من شيء : «وقَدِمْنَا إلى مَا عمِلُوا من عملٍ فَجَعَلْنَاهُ هبَاءً منثُوراً» ، هكذا في لحظة قصيرة ، والخيال يتتبع حركة القدوم المجسمة المتخيلة ، وعَملية الإثارة للأعمال ، وارتفاع الهباء في الفضاء فإذا كل ما عملوا هباء منثور .

وهنا يلتفت مرة أُخرى وفي الوقت المناسب إلى أصحاب الجنة . فهم «يومَئِذٍ خيرٌ مُسْتَقَرًّا» والاستقرار هنا مقابل لخفة الهباء المنثور .

والاطمئنان مقابل للفزع الذي يطلق الدعاء في ذهول . وهم «أَحسَنُ مَقِيلاً» مستروحون ناعِمون في الظلال .

ولقد كان الكفار يقترحون أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة – وذلك تأثراً بالأساطير التي كانت تصور الإله يتراءى للناس في سحابة ، وهي أساطير إسرائيلية – فهو يعود ليرسم لهم مشهداً لما سيكون يوم يتحقق هذا الاقتراح : «وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بالغَمامِ ونُزِّل الملائِكَةُ تَنزيلاً ، الملكُ يومئذٍ الحقُّ للرَّحمٰنِ» ... فذلك هو اليوم الذي كانوا به يجحَدُون : «وكانَ يوماً على الكافِرينَ عَسِيراً» وهو يومهم الذي كانوا يقترحونَ !

ثم يعرض على الساحة مشهداً فريداً للندم ، يعرضه عرضاً طويلاً مديداً ، يخيل للسامع أن لن ينتهي ولن يبرح ، مشهد الظالم يعض على يديه من الندم ، والأسف ، والأسى «ويومَ يَعَضُّ الظَّالمُ على يَدَيْه يقول : يا ليتني اتخذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً» ... إلخ ، ويصمت كل شيء حوله ، ويروح يمد في صوته المتحسر ونبراته الأسيفة ، حتى ليكاد النظَّارة وقد تأثروا بمشهد الندم يشاركونه الندم ، وذلك هو الغرض المقصود من إطالة العرض . وتلك من سمات التناسق الفنِّي في القرآن[1] .

٣ – وبعد آيات تعرض في السورة صورة لمن يحشرون في جهنم . يجتمع فيها التحقير المعنوي إلى التعذيب الحسي : «الَّذِينَ يُحشَرونَ

---

(١) يراجع فصل التناسق الفني في كتاب «التصوير الفني في القرآن» .

على وجُوهِهِمْ إلى جهنم » . فصورتهم وهم يسحبون في النار ووجوههم مكبوبة فيها ، صورة حسية بشعة يتقيها المتقون ، ويحذر منها المكذبونَ ، وهي كذلك توحي بالمهانة والزراية : « أُولئك شرٌّ مكاناً وأَضلُّ سبيلاً » .

سورة فاطر [1]

﴿ جناتُ عَدْنٍ يدخُلونها يُحلَّوْن فيها من أساورَ من ذهبٍ ولؤلؤاً ولباسُهم فيها حرير . وقالوا : الحمدُ لله الذي أذهبَ عنَّا الحزَن ، إن ربَّنا لغفورٌ شكور ، الذي أحلّنا دارَ المُقامةِ مِن فضلهِ ، لا يَمسُّنا فيها نصَبٌ ولا يمسُّنا فيها لُغوب ﴾ .

﴿ والذين كفروا لهم نارُ جهنم ، لا يُقضَى عليهم فيموتوا ، ولا يُخفَّفُ عنهم من عذابها . كذلك نَجْزي كلَّ كفور . وهم يَصْطرِخون فيها : ربَّنا أخرجْنا نعملْ صالحاً غيرَ الذي كُنَّا نعمل ، أوَلمْ نُعمِّرْكم ما يتذكّر فيه مَنْ تذكّر ؟ وجاءكم النذيرُ . فذوقوا فما للظالمين من نصيرٍ ﴾ .

هنا مشهدان متقابلان – على عادة القرآن – مشهد المنعَّمين في الجنة ومشهد المعذَّبين في النار ! وهما في تقابلهما يطبعان أثرين مختلفين في النفس ، ولكنهما يلتقيان منها في مكان واحد ، وينحازان بها إلى موقف فرد .

---

(١) السورة (٤٣) مكية

الأولون في الجنة ، وقد تكشف المشهد عن نعيم مادي ملموس ، ونعيم نفسي محسوس . فهم «يُحَلَّوْنَ فيها من أساورَ من ذهب ولُؤْلُؤًا ولباسُهم فيها حرير» وذلك بعض المتاع المادي الذي يلبي رغبة الترف في كثير من النفوس ؛ وبجانبه ذلك الرضى وذلك الأمن وذلك الاطمئنان : «الحمدُ لله الذي أذهب عنَّا الحَزَن» والدنيا بما فيها من قلق على المصير ومعاناة للأمور تعد حزناً بالقياس إلى هذا النعيم المقيم ؛ والقلق يوم الحشر على المصير مصدر حزن كبير «إن ربَّنا لغفور شكور» غفر لنا وشكر لنا أعمالنا بما جازانا عليها «الذي أحلَّنا دار المُقامة» للإقامة والاستقرار «مِنْ فَضْله» فما لنا عليه من حق ، إنما هو الفضل يعطيه من يشاء «لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يمسُّنا فيها لُغوب» بل يجتمع لنا فيها النعيم والراحة والاطمئنان .

فالجوّ كله يسر وراحة ونعيم ؛ والألفاظ مختارة لتتسق بجرسها وإيقاعها مع هذا الجو الحاني الرحيم ؛ حتى الحزْن لا يتكأ عليه بالسكون الجازم بل يقال (الحزَن) بالتسهيل والتخفيف ؛ والجنة «دارَ المُقامةِ» . والنصب واللُّغوب لا يمسانهم مجرد مساس ؛ والإيقاع الموسيقي للتعبير كله هادئ ناعم رتيب .

ثم نلتفتُ إلى الجانب الآخر . فماذا نرى ؟

نرى القلق والاضطراب وعدم الاستقرار على حال «والَّذينَ كَفَرُوا لهم نارُ جهنَّم ، لا يُقضَى عليهم فيموتُوا ، ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابها» فلا هذه ولا تلك ، حتى الراحة بالموت لا تنال «كذلك نجزي كلَّ كَفُور» .

ثم ها نحن أولاء يطرق أسماعَنا صوتٌ غليظ مُحشرَجٌ مختلط

الأصداء متناوح من شتى الأرجاء . إنه صوت المنبوذين في جهنم «وهم يَصْطَرِخُونَ فيها» — وجرس اللفظ نفسه يلقي في الحس هذه المعاني جميعاً — فلنتبين من ذلك الصوت الغليظ المختلط ماذا يقول : «ربنا أخرِجْنا نعملْ صالحاً غير الذي كنا نعمل» إنه الإنابة والاعتراف والندم إذن ، ولكن بعد فوات الأوان . فها نحن أولاء نسمع الرد الحاسم يحمل التأنيب القاسي : «أَوَلم نعمِّركم ما يتذكَّر فيه من تذكَّر» فلِم تنتفعوا بهذه الفسحة من العمر ، وهي كافية للتذكر «وجاءكم النذيرُ» زيادة في التنبيه والتحذير ، فلم تتذكروا ولم تحذروا «فذوقوا . فما للظالمين من نَصير» .

إنهما لصورتان متقابلتان : صورة الأمن والراحة ، تقابلها صورة القلق والاضطراب ؛ ونغمة الشكر والدعاء ، تقابلها ضجة الاصطراخ والنداء ؛ ومظهر العناية والتكريم ، يقابله مظهر الإهمال والتأنيب ؛ والجرس اللين والإيقاع الرتيب ، يقابلهما الجرس الغليظ والإيقاع العنيف ؛ فيتم التقابل ويتم التناسق في الجزئيات وفي الكليات سواء .

سورة مريم [1]

١ — ﴿ جنَّاتِ عَدْنٍ التي وعدَ الرحمنُ عبادَه بالغيب ، إنَّه كان وعدُه مَأتِيًّا ، لا يَسمعون فيها لَغْواً إلا سَلاماً ، ولهم رزقُهم فيها بُكْرةً وعَشِيًّا . تلك الجنةُ التي نُورثُ من عبادنا مَنْ كان تَقيًّا ﴾ .

(١) السورة (٤٤) مكية إلا آيتين متفرقتين .

٢ - ... ﴿ فوربِّك لنحشُرَنَّهم والشياطينَ ، ثم لَنُحضِرَنَّهم حولَ جهنمَ جِثياً . ثم لَننزِعنَّ مِن كلِّ شيعةٍ أيُّهم أشدُّ على الرحمن عِتياً . ثم لنحن أعلمُ بالذين هُمْ أولى بها صِلياً . [وإنْ مِنكم إلاَّ وارِدُها ، كانَ على ربِّك حتْماً مقضِيًّا[1]] ثم نُنجِّي الذين اتقَوْا ، ونَذَرُ الظَّالمين فيها جِثِيًّا ﴾ .

٣ - ... ﴿ يوم نَحشُر المتّقين إلى الرحمن وَفْداً ، ونَسُوق المجرِمينَ إلى جهنّم وِرْداً . لا يَملِكُون الشفاعةَ إلاَّ مَن اتخَذَ عندَ الرَّحمٰنِ عهْداً ﴾ .

٤ - ﴿ إنَّ الذينَ آمنوا وعملُوا الصَّالحاتِ سيجْعل لهمُ الرحمن وُداً ﴾ .

* * *

صورة للجنة هادئة ساكنة رتيبة : «لا يَسْمعُون فيها لغواً إلاَّ سلاماً» فلا فضول في الحديث ، ولا ضجة ولا جدال ؛ إنما يسمع فيها صوت واحد يناسب هذا الجو الحالم الراضي هو صوت السلام . والرزق في هذه الجنة مكفول لا يحتاج إلى طلب ولا كدّ ، فما يليق

(١) هذه الآية المعترضة مدنية .

الطلب في هذا الجو الراضي : « ولهم رِزْقُهم فيها بُكرَةً وعَشِياً » . « تلك الجنةُ التي نورِثُ مِن عبادِنا مَنْ كانَ تقياً » .

ثم يستمر السياق في السورة رداً على المكذبين بيوم القيامة « ويقول الإنسان أئذا ما مِتُّ لسوف أُخرَج حياً ؟ » فيكون الرد قسماً تهديديّا : « فوربِّك لنحْشُرَنَّهم » ولن يكونوا وحدهم فلنحشرنهم « والشياطينَ » فهم وإياهم سواء ، وبينهما صلة التابع والمتبوع ، أو صلة القرين بالقرين ... وهنا يرسم صورة حسية لهم وهم جاثون حول جهنم جُثُوَّ الخزي والفزع . ثم إذا هم يُنتَزعون طائفة بعد طائفة فيلقون فيها . إنما يختار منهم أولاً فأولاً ، أعتاهم وأشدهم وأقواهم . وفي اللفظ وتشديده لهذا الانتزاع ، تتبعها صورة القذف المتخيلة ، وهي الحركة التالية في الخيال للانتزاع .

ويبدو أن المؤمنين كانوا يشهدون العرض ، ولكنهم ناجون بما اتقوا هذا اليوم ، فهم يغادرون الموقف سالمين ؛ ويترك المجرمون في جهنم جاثين !

ثم يستمر سياق السورة فيعرض مشهداً آخر مُجملاً لهؤلاء وهؤلاء : فيه التقابل السريع . فأما المؤمنون فمجموعون وفداً إلى الرحمن . وأما المجرمون فذاهبون ورداً إلى جهنم . فأما الوفد فسيلقى « الرَّحمٰنَ » يستقبل بره وغيثه . وأما الوِرْد فستورِدُهُ جهنم يستقبل اللظى والأُوار ! لا يملكون لأنفسهم شفاعة ، فلا شفاعة يومئذ إلا لمن قدم عملاً صالحاً معهوداً عند الله ومعروفاً .

وعلى مقربة من هذه الصورة يقول : « إنّ الذين آمنوا وَعملوا الصّالحاتِ سَيجْعَلُ لَهُمُ الرَّحمٰنُ وُداً » وهي صورة لنعيم معنوي لطيف ،

قوامه الود السامي بين الرحمن وفريق من عباده . وهو في ذاته نعيم لا يماثله النعيم .

سورة طه [1]

١ - ﴿ إنّهُ من يأتِ رَبَّه مُجْرِماً فإنَّ له جهنَّمَ لاَ يمُوت فيها ولا يَحْيا ؛ ومَنْ يأته مؤمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالحاتِ فأولئكَ لَهُمُ الدَّرجاتُ العُلَىٰ : جنَّاتُ عدْنٍ تجْرِي من تحتِها الأنْهارُ خالدِينَ فيها ، وَذَلكَ جزَاءُ مَنْ تزَكَّىٰ ﴾ .

٢ - ﴿ يَوْمَ يُنْفخُ في الصُّور ونَحْشُرُ الْمُجْرمينَ يوْمَئذٍ زُرْقاً ، يَتخافَتُونَ بينَهم : إنْ لبِثْتمَ إلا عَشْراً . نَحنُ أعْلَمُ بما يقولون ، إذْ يقولُ أمثلُهم طَرِيقَةً إنْ لبثتمَ إلاّ يوماً .

﴿ ويسألونك عن الجبالِ ، فقل : ينسفُها ربي نَسْفاً ؛ فيذرُها قاعاً صَفْصَفاً لا ترى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً . يومئذ يتَّبعون الداعيَ لا عِوَجَ له ، وخَشَعَتِ الأصْواتُ للرحمنِ فلا تسمعُ إلا هَمْساً . يومئذٍ لا تنفَعُ الشَّفاعةُ إلاّ مَنْ أذِن له الرحمٰنُ ورضيَ له قوْلاً . يعلمُ ما بين أيديهم وما خَلْفَهم وَلا يُحيطون به عِلْماً . وعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ القَيُّومِ ، وقد خابَ من حَمَل ظُلماً .

---

(١) السورة (٤٥) مكية إلا آيتين .

﴿ وَمن يعْمل من الصَّالحاتِ وهو مُؤْمِنٌ فلا يَخافُ ظُلماً ولا هَضْماً ﴾ .

٣ - ﴿ قال اهْبِطا منْها جَميعاً ، بَعضكم لبَعض عَدُوٌ ؛ فإمّا يأتينَّكُم منِّي هُدىً ، فمن اتّبع هُدايَ فلاَ يَضلّ وَلا يَشْقى ؛ ومَنْ أعْرَضَ عن ذِكْري فإنَّ له مَعيشةً ضَنْكاً ونَحْشُرُه يومَ القِيامة أعمى . قال : ربِّ لِمَ حَشرْتَني أعْمى وقدْ كنتُ بصيراً ؟ قال : كذلك أتـتْك آياتُنا فنَسِيتَها ، وكذلك اليومَ تُنسَى ﴾ .

١ - المشهد الأول في هذه السورة من مشاهد العذاب التي مر وصفها «لا يموتُ فيها ولا يحيا» وردت من قبل في سورة «الأعلى» ولكنها ترد هنا في سياق جديد : «إنَّه من يأت ربّه مُجرماً فإنَّ له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا» لم يرد في السياق هناك ، وفي مجيئه «مجرماً» إلى «ربه» لا لأي أحد آخر ، لفتة تهكم قوية ! ثم يضاف إليها صورة المؤمنين في «الدرجات العلى» وقد استعرضنا الصورة الأساسية هناك ولكنا لم نغفلها هنا لبيان أن بعض الصور الصغيرة قد تكرر ، ولكن مع تغيير في السياق الذي ترد فيه ، يكسبها جوًّا جديداً .

٢ - أما المشهد الثاني فمشهد جديد . فهؤلاء المجرمون يحشرون زُرْقَ الوجوه من الكدر والغم[1] ، وها هم أولاء يتخافتون بينهم

---

(١) بعض التفاسير تقول «زرق العيون» لأن زرقة العين مذمومة عند العرب ، ولأن أعداءهم الروم كانوا زرق العيون ، فجرى ذلك مثلاً في العيون المكروهة . ولكنا لا نرى ما يمنع من التفسير الذي قلنا به ، وهو زرق الوجوه ، ما دام القرآن لم يخصص . ونحن أميل إلى أقرب معنى يدل عليه اللفظ ، ويرسم صورة ، فالتصوير في القرآن هو قاعدة التعبير .

بالحديث ، لا يرفعون به صوتاً من الرعب والهول والرهبة المخيمة على ساحة الحشر . وفيم يتخافتون ؟ إنهم يحدسون عما قضوه من الأيام في القبور ، فلقد كانوا موتى ، وقد فقدوا حاسة الشعور بالزمن ، فاليوم يقولون : لم نلبث إلا عشر ليال ، ويقول أصوبهم رأياً : ما لبثتم غير يوم . فيستوي في التخبط الجاهلون والعالمون منهم ، بل يوغل العالمون في الجهل فيقولون : «إنْ لَبِثْتُم إلا يوماً» وهي على أية حال هيئة المفاجأة لمن يستيقظ فيرى تغير الأحوال ، وهو لا يدري كم من الزمن مضى فيعتمد على الحدس والتخمين !

ولكي ندرك الهول الذي يواجه القوم ، علينا أن ننظر لنرى الجبال الراسية الراسخة وقد نسفت نسفاً ، فإذا هي قاع صفصف لا اعوجاج فيها ولا نتوء ، فلقد سويت بالأرض لا علو فيها ولا انخفاض .

وكأنما سكنت العاصفة بعد هذا النسف والتسوية ، وأنصت الجمع ، وخفتت النأمة ؛ وإذا هم يستمعون إلى الداعي يدعوهم إلى الله فيتبعونه صامتين مستسلمين لا يتلفتون ولا يتخلفون ، ويعبر عن استسلامهم بأنهم «يتبعون الداعيَ لا عِوَج له» تنسيقاً للتعبير وللمشهد مع الجبال التي لا عوج فيها ولا نتوء .

ثم يخيم الصمت الرهيب والسكون الشامل : «وخَشَعت الأصوات للرحمٰن فلا تَسمعُ إلا همساً» ... «وعنتِ الوجوهُ للحي القيّوم» .

وهكذا تسود الموقف كله رهبة وصمت وخشوع وسكون . فالكلام همس والسؤال تخافت ، والخشوع سائد ، والوجوه عانية ، وجلال الحي القيوم يغمر النفوس بالجلال الرزين ، ولا شفاعة إلا لمن يؤذن له ، والعلم كله له ؛ والظالمون يحملون ظلمهم فيواجهون الخيبة ؛ والذين آمنوا مطمئنون لا يخشون ظلماً ولا يخافون هضماً .

إنهُ الجلال ، يغمر الجو كله ويغشاه في حضرة الرحمٰن .

٣ - ثم ترد الصورة الثالثة بعد استعراض قصة آدم مختصرة ، وهبوطه من الجنة مع إبليس ، بعضهم لبعض عدوّ ، في انتظار الهدى الذي يبعث الله به رُسُله ، «فمن اتَّبع هُدَاي فلا يَضِلُّ ولاَ يَشقى» وإن في ذلك لعوضاً عن الشقاء والضلال اللذين لقيهما آدم ويلقاهما بنوه في هذه الأرض بعد النعيم والهدى في الفردوس المفقود «ومَنْ أعرض عن ذكري فإنَّ له معيشةً ضَنْكاً» . وإنها بالقياس إلى الفردوس لضنك ، على الأقل بما فيها من مطامح ومخاوف . ثم يحشر في الآخرة على صورة عجيبة ، يحشر أعمى ، وذلك ضلال من نوع ضلاله في الدنيا ، حتى إذا سأل «رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أعمى وقد كنت بَصيراً ؟» كان الجواب «كذلكَ أَتَتْكَ آيَاتُنا فَنَسِيتَها ، وكذلك اليومَ تُنسَى» .

اتساق في التعبير ، واتّساق في التصوير : هبوط من الجنة وشقاء وضلال ، يقابله عودة إليها ونجوة من الضلال والشقاء ؛ وفسحة في الجنة يقابلها الضنك ؛ وهداية يقابلها العمى .

ويجيء هذا تعقيباً على قصة آدم ، وهي قصة البشرية جميعاً . فيبدأ الاستعراض في الجنة ، وينتهي في الجنة ، كما مر في سورة الأعراف ، مع الاختلاف في الصور الداخلة في الاستعراض . وهكذا قد تتحد المشاهد العامة ، ولكنها تختلف في جزئياتها بما يحقق الجدة وينفي التكرار في صور القرآن .

سورة الواقعة [1]

١ - ﴿ إذَا وَقعتِ الواقعةُ ، ليس لوقْعتِها كاذِبةٌ ، خَافِضَةٌ

---

(١) السورة (٤٦) مكية إلا آيتين .

رافعةٌ . إذا رُجَّت الأرضُ رجًّا ، وبُسَّتِ الجبالُ بَسًّا ، فكانتْ هباءً مُنْبَثًّا . وكنتم أزواجاً ثلاثةً : فأَصْحابُ الميْمنَةِ . ما أصحابُ الميْمنَةِ ؟ وأصْحَابُ المَشْأَمةِ . ما أصْحَابُ المشأَمَةِ ؟ والسَّابِقُونَ السَّابِقُون ، أُولئِكَ المُقَرَّبُون ، في جنَّاتِ النَّعيمِ : ثُلةٌ من الأوَّلينَ ، وقليلٌ من الآخِرِينَ ، على سُرُر مَوْضُونَةٍ ، متَّكِئينَ عليها مُتقابلين ، يَطُوفُ عليهم وِلْدانٌ مُخَلَّدُون ، بأكوابٍ وأبَارِيقَ وكأسٍ من مَعِينٍ ، لا يُصَدَّعُون عنها ولا يُنزِفُون ، وفاكِهَةٍ مما يتخيَّرون ، ولَحم طيرٍ ممَّا يشتهون ، وحُورٌ عِينٌ ، كأمثالِ اللؤْلُؤِ المكْنُون جَزَاءً بِما كانوا يَعْمَلُون . لا يسْمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ، إلاَّ قِيلاً : سَلاماً سَلاماً . وأصحَابُ اليمينِ ؟ في سِدْرٍ مَخْضودٍ ، وَطَلْحٍ مَنضودٍ ، وظِلٍّ ممْدُودٍ ، وماءٍ مَسْكُوبٍ ، وفاكهةٍ كَثيرَةٍ ، لاَ مقطُوعةٍ ولا ممْنُوعةٍ ، وفُرُشٍ مرْفُوعَةٍ . إنَّا أنْشأنَاهُنَّ إنْشَاءً ، فَجَعَلْناهُنَّ أبكاراً ، عُرُباً أَتراباً ، لأَصْحَابِ اليَمينِ : ثُلةٌ منَ الأوَّلين ، وثلةٌ من الآخرين . وأصْحَابُ الشِّمال . ما أصحابُ الشِّمال ؟ في سَمُومٍ وحَميم ، وظِلّ من يَحْمُومٍ ، لا باردٍ ولا كَرِيمٍ ! إنَّهُمْ كانوا قبْلَ ذلكَ مُتْرَفِين ، وكانُوا يُصرُّونَ على الحِنْثِ العَظيم : وكانُوا يَقُولونَ : أئِذَا مِتنا وكُنَّا تُراباً وعِظاماً أَئِنَّا لمبْعُوثُون ؟ أوَآباؤُنا الأوَّلون ؟ قل : إنَّ الأوَّلين والآخرين لمجْمُوعُون إلى ميقاتِ يَوْمٍ معلومٍ . ثمَّ إنكم – أيُّها الضَّالون المكذِّبون – لآكِلُون من شَجَرٍ من زَقُّومٍ ، فمالِئُون منها البُطون ، فَشَاربون عليه منَ الحميم ، فَشَارِبُون شُرْبَ

الهيمِ . هذا نُزُلُهُمْ يومَ الدين ﴾ .

٢ – ... ﴿ فَلَوْلاَ إذا بَلَغتِ الحُلقومَ ، وأنتم حِينئذٍ تَنظُرُون ، ونحن أقرَبُ إليه منكم ولكن لا تُبْصِرُون . فلولا إن كنتم غيرَ مَدينين ، تَرْجِعُونَها إن كنتم صادقين ! فأمَّا إن كان من المقرَّبينَ ، فرَوْحٌ وَرَيحانٌ وجنةُ نعيم . وأمَّا إن كانَ من أصحاب اليَمينِ ، فَسلامٌ لكَ من أصْحَابِ اليمينِ . وأمَّا إن كانَ من المكذِّبين الضَّالينَ ، فَنُزُلٌ من حميم ، وتصليةُ جَحيمٍ ﴾ .

* * *

١ – هول الساعة هنا ماديّ من النوع الذي سبق في القارعة ، ولكن في صورة جديدة في بعض جوانبها . والقيامة هنا هي «الواقعة» فهي حادث واقع لا مجال لكذبه ولا لتكذيبه ، «إذا وَقعَتِ الواقعةُ ، ليس لوقعتها كاذبة» ولفظة «الواقعة» بما فيها من مدّ ثم سكون أشبه بسقوط الجسم الذي يرفع ثم يترك فيهوي واقعاً ، فينتظر له الحس فرقعة ورجّة : وهكذا يلبي السياق ما يتوقعه الحس ، فهي «خافضة رافعة» تلك الأرجحة التي يحدثها سقوط الأجسام الثقيلة تحدثها كذلك «الواقعة» في عالم الحس كما توقعها في عالم المعاني ، يوم تشيل أقدار وتهوي أقدار ... ولأن الاهتزاز أو الرجة ، هي الجو العام للمشهد استمر السياق يعرض صور الارتجاج «إذا رُجَّت الأرضُ رجًا» ؛ ولأن «الواقعة» تهبط من عل فتدك وتطحن . كما ترج وتهز عرض السياق ذلك الجانب الآخر المتوقع في الحس «وبُسَّت الجبال

بساً » فإذا هي فتيت مبسوس ، يتطاير في الهواء كالهباء « فكانت هباء منبثاً » ... وبذلك ينتهي مشهد الهول المادي المتسق في صوره كلها مع « الواقعة » وما تثيره في الحس من صور ومعاني .

ينتهي هذا لنشهد الاستعراض في الساحة الكبرى . ولأول مرة نجد الناس فرقاً ثلاثة لا فرقتين اثنتين – كما هو السائد في مشاهد الاستعراض القرآنية [1] ـ « وكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً » فرقة السابقين المقربين ، وهي تتألف من جماعة من الأولين وقليل من الآخرين . وفرقة أصحاب الميمنة أو اليمين ، وهي مؤلفة من جماعة من الأولين وجماعة من الآخِرين . وفرقة أصحاب المشأمة أو الشمال . ولكل من هذه الفرق الثلاثة مكان معلوم .

ويبدأ هنا بذكر أصحاب الميمنة – وإن كان المقربون أعلى مكاناً كما سيجيء – « فَأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ . ما أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ ؟ » وهذا الاستفهام للتهويل بالتجهيل ، وهو كثير في القرآن وقد تحدثنا عنه آنفاً – وأصحاب الميمنة هم المعروفون بأصحاب اليمين – ومن غير إجابة أو تفصيل ينتقل بالمثل إلى أصحاب المشأمة : « وَأَصْحَابُ المَشْأَمَةِ . مَا أَصْحَابُ المَشْأَمةِ ؟ » وهم المعروفون لنا بأصحاب الشمال . وفي الميمنة والمشأمة إلماع إلى الحظ والطالع ، وإن كان اللفظ نفسه مما يستخدم في معنى اليمين والشِّمال . « والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ، أُولئكَ المُقَرَّبُونَ في جَنَّاتِ النَّعيمْ ، ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ ، وَقلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ »

---

(١) ولعل الفريقين الأول والثاني هنا هما فريق واحد في الحقيقة متفاوت الدرجات في النعيم . فذكر هنالك إجمالاً ، وذكر هنا تفصيلاً .

ثم لا يزيد على هذا بياناً لصفاتهم ومؤهلاتهم ، فيدعنا نفهم أنهم فريق ممتاز ، قد يكونون هم الأنبياء والرسل ، وقد يكونون الطبقة السابقة المسارعة إلى الإيمان الكامل في كل رسالة ... وعلى أية حال فهم فرقة ممتازة في النعيم ، كما يعرض بعد ذلك في تفصيل . وهو هنا نعيم ماديّ حسي . فلعل هؤلاء هم (المحرومون) في الدنيا ، الذين صبروا على الشظف وسارعت نفوسهم إلى الإيمان ، واثقين في فضل الرحمن .. على أية حال فإن هنا صوراً مادية شاخصة للنعيم المادي المحسوس .

«على سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ» مشبكة بالمعادن الثمينة «مُتكِئِينَ عليها مُتَقَابلِينَ» في راحة وخلو بال واطمئنان «يَطُوفُ عليهم وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ» لا يفعل فيهم الزمن ولا تؤثر في شبابهم السن «بأَكْوَاب وَأَبَارِيقَ وَكأْسٍ مِنْ مَعِين» من خمر صافية سائغة «لاَ يُصدَّعون عنها ولا ينزِفون» لا هم يفرقون عنها ولا هي تنقطع أو تنفد «وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ؛ وحورٌ عِين[1] كأمثَال اللؤلؤ المكنون» واللؤلؤ المكنون هو اللؤلؤ المخبوء الذي لم يعرض بعد للأنظار ، ولم تخدشه عين ولم تثقبه يد . وفي هذا كناية عن معاني حسية ونفسية لطيفة في هؤلاء الحور العين . ذلك كله : «جزاء بما كانوا يَعْمَلُون» فهو استحقاق ومكافأة . وهم مع ذلك في هدوء وسكون بعيدون عن كل لغو في الحديث وكل جدل وكل مؤاخذة : «لا يسمعُون فيها لغْواً ولا تأثِيماً إلا قيلاً : سلاَماً سلاماً» .

---

(١) جمع عيناء : جميلة العين واسعتها .

فإذا انتهى الحديث عن ذلك الفريق ، بدأ يتحدث عن الفريق الثاني : عن أصحاب اليمين . ولنا بهم سابقة معرفة في المشاهد الماضية «وأَصْحَابُ اليمين . ما أصحابُ اليمين ؟» وهم أصحاب الميمنة ، ولهؤلاء نعيم مادي محسوس كذلك ، ولكنه نعيم فيه شيء من الخشونة والبداوة ، بالقياس إلى ذلك النعيم المترف الناعم الذي يرفل فيه السابقون المقربون . إنهم «في سِدْرٍ مَخضودٍ» والسدر شجر النبق ، ولكنه هنا مخضود لا شوك فيه «وطَلْحٍ منضودٍ» وهو من فصيلة الموز منضد ومنسق الثمار «وَظِلٍّ ممدُود ، ومَاءٍ مسْكُوبٍ» وتلك جميعاً من مراتع البدوي ومناعمه في الصحراء «وفَاكِهَةٍ كثيرةٍ ، لا مقطُوعَةٍ ولا ممنوعَةٍ» وهنا نلمح إطلاقاً في الفاكهة ، ولكن بعد ما عرفنا نماذج منها ، وأحسسنا جو الخشونة والبداوة فيها . «وفُرشٍ مرفوعة» لا موضونة ولا ناعمة ، ويحسبها أنها مرفوعة . وللرفع في النفس معنيان : مادي ومعنوي يستدعي أحدهما الآخر ، ويلتقيان عند الارتفاع في المكان والطهارة من الدنس ، فالمرفوع عن الأرض أبعد عن نجسها . ولهذا ينتقل السياق من الفرش المرفوعة إلى تخصيص من في «الفرش» من الأزواج لأصحاب اليمين : «إنَّا أنشأْنَاهُنَّ إنشاءً» ابتداء ، وهنّ الحور ، أو استئنافاً ، وهن الزوجات المبعوثات شابات «فَجَعَلْناهُنَّ أبكاراً» لم يُمسسْن «عُرُباً» متحببات إلى أزواجهن «أتْراباً» متوافيات السن والشباب ، «لأصحاب اليمين» مخصصات معينات لهم ، ليتسق ذلك مع «الفُرُشِ المرفوعة» . وأصحاب اليمين هم جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين .

وهنا نصل إلى أصحاب الشمال – ولنا بهم سابق معرفة كذلك – «وأَصْحَابُ الشِّمالِ . ما أَصْحَابُ الشِّمالِ ؟» لئن كان أصحابُ

اليمين « في ظِلٍّ ممدودٍ وماءٍ مسكوب » فانظر لترى أصحاب الشمال « في سَمُومٍ وحَمِيم » فالهواء شواظ ساخن ينفذ إلى المسامّ ويشويها ، والماء متناهٍ في الحرارة لا يُبرد ولا يُروي . وهناك ظل ، ولكنه « ظِلٌّ مِنْ يَحْمُوم » ظل الدخان اللافح الخانق . إنه ظل للتهكم والسخرية من نوع ذلك الظل ذي الثلاث الشعب الذي لا ظليل ولا يغني من اللهب ! وقد مر ذكره في « المرسلات » . أو هو هنا « لا بَاردٌ ولا كرِيمٌ » هو ظل ساخن ، وهو كذلك كَزٌّ بخيل ، لا يحسن استقبالهم ، ولا يهيئ لهم الراحة والاسترواح . هذا الشظف كله جزاء وفاق : « إنّهم كانُوا قَبْلَ ذلك مُتْرفِين » وما آلم الشظف للمترفين ! « وكانُوا يُصِرون على الحِنْث العظيم » وهو الشرك بالله ، وفيه حنث بالعهد الذي بين الله وعباده على الإيمان ، وهو عهد تؤكده فطرة الإنسان الداخلية ، كما تؤكده جميع المظاهر التي تحيط به ، فهو في مرتبة العهد المتفق عليه[1] « وكانُوا يقولون أئِذَا مِتْنَا وكنَّا تُراباً وعِظاماً أئِنَّا لمبْعُوثُون أوَ آباؤُنا الأوَّلون ؟ » ... كانوا . هكذا يعبر القرآن . كأنما نحن اليوم أمام المشهد الحاضر في الآخرة ، وكأنما الدنيا ماضٍ بعيد ، يذكره الذاكرون . وفي هذا استحضار للمشهد وإحياء عميق التأثير في النفوس[2] .

وهنا يلتفت إلى الدنيا في أنسب الأوقات للالتفات : « قل : إنَّ الأوَّلين والآخرين لمجموعُون إلى ميقات يوم معلوم » هو هذا اليوم المعروض !

---

(١) وبهذا أستريح لتفسير العهد المذكور في القرآن : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى » .

(٢) يراجع فصل « التصوير الفني » في كتاب « التصوير الفني في القرآن » .

ثم يأخذ في عرض ما ينتظر المكذّبين بهذا اليوم . فيتم صورة العذاب الذي يلاقيه المترفون : «ثمَّ إنكم أيُّها الضَّالون المكذّبون لآكلونَ من شجر من زقُّوم» ونحن لا ندري ما شجر الزقوم ، ولكن اللفظ نفسه يصور بجرسه ملمساً خشناً شائكاً مدبباً يمزق الأيدي – بله الحلوق – وذلك في مقابل السدر المخضود الذي لا شوك فيه – ومع هذا فإنهم لآكلون من هذه الشجرة الشائكة «فمالِئُون منها البُطون» فالجوع كافر والمحنة غالبة ! وإن الشوك الخشن لفي حاجة إلى ماء يسلك الحلوق والخشوم ، وإنهم لشاربون «فشاربون عليه من الحميم» الذي لا يبرد غلة ولا يروي ظمأ «فشاربون شُرْبَ الهيم» وهي الإبل المصابة بداء الاستسقاء التي لا تكاد ترتوي من الماء . «هذا نـزلهم يومَ الدين» والنزل للراحة والاستقرار ، ولكن هؤلاء «هذا نزلهم» الذي لا راحة فيه ، وهو شبيه بذلك الظل الذي لا ظل فيه !

وننظر فنرى ذلك التناسق في المشاهد بين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال وفي جزئيات تلك المشاهد أيضاً . فالعذاب متقابل مع النعيم في عمومه وتفصيلاته ولأن في النعيم ظلاًّ ممدوداً وماء مسكوباً وشجراً مخضوداً وفاكهة كثيرة ؛ كان في الجحيم سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم ، وكان فيه شجرة الزقوم ، تمتلئ منها البطون ... إلخ . فالمشهد مشهد طبيعة نباتية متسق هنا وهناك مع تقابل الجزئيات . وذلك فن في التصوير تحدثت عنه طويلاً في كتاب «التصوير» .

٢ – ثم يمضي السياق في السورة فيعرض بعض مشاهد القدرة الإلهية في الخلق والإنشاء ، في الأرض والسماء ، وفي النبات والحيوان ، وفي نفس الإنسان ، ليجعل من ذلك كله برهاناً على البعث والإحياء

ثم تنتهي السورة بعرض مشهد الاحتضار ، وهو منظر شديد التأثير في النفس والحس : « فلولا إذا بَلَغَتِ الحلقوم ، وأنتم حينئذٍ تنظُرون » ولا تملكون أن تردوا عليه هذه الروح المفارقة قبل أن تفارق وتنتهي « ونحنُ أقربُ إليه منكمُ ولكن لا تبصرون » وفي تصوير أن الله شاهد لهذا المشهد قريب من ذلك المحتضر ، ما يلقي الروع والرهبة والخشوع ــ والله شاهد قريب لكل شيء ولكل حدث ؛ ولكن التصوير هنا والتخييل يكاد يجعل هذه الحقيقة المعروفة جديدة مفاجئة مرهوبة – « فلولا إن كُنتم غير مَدِينين » إن كنتم طلقاء قادرين لا تدينكم قوة ولا يقدر عليكم ديّان ، « تَرجعُونها إن كُنتم صادقين » فأنتم إذن قادرون على رجع هذه الروح لو كنتم كما تزعمون ، وما أنتم بقادرين ! ... وفي ومضة ينتقل من مشهد الاحتضار إلى مشهد البعث فيلخص الموقف الذي فصله من قبل بين الفرق الثلاث :

« فأمَّا إن كانَ من المقرّبين ، فروْحٌ وريحانٌ وجَنةُ نَعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين ؛ فَسَلامٌ لك من أصحاب اليَمين . وأما إن كان من المكذّبين الضَّالين ، فنُزُلٌ من حَميمٍ وتَصْليَةُ جَحيم » وعندما ينتهي الاستعراض المجمل تكون النفس متهيئة للإيمان الوثيق : « إنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليَقِين . فَسبِّح باسمِ رَبِّكَ العَظِيم » .

سورة الشعراء[1]

﴿ وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ للمتَّقين ؛ وبُرِّزَت الجحيمُ للغاوين ! وقيلَ لهم :

---

(١) السورة (٤٧) مكية إلا خمس آيات .

أين ما كنتمْ تَعْبدونَ من دُون اللهِ ؟ هَلْ يَنصرُونكم أو يَنتصِرُون ؟ فكُبْكبُوا فيها هم والغَاوُون ، وجُنودُ إبليسَ أجمعُونَ . قالوا وَهمْ فيها يَختَصِمون : تاللهِ ! إنْ كنا لفِي ضَلالٍ مُبين إذ نُسَوِّيكم بِرَبِّ العَالَمين . وما أضلنا إلاَّ المجرِمُون ؛ فما لَنا منْ شافِعين ، ولاَ صَديقٍ حميم ؛ فلوْ أنَّ لنا كرَّةً فنكون من المؤمِنين ﴾ !

* * *

يأتي هذا المشهد في سياق السورة تعقيباً على قصة إبراهيم ، والحوار الذي دار بينه وبين أبيه ، وقومه حول ما يعبدون هم وآباؤهم الأولون ، ذلك الحوار الذي ينتهي باعتزال إبراهيم لأبيه ، ودعائه له بالهداية ، ودعائه لنفسه بأن يجعله الله من ورثة جنة النعيم ، وألا يخزيه في يوم الدين : « يوم لا ينفَعُ مالٌ ولا بنون إلاَّ مَنْ أتى الله بقلبٍ سليم » .

ومن هنا ينتقل فجأة من دعاء إبراهيم إلى تصوير ذلك اليوم الذي يتقيه إبراهيم فكأنما هو حاضر ينظر إليه ويراه ساعة الدعاء :

لقد قربت الجنة وأعدت للمتقين ، ولقد كشِّفت الجحيم للغاوين ؛ وإنهم لعلى مشهد منها يقفون ، حيث يسمعون التقريع قبل أن « يكبكبوا » فيها أجمعين . إنهم يُسْألون عما كانوا يعبدون من دون الله — وذلك تساوق مع قصة إبراهيم وقومه وما فيها من حوار — ما لهم لا ينصرون أنفسهم ولا ينصرون أتباعهم ، ثم لم يُسمع منهم جواب ولم ينتظر منهم جواب ، وإنما كان السؤال لمجرد التقريع والتأنيب « فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون » ... كبكبوا وإنك لتسمع من جرس اللفظ صوت دفعهم وسقوطهم بلا انتظام ، وصوت الدبدبة الناشئ

من الكبكبة كما ينهار الجرف فتتبعه الجروف ، فهو لفظ مصور بجرسه لمعناه . وإنهم لغاوون وقد كبكب معهم جميع الغاوين ، هم وجنود إبليس أجمعون . والجميع جنود إبليس ، فهو تعميم شامل بعد تخصيص .

فلنستمع الآن إليهم في الجحيم ! إنهم يقولون لآلهتهم – فالجميع كما يبدو هناك – : « تالله إن كُنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين » الآن بعد فوات الأوان ! وهم يلقون التبعة على المجرمين منهم ، ثم يفيقون فيعلمون أن الأوان قد فات ، وأن لا فائدة في توزيع التبعات : « فما لنا من شافعين ولا صديق حميم » فلا آلهة تشفع ، ولا أصدقاء تنفع . وإذا لم تكن شفاعة فيما مضى أفلا رجعة إلى الدنيا لنصلح ما فاتنا فيها « فلو أن لنا كَرَّةً فنكون من المؤمنين ؟ » . كلاَّ ! لا رجعة ولا شفاعة ، فهذا يوم الدين .

« إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين » في هذا الاستعراض آية . وهو نفس التعبير الذي اتخذ للتعقيب في السورة على مصارع عاد وثمود وقوم لوط ... فكأن هذا الاستعراض واقع كهذه المصارع وهو آية وعلامة ، وفي كل مصرع آية وعلامة .

وبذلك يجمع السياق بين مشاهد العالم الحاضر ومشاهد العالم الآخر ، وكأنما هما من نوع واحد ، وفي وقت كذلك واحد !

سورة النمل [1]

﴿ وإذا وقع القولُ عليهم أخرجنَا لهم دابةً من الأرضِ تُكلمهم ،

---

(١) السورة (٤٨) مكية .

أنّ النَاسَ كانوا بآياتنا لا يُوقنون . ويومَ نحشر من كلٍّ أمة فوْجاً ممن يكذّب بآياتنا فهم يوزَعون ، حتى إذا جاءُوا قال : أكذّبتم بآياتي ولمْ تُحيطُوا بها علماً ؟ أم مَاذَا كنتم تعمَلون ؟ ووقعَ القَولُ عليهم بما ظلموا فهم لا ينْطقُون ﴾ .

﴿ ألمْ يَرَوْا أنّا جعَلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً ؟ إن في ذَلك لآيات لقوم يؤمِنُون ﴾ .

﴿ ويومَ يُنفَخُ في الصُّور ففزِع من في السّموٰاتِ ومَنْ في الأرضِ ، إلاّ مَنْ شَاء الله ، وكلٌّ أتوهُ داخرين ﴾ .

﴿ وترَى الجبَالَ تَحسبُها جامدةً وهي تمرُّ مرَّ السّحاب ، صُنعَ الله الذي أتـْقن كلَّ شيءٍ ، إنه خبيرٌ بما تفعلون ﴾ .

﴿ منْ جاء بالحسنة فله خير منها وهمْ مِنْ فزع يومئذ آمنون . وَمنْ جاء بالسيئةِ فكُبَّتْ وجوههم في النَّار . هل تجزَون إلاَّ ما كنتم تعملون ؟ ﴾ .

* * *

لست ميالاً إلى الخوض في حديث هذه «الدابة» المذكورة في تلك الآيات اسمها الجسّاسة أو اسمها شيء آخر ، طولها ستون ذراعاً أم ستمائة ، ذات زغب وريش وأربع قوائم وجناحين أم ذات أربعين قائمة وأربعمائة ذراع ... إلى آخر ما تنساق بعض التفاسير القرآنية وراء الأساطير الإسرائيلية وغير الإسرائيلية ... إنما ذلك كله غيب لا يجدي

في نظري أن نحاول له وصفاً منظوراً ...

إنما الذي يعنيني هنا من ناحية «التصوير» أن ذكر هذه الدابة التي تكلم الناس «إذا وقعَ القول عليهم» يجيء في سورة النمل ، تلك السورة التي تحوي قصة النملة مع سليمان : «حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يَحْطِمنَّكم سُليمانُ وجنودُه وهم لا يَشْعرون ، فتبسم ضاحكاً مِن قولها ...» فلقد أدَرك إذن سليمان قصدها ، وإن كنا لا ندري كيف أدرك ، وعلى أية صورة عُلِّم منطق الحشرات ... وهي السورة التي ترد فيها بعد ذلك قصة الهدهد مع سليمان : «وتفقَّدَ الطيرَ ، فقال : ماليَ لا أرى الهدهدَ ؟ أم كانَ منَ الغائبين ؟ لأعَذِّبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين . فمكث غير بعيد ، فقال : أحَطْتُ بما لم تُحِط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين» ... «قال : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ...» فقد فهم سليمان إذن عن الهدهد ، وإن كنا لا ندري كيف فهم ، وعلى أية صورة علّم منطق الطير ... وهي السورة التي ترد فيها بعد ذلك قصة العفريت مع سليمان في سياق قصة بلقيس : «قال : يا أيها الملأُ أيُّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ؟ قال عِفريتٌ من الجنَ : أنا آتيك به قبلَ أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين» فلقد عرف سليمان إذن ما يعرضه العفريت ، وإن كنا لا ندري كيف عرف وعلى أية صورة عُلم منطق العفاريت ...

والمهم أن السياق كله في السورة سياق حوار وأحاديث بين طائفة من الحشرات والطير والجن مع أحد من الناس . إن يكن نبياً وتلك آيته فهو على كل حال إنسان . فجاء ذكر «الدابة» وأنها آية اليوم الآخر متناسقاً مع سياق السورة وجو الحوار فيها ، محققاً لتناسق التصوير في

القرآن ، وتوحيد الجزئيات التي يتألف منها المشهد العام .

ثم يمضي السياق في الاستعراض المعهود ، فيخصص به هنا جماعة المكذبين من كل أمة «ويومَ نحشرُ من كلٍّ أمةٍ فوجاً ممن يكذّب بآياتنا فهمْ يُوزَعُون» والناس جميعاً يحشرون ، ولكن كأنما أراد هنا أن يبرز للمكذبين حشراً خاصاً فهم يحشرون كقطيع الحيوان «يُوزَعُون» يساقون ليجمع أولهم على آخرهم (وهو مشهد مألوف في سَوْق القطيع وتجميعه ، حيث لا إرادة له ولا فهم ولا اتجاه) «حتى إذا جاءوا قال : أكذَّبتم بآياتي ولم تُحيطوا بها علماً ؟» وهو سؤال للتخجيل والتسجيل «أم ماذا كنتم تعملون ؟» وهو سؤال آخر تهكمي عجيب ، له نظائر في لغة التخاطب العادية ! أكذبتم أم كنتم تعملون ماذا ؟ فما لكم عمل ظاهر مذكور يقال إنكم قضيتم الحياة فيه ! ولن يكون لمثل هذا السؤال جواب إلا الصمت ، كأنما وقع على المسؤول ما يلجم لسانه ويكبت جنانه «ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون» بل يظلون شاخصين مخجولين ! لا ينطقون وهم ذوو اللسان الناطق ، في حين تنطق تلك الدابة وهي من جنس العجماوات ! وذلك من ألوان التناسق في الاستعراض !

ونسق العرض في هذه السورة ذو طابع خاص – وله نظائر في القرآن – وذلك هو المزاوجة بين مناظر الدنيا ومناظر الآخرة في سياق ، والانتقال من هذه إلى تلك في اللحظة المناسبة للتأثر والاعتبار .

وهو هنا ينتقل بنا من مشهد المكذبين المبهوتين في يوم القيامة إلى مشهد من مشاهد الدنيا كان خليقاً أن يوقظ وجدانهم ، ويلقي في روعهم أن هناك إلهاً يرعاهم ويهيئ لهم وسائل الحياة ، ويخلق لهم الكون مناسباً لحياتهم لا مقاوماً لها ، ولا حرباً عليها : «ألم يَرَوْا أنَّا

جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً ؟ إنَّ في ذلك لآيات لقومٍ يؤمنون » ومشهد الليل الساكن ومشهد النار المبصر خليقان أن يوقظا في الحس وجداناً دينياً يجنح إلى الاتصال بالله الذي يقلب الليل والنهار ، وفيهما آيات لمن استعدت نفسه للإيمان . ولكنهم لا يؤمنون .

ثم ينتقل بنا من ساحة الدنيا ومشاهد الكون إلى الساحة الأخرى :
« ويومَ ينفخ في الصُّور ففزع من في السموٰات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، وكلٌّ أَتَوْهُ داخرينَ » أذِلاَّءَ مسْتَسْلمين .

ثم يعود فينتقل بنا إلى مشاهد الدنيا ، فها هي ذي الجبال الراسخة ، يحسبها الرائي ثابتة « وهي تمر مَرَّ السحاب » « صُنْعَ الله الذى اتقن كل شيء » وهو صنع متقن عجيب ، يدل على خبرة وبصر لا يحدان « إنه خبير بما تفعلون » وسيجازي إذن على الحسنة والسيئة جزاء العليم الخبير : « من جاء بالحسنة فله خير منها وهم مِنْ فزع يومئذ آمنون » فلقد شهدنا الجميع مفزوعين ، فمن جاء بالحسنة فهو آمن من هذا الفزع ، وهذا الأمن نفسه جزاء ، فالهول مما يعد الأمن فيه هو الجزاء ! « ومَنْ جاءَ بالسَّيئة فكُبَّتْ وجُوهُهمْ في النار » هكذا « كُبتْ » بالعنف والتشديد ، والجرس المصور للحركة الموحى بالفزع « هل تجْزَوْن إلا ما كنتم تعملون ؟ » .

سورة القصص (١)

١ — ﴿ وَجَعلناهم أئمة يَدْعُونَ إلى النَّارِ ، وَيَوْمَ القيامةِ لا يُنصرُون .

---

(١) السورة (٤٩) مكية إلا خمس آيات .

وأتبعناهم في هذه الدنيا لَعْنةً ، ويَوْم القيامَةِ منَ المقبوحين ﴾ .

٢ - وَيَومَ يُناديهمْ فَيقُولُ : أين شُركائيِ الذينَ كنتم تَزعُمُون ؟ قال الذين حَقَّ عليهم القولُ : ربنا هؤلاءِ الذينَ أغويْنا ، أغويناهم كما غَوَينا ، تَبرَّأنا إليكَ ، ما كانوا إيَّانا يَعْبدون ! وَقيلَ : ادْعُوا شُركاءكم فَدَعَوْهم فلم يَسْتَجيبُوا لهم ، وَرَأَوُا العَذابَ ، لوْ أنَّهم كانوا يَهتدُون ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ يُناديهم فيقُول : ماذا أجَبْتُمُ المرسَلين ؟ فعَمِيَتْ عليهم الأنباءُ يومَئذٍ فهم لا يَتَساءَلونَ ﴾ .

٣ - ... ﴿ وَيومَ يناديهم فيقُول : أينَ شُركائيَ الذين كنتم تَزْعُمون ؟ ونَزَعنا منْ كلِّ أُمَّةٍ شهيداً ، فقُلنا : هاتُوا برْهانكم . فعلمُوا أن الحقَّ لِلهِ ، وَضَلَّ عنهم ما كانوا يفترُونَ ﴾ .

٤ - ... ﴿ تلك الدارُ الآخِرةُ نجعلُها للذين لا يُريدونَ عُلُوّاً في الأرض ولا فَسَاداً ، والعاقِبةُ للمتَّقين ﴾ .

◦ ◦ ◦

تجيء هذه المشاهد الأربعة متناثرة في سياق السورة ، ولكنها في مواضعها تتسق مع الموضوع المعروض ، وكأنما هي تعقيب عليه يجمع بين الواقع في الدنيا والنهاية المنظورة له في الآخرة .

١ - فالمشهد الأول يجيء تعقيباً على قصة فرعون وكبراء قومه فهم كانوا في الدنيا أئمَّةً قومهم في الضلال ، فلقد صورهم هنا « أئمةً يَدعون إلى النَّار » وهي إمامة غريبة ودعوة عجيبة ، ترسم صورة

في الخيال لأغرب الدعوات ، حين يقول الإمام لتابعيه : هيّا بنا إلى النار ! ! «ويوم القيامة لا يُنصرون» فهم عجزة محتاجون إلى النصر ، ثم هم لا ينالون هذا النصر من أحد . وذلك في مقابل مشهد القوة التي يتعالون بها في الدنيا ، وقد عرض في السورة قبل عرض هذا المشهد . وهم في هذه الدنيا متبوعون باللعنة «وَيوْمَ القيامة همْ مِن المقبوحين» . وهو تعبير مصور لأشد حالات التقبيح !

٢ – والمشهد الثاني يجيء تعقيباً على قول كفار مكة : «إن نتَّبع الْهُدَى معك نُتَخَطَّفْ من أرضنا» فالمال والمتاع إذن هما اللذان يمسكانهم على الشرك ، لا الاقتناع بأنهم علي الحق ، وقد جاء التعقيب : «وما أُوتيتم من شيء فمتاعُ الحياة الدنيا وزينتُها ، وما عِند اللهِ خيرٌ وأبقى ، أفلا تعقلون ؟» ثم تصوير لموقفهم يوم يُحضرون أمام الله ، فيسألهم ذلك السؤال المحير المخزي : «أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟» . وهنا تعرض صورتهم ، يتنصل المتبوعون من التابعين ويتبَّرأون إلى الله من تبعة إغواء الغاوين : «قال الذين حَقَّ عليهم القولُ» واستحقوا بأعمالهم العذاب : «ربَّنا هؤلاء الذين أغوينا ، أغويْناهُم كما غوَيْنا» فنحن لم نصنع معهم شيئاً ، فقد غوينا نحن وضللنا فاتبعونا هُم في ضلالنا وغينا ، فإن كان لنا عمل في إغوائهم ، فهو أننا قد غوينا أمامهم ! ثم هم لم يعبدونا نحن فلسنا مسؤولين عما عبدوه !

وكأنما كان هذا كله لغواً ، لا إجابة على السؤال : «أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟» فهو يدع هذا كله ، ليردهم إلى مواجهة الموضوع الأصيل «وقيل : ادْعوا شُركاءكم» فها هم أولاء يدعونهم وإنهم ليعلمون أنهم لا يجيبون ، ولكنهم مذهولون «فَدَعَوْهم فلم

يستجيبوا لهم » وإذا بهم يواجهون العذاب كأنما هو إجابة الدعاء ! « ورأَوُا العذابَ » !

وفي هذه اللحظة الحرجة الحاسمة يلفت أنظارهم في الدنيا إلى الهدى الذي يَقيهم هذا الموقف الأليم « لو أنهم كانوا يهتدونَ » لو ! ولكنهم في غيهم يعمهون ! .

ثم يعود بعد هذه اللفتة إلى الموقف الذي تركناه هناك ؛ فها هو ذا نداء آخر وسؤال آخر : « ويومَ يناديهم فيقول : ماذا أجبتم المرسلين ؟ » وإنه ليعلم ماذا أجابوا ، وإنهم ليعلمون ، ولكنهم مذهولون « فعميتْ عليهم الأنباء يومئذ » وندَّت عنهم الإجابات ، ووقفوا صامتين ذاهلين « فهم لا يتساءلون » « فأمَّا منْ تابَ وآمنَ وعملَ صالحاً فعسى أن يكونَ مِنَ المفلحين » ، وهذا توجيه للتوبة والإيمان في اللحظة التي يعرض فيها مشهد الضالين المكذبين !

٣ – ثم يستمر السياق فيعرض مشاهد مؤثرة من هذه الدنيا ، في الكون وفي أنفسهم ، تدل على أن الله وحدَه هو الذي يصرف الكون والناس . ثم يعقب على هذا بالمشهد الثالث وهو متفق مع المشهد الثاني في جزء منه ، ثم يختلف عنه في سائره . فالنداء هنا هو النداء هناك : « أين شركائي الذين كنتم تزعمون ! » ولكنهم لا يتركون هنا للجواب . إنما يستدعى رسول كل أمة ليشهد عليها « ونزعنا من كل أمة شهيداً ، فقلنا هاتوا برهانكم » ولا برهان هناك بطبيعة الحال ، إنما هو الإحراج والإذلال « فعلموا أن الحق لله » ولكن بعد فوات الأوان « وضل عنهم ما كانوا يفترون » فما تجمع بينه وبينهم جامعة ، وإنه لافتراء يذوب أمام الحق ، ويغيب عنهم كأن لم يكن له وجود .

٤ – ثم يجيء المشهد الرابع تعقيباً على قصة « قارون » ذلك الذي

أُعطي من كنوز الأرض ومن متاع الحياة ، ما جعل أبصار قومه تتطلع إلى متاع كمتاعه وإلى دار كداره ، ثم خسف به وبداره الأرض ، ليعلم الذين تمنوا مكانه بالأمس أنهم كانوا مخطئين فيما يتمنون . ولأن في القصة داراً فخمة كان في الصورة دار «تلك الدَّارُ الآخرةُ نجعلها للذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين» وهو اتساق في التعبير وفي التصوير ، على النسق المعهود في صور القرآن .

سورة الإسراء [1]

١ - ﴿ وَجعَلنا جَهَنَّمَ للكافِرين حَصِيراً ﴾ .

٢ - ﴿ وكلَّ إنسانٍ ألزَمْناهُ طائِرَهُ في عُنُقِه ، ونُخْرِجُ له يومَ القيامَة كِتاباً يَلقاهُ منشُوراً . اقرأ كتَابكَ ، كفى بِنفْسِكَ اليَومَ عليكَ حَسِيباً ﴾ .

٣ - ﴿ يومَ يدعُوكم فتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِه ، وتَظُنونَ إنْ لَبِثتمْ إلاَّ قليلاً ﴾ .

٤ - ﴿ يومَ نَدْعو كلَّ أُناسٍ بإمامِهم ؛ فمَنْ أُوتيَ كتابَهُ بيَمينِه فأولئِكَ يَقرأُونَ كتابَهم ولا يُظلمُون فَتيلاً ؛ ومَنْ كانَ في هذه أعمَى فهو في الآخرةِ أعمَى وأضلُّ سَبيلاً ﴾ .

---

(١) السورة (٥٠) مكية إلا إحدى عشرة آية متفرقة .

٥ – وَنحشُرُهم يومَ القيامةِ على وجُوهِهم عُمياً وبُكماً وصُماً . مَأواهم جَهنَّمُ ، كلما خَبَتْ زِدناهم سَعِيراً ﴾ .

* * *

المشاهد في هذه السورة صغيرة قصيرة . ولكنها تعرض نماذج من الصور جديدة . فالصورة الأولى تعرض جهنم حصيراً للكافرين تحصرهم وتجمعهم وتضمهم من أطرافهم وتَسَعُهم جميعاً !

والصورة الثانية تعرض سجل الأعمال في كتاب منشور يرف في عنق صاحبه رفيف الطائر . حيث يكلف كل إنسان قراءة كتابه ، فيكون هو على نفسه شهيداً .

والصورة الثالثة تعرض مشهد دعوة المبعوثين ومشهد استجابتهم . وهو مشهد معهود في القرآن ، ولكن الجديد هنا أنهم يدعون فتكون استجابتهم هي الحمد لله . وفي هذا مفارقة وسخرية ، بمن كانوا لا يحمدون الله في الدنيا ، وأول ما تفتر عنه أفواههم يوم البعث هو التسبيح بحمده ! وصورتهم مبعوثين يسبحون تحمل الروعة كما تحمل السخرية ! وهم يحسبون أنهم لم يلبثوا إلا قليلاً .

والصورة الرابعة تعرض مشهداً جديداً للدعوة ، فكل طائفة ستدعى باسم إمامها في الآخرة . فمن أوتي كتابه بيمينه فسيقرأ هذا الكتاب . ومن أوتي كتابه بشماله فهو أعمى كما كان في الدنيا أعمى ، هو ضال في الآخرة ، كما كان ضالاً في الدنيا . والعمى يذكر هنا في مقابل القراءة وهي تستلزم البصر ، وهي هداية في مقابل الضلال أيضاً .

والصورة الخامسة تعرضهم محشورين على وجوههم يوم القيامة وقد سبقت صورة الحشر على الوجوه - ولكنهم في هذه المرة ليسوا عمياناً فحسب كما شهدناهم فيما مضى ، إنما هم كذلك بكم وصم . زيادة في قسوة الحشر والسحب في النار . فالمسحوب أعمى أبكم أصم يلقى من الاصطدامات والآلام حين يسحب أضعاف ما يلقاه المبصر المتكلم السامع . وجهنم هنا دائمة التسعر « كلما خَبَتْ زِدْناهم سعيراً » .

الصور هنا لمحات خاطفة وفيها - مع ذلك - تجديد وتنوع لا يجعلنا نغفلها .

سورة يونس[1]

١ - إنَّ الذينَ آمنُوا وعملوا الصَّالحاتِ يَهديهم ربُّهم بإيمانِهم . تَجري منْ تحتِهم الأنهار في جنَّاتِ النعيم . دَعْواهم فيها : سُبحانَكَ اللهُمَّ ، وتحيَّتُهم فيها سلامٌ ، وآخِرُ دعواهم : أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العَالمين ﴾ .

٢ - ﴿ للذينَ أحسَنُوا الحُسْنى وزيادة ، ولا يَرْهقُ وجوهَهم قترٌ ولا ذِلّةٌ ، أولئك أصحابُ الجنة هم فيها خالدُون . والذين كَسَبُوا السَّيئات جزاءُ سيئةٍ بمثلها ، وتَرْهَقُهم ذِلّةٌ ، ما لَهم منَ اللهِ من عاصم ، كأنَّما أُغشِيتْ وجوهُهم قِطَعاً منَ الليلِ مُظلِماً ، أولئك أصحَابُ النَّار هم فيها خالدون ﴾ .

---

(١) السورة (٥١) مكية إلا أربع آيات .

٣ – ﴿ ويومَ نَحشُرُهم جميعاً ، ثم نقولُ للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤُكم ، فَزيَّلْنا بينهم ، وقال شركاؤهم : ما كنتم إيَّانا تعبُدُون . فكَفَى باللهِ شَهيداً بيننا وبينكم ، إن كنَّا عنْ عِبادتِكم لغافِلين ! هنالك تَبلو كلُّ نفسٍ ما أسلفَتْ ، ورُدُّوا إلى الله مولاهمُ الحقِّ ، وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

٤ – ﴿ ويومَ يَحشُرهم كأنْ لم يلبثُوا إلاَّ ساعةً من النَّهار ، يتعارَفون بينهم ، قدْ خَسرَ الذين كذَّبوا بلقاءِ اللهِ وما كانُوا مُهتَدِين ﴾ .

٥ – ﴿ وأسَرُّوا الندامَةَ لَمَّا رأَوُا العَذاب ، وقُضِيَ بينهم بالقِسْطِ وهم لا يُظلمون ﴾ .

١ – هي صورة فريدة ... هنا في الجنة قوم « دعواهم فيها سبحانك اللهم » كأن هذه هي قضيتهم الوحيدة التي تشغلهم ، أو دعوتهم المفردة التي لا يعرفون سواها و« تحيتهم فيها سلام » فكل ما فيها أمن واطمئنان وسلام . « وآخِرُ دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » وهكذا ينطوي الوجود كله لديهم على تسبيح الله وتمجيده وشكره وحمده ، لا تتخلل التسبيح والحمد إلا تحيات طيبات وسلام .

٢ – أما المشهد الثاني فمشهد الكافرين ترهقهم قترة ، ويرين على وجوههم كدر وظلمة ، ومشهد المؤمنين لا ترهقهم قترة ، إنما يعلو وجوههم البشر والرضى ... هذا المشهد قد سبق في (عبس) وفي (القيامة) ولكنه يعرض هنا بزيادة تكسبه الجدّة وتطبعه بطابع التنوع . فوجوه « الذين كسبوا السيئات » كأنما أغشيت قطعاً من الليل المظلم ،

وهكذا يستحيل الليل جسماً محسوساً ، يمزق قطعاً ، ثم تغشى الوجوه بهذه القطع ، فيكون مشهدها فريداً ! « أولئك أصحابُ النَّار هم فيها خالدون » .

٣ – ومشهد الحشر مع الشركاء كذلك معهود ، ولكنه هنا كالجديد ؛ فالنداء يوجه إلى هؤلاء وهؤلاء : « مكانَكم أنتم وشركاؤكم » قفوا بلا حراك ، فيقفون ، وتهدأ الحركة وتصمت الأصوات . ثم تقع حركة جديدة ، فيفصل بين هؤلاء وهؤلاء ، فإذا الشركاء مفرقون متحاجزون ! وهنا تبدأ ظاهرة التبرؤ « وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون » ! و بمن يستشهدون ؟ إنهم يستشهدون بالله ! « فكفى بالله شهيداً بيننا و بينكم » فوالله لقد كنا غافلين عن عبادتكم لنا ، لم نشعر بها ، ولم نولها اهتماماً ، فلسنا إذن عنها بمسؤولين ! ... وهو مشهد ساخر وفي الوقت ذاته أليم « ورُدُّوا إلى الله مولاهم الحق » وتبين أن كل ما أشركوا به ضلال ، وغاب عنهم ما كانوا يفترون .

٤ – ومشهد الحشر الذي يظن المحشورون فيه أنهم لم يلبثوا في قبورهم إلا قليلاً ، قد سبق ، ولكن يزيد عليه هنا أنهم يبدأون يتعارفون بعد قيامهم ، وإن هي إلا فترة قصيرة ريثما يسمعون الصيحة الثانية ، كما ورد في سورة أخرى .

٥ – أما المشهد الخامس فهو مشهد قصير ، ولكن ترسم فيه صورة كامدة حزينة ، تتم في داخل النفس ، وتلقي ظلها على الوجوه : « وأَسرُّوا الندامة لما رأَوا العذاب » التعبير القصير يرسم صورة لمن يواجه العذاب على حين غرة ، فيسقط في يده ، ويدرك ألا مفر ولا جدوى من المقاومة ، فيستشعر في نفسه الندم ، ويسر في ضميره ما يستشعر ، ثم يقف التعبير هنا فلا يزيد سمة أخرى ، تاركاً للخيال تصور الظلال التي

تبدو في الوجوه ، وهي ظلال كامدة كئيبة لا يكاد يتنفس عنها التعبير .

وبهذا تأخذ تلك الصورة مكانها في التصوير ، وبذلك التعبير القصير .

سورة هود [1]

١ - ﴿ ومَنْ أظلمُ ممن افترى على الله كذِباً ؟ أولئكَ يُعرضُون على رَبِّهم ويقولُ الأشهادُ : هؤلاءِ الذين كَذَبوا على رَبِّهم ، ألاَ لعنةُ الله على الظالمين ﴾ .

٢ - ﴿ ولقَدْ أرسلنا موسى بآياتِنا وسُلطانٍ مُبين ، إلى فرعونَ وملئِه ، فاتَّبعُوا أمْرَ فرعونَ . وما أمرُ فرعونَ برشيد . يقْدُمُ قومَهُ يومَ القيامة فأوْرَدَهم النارَ . وبئسَ الوِرْدُ المورُود . واُتْبِعوا في هذه لعنةً ويومَ القيامةِ ، بِئسَ الرِّفْدُ المرفود ﴾ .

٣ - ﴿ وكذلكَ أَخْذُ ربِّكَ إذا أخذَ القُرى وهي ظالمةٌ ، إنّ أخذه أليمٌ شديدٌ . إنَّ في ذلك لآيةً لمن خافَ عذابَ الآخرةِ . ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ وذلك يومٌ مشهودٌ . وما نُؤَخره إلا لأجلٍ معدودٍ . يومَ يأتِ لا تكلَّمُ نفسٌ إلا بإذنهِ ، فمنهم شقيٌّ وسعيدٌ . فأما الذينَ شقُوا ففي النَّار لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ ، خالدينَ فيها ما دامَتِ السمٰوات

---

(١) السورة (٥٢) مكية إلا ثلاث آيات متفرقات .

والأرضُ . إلا ما شاء ربُك . إنَ ربَك فعَّالٌ لما يريدُ . وأمّا الذينَ سُعِدُوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرضُ ، إلاّ ما شاء ربك ، عطاءً غيرَ مجذوذٍ ﴾ .

* * *

١ – يبرز في المشهد الأول عنصر التشهير والتخجيل . فهؤلاء جماعة كذَبوا على الله في الدنيا ، فهم يعرضون على ربهم في الآخرة ، وينبري الشهود أمام الجموع فيقولون : « هؤلاء الذين كذَبوا على ربِّهم » . هكذا بالإشارة والتخصيص .

ثم لقد كان الكذب على من ؟ على ربهم ! لا على أحد آخر . وهذه أشنع « ألا لَعْنَةُ الله على الظالمين » وتلك زيادة في التشهير بإعلان ظلمهم للحق بهذا الكذب اللعين !

٢ – أما المشهد الثاني فيجمع في لمحة بين الدنيا والآخرة ؛ وكأنما هي خطوة يخطوها الناس من الدنيا فإذا بهم في الأخرى . هذا فرعون يكذّب ، فيتبعه قومه في الدنيا ، ثم ها هو ذا يقدم قومه يوم القيامة كذلك « فأوْردهم النارَ » أوردهم إياها فعلاً في مثل لمح البصر « وبئس الوِرْد المورُود » ! وهكذا تتسق الصورة : يؤمهم في الدنيا إلى الضلال . ويؤمهم في الآخرة إلى النار .

٣ – ويجيء المشهد الثالث تعقيباً على أخذ ربك للقرى وهي ظالمة في الدنيا أخذاً أليماً شديداً ، بعدما عرض مصارع قوم نوح وقوم لوط وقوم هود وقوم صالح وقوم فرعون . « إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة » ففي ذلك الأخذ مشابه من عذاب الآخرة ... ثم أخذ

في وصف ذلك اليوم : « ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود » وهنا ترتسم صورة التجميع يشمل الناس جميعاً ، وهم يشهدون هذا اليوم وينتظرون ما فيه : « يومَ يأتِ لا تكلمُ نفس إلا بإذنه » فالصمت الهائل يغشى الجميع ، ثم تكون عملية الفرز والتفريق .

ونحن نشهد « الذين شقوا » نشهدهم في النار مكروبي الأنفاس « لهم فيها زفير وشهيق » من الحر والكتمة والضيق . ونشهد « الذين سُعدوا » في الجنة لهم فيها عطاء دائم غير مقطوع ... وهؤلاء وأولئك خالدون ما دامت السموات والأرض ، وهو تعبير يلقى في الذهن صفة الخلود ، وإن لم تكن السموات والأرض خالدة . وللتعبيرات ظلال معينة ، ولهذا التعبير ظل الخلود ، وهو المقصود .

سورة الحجر (١)

﴿ إنَّ عِبَادي ليسَ لَكَ عليهمْ سُلطانٌ إلاَّ مَن اتَّبعك من الغاوينَ ، وإن جهنَّمَ لَموعِدُهُم أجمعينَ ، لها سبعةُ أبوابٍ لكلِّ بابٍ منهمْ جزءٌ مَقْسومٌ ﴾ .

﴿ إنَّ المتَّقينَ في جنَّاتٍ وعُيونٍ . أُدخلوها بسلامٍ آمنينَ ، ونَزَعْنَا ما في صُدورِهمْ مِنْ غِلٍّ إخْواناً على سُرُرٍ مُتَقابِلينَ ، لا يَمَسُّهمْ فيها نَصَبٌ وما هم منها بِمُخْرَجينَ ﴾ .

* * *

(١) السورة ٥٤ مكية إلا آية . سبقتها سورة يوسف وليس فيها مشاهد ، وإن كان فيها ذكر للدار الآخرة سريع .

يجيء هذا المشهد تعقيباً على قصة آدم مع إبليس . والخطاب هنا لإبليس . والجديد في المشهد أن لجهنم سبعة أبواب – فهي تذكر هنا للمرة الأولى – أما مشهد الجنة فالجديد فيه هو النص على أنهم «لا يَمَسُّهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين» فلن يملك الشيطان مرة أخرى أن يخرجهم منها ، أو أن يردهم إلى النصب الذي لاقوه في المرة الأولى .

سورة الأنعام [1]

١ – ﴿ قُلْ : إنِّي أَخافُ إنْ عصَيتُ ربي عَذابَ يوم عَظيم ، مَنْ يُصْرفْ عنه يومَئذٍ فقدْ رحِمَه ، وذلِكَ هُو الفوزُ المبين ﴾ .

٢ – ﴿ ويَومَ نحشرهُم جميعاً ، ثم نقُول للّذِين أشركوا : أينَ شركاؤُكم الذين كنتم تَزعمون ! ثم لَمْ تكن فِتنَتُهم إلاَّ أنْ قالوا : واللهِ ربِّنا ما كنَّا مشرِكينَ . انظرْ كيف كذَبوا على أنْفُسهم ، وضَلَّ عنهم ما كانُوا يفترون ﴾ !

٣ – ﴿ ولو تَرى إذ وُقِفوا على النَّار فقالوا : يا لَيتنا نُردُّ ، ولا نكذِّبَ بآياتِ ربِّنا ، ونكونَ منَ المؤمِنينَ . بلْ بَدَا لهم ما كانوا يُخفُون من قبلُ ، ولوْ رُدُّوا لعَادوا لِمَا نُهُوا عنْه ، وإنهم لكاذبون ؛ وقالوا : إنْ هِيَ إلا حَياتُنَا الدُنيا ومَا نحن بِمبعُوثين ﴾ .

---

(١) السورة (٥٥) مكية إلا تسع آيات متفرقات .

٤ – ولَوْ تَرى إذْ وُقفوا على ربِّهم ، قال : أليس هذا بالحقِّ ؟ قالوا : بَلَى وربِّنا ! قال : فَذُوقُوا العَذابَ بما كنتم تكفُرون . قَدْ خَسِرَ الذين كذَّبوا بلقاءِ اللهِ ، حتى إذا جاءَتهم الساعةُ بغتةً قالوا : يا حَسْرتَنا على ما فرَّطنا فِيها . وهُم يَحملون أوزارهم على ظهورِهم . ألاَ ساءَ ما يَزِرُون ! ﴾ .

٥ – ﴿ ويومَ يَحشُرهم جَميعاً . يا معشَرَ الجنِّ قدِ اسْتكثرتُم مِنَ الإنس . وقال أولياؤُهُم مِنَ الإنْسِ : ربَّنا اسْتمتَع بعضُنا ببعضٍ ، وبَلغْنا أجَلنَا الذي أجّلتَ لَنا . قالَ : النارُ مثواكم خالدين فيها إلاَّ ما شَاء الله . إن ربَّكَ حَكيمٌ عليم . وكذلك نُوَلِّي بعضَ الظالمين بَعضاً بما كانوا يكْسِبُون . يا مَعشَرَ الجنِّ والإنسِ ألَمْ يأتكم رُسُل منكم ، يَقُصُّون عليكم آياتي ، ويُنذِرُونكم لِقاءَ يومِكم هذا ؟ قالوا : شَهِدْنا على أنفُسِنَا . وَغَرَّتهُمُ الحياةُ الدُّنيا ، وشَهِدُوا على أنفُسِهم أنَّهم كانوا كافرينَ ﴾ .

* * *

تشتمل هذه السورة على خمسة مشاهد – غير المواضع التي ورد فيها ذكر الجنة والنار في اختصار وإجمال .

١ – والمشهد الأول يرتسم من الظلال التي يلقيها التعبير . فهذا العذاب من الهول والشدة بحيث يعد مجرد صرفه رحمة وفوزاً مبيناً «من يُصرَف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين» . فالناجي

من ذلك العذاب يعد نجوته غاية الثواب . وتلك ظلال تشير من خلال التعبير .

٢ - والمشهد الثاني : هو مشهد السؤال عن الشركاء . ولكن الطريف هنا ، أنهم حين يُسألون ينسون أنهم في الآخرة ، حيث لا تخفى منهم خافية ، فيردون رداً مضحكاً مؤذياً : «والله ربنا ما كنا مشركين» وإنها لفتنة وبلاء «ثم لم تكن فتنتُهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنّا مشركين» فعلى من تراهم يكذبون ؟! إنهم لمساكين أذهلهم الحرج ، فاتجهوا إلى الكذب ، وإنهم ليعلمون أنه كذب مكشوف ؛ ولكنهم مضطرون !

وبذلك يتخذ المشهد طابعاً جديداً فذّاً في مشاهد الشركاء الكثيرة .

٣ - والمشهد الثالث يمثلهم موقوفين على النار - موقوفين بلا إرادة ولا اختيار - تعتلج نفوسهم بالخوف ، وترتجف مفاصلهم من الرهَب . فيقولون : «يا ليتنا نرد ولا نكذّب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين» وإنهم ليخافون ولا يستحون «ولو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون» !

٤ - وهم في المشهد الرابع موقوفون كذلك على ربهم ، يعلو الخزي وجوههم وتستشعر الخجل نفوسهم ، ثم يوجه إليهم الخطاب المخجل : «أليس هذا بالحق» ؟ فيا له من سؤال ! «قالوا : بلى وربنا» في خضوع وخزي واستسلام . ثم لم يزد على أن «قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» . ولقد كانوا في وقفتهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ، لا تحط عنهم ، ولا تستريح كواهلهم ، إلى أن يساقوا إلى الجحيم ، بعد صدور الأمر العظيم !

٥ – أما المشهد الخامس ، فقد اجتمع فيه الجن والإنس في صعيد واحد ، المتبوعون والأتباع ، وبدأ بتوجيه الخطاب إلى الجن : «يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس» – وهذه جموع الضالين الغاوين تشهد باستكثارهم من الأتباع – فلا يجيبون ، إنما ينبري للجواب أولئك التعساء من الإنس يقولون : «رَبَّنا اسْتمتَعَ بعضُنا ببعضٍ» فلقد كانت شركة على الاستمتاع والانتفاع ، يهيئ الشياطين للإنس المتاع ، في مقابل الولاء والاتّباع ! «وبلغْنا أجَلنا الذي أجَّلْت لنا» وها نحن أولاء في يوم البعث أمامك يا ربنا ! . عندئذ يصدر الأمر الذي لا يرد : «قال : النارُ مثواكم خالدين فيها» وهو الأمر المنتظر بعد هذا الاعتراف الطويل ، وبعد ما كان في دنيا الغافلين !

ثم يوجه السؤال إلى الجميع إنساً وجناً : «يا مَعْشَرَ الجنِّ والإنْسِ ، ألَمْ يأتِكم رُسُل منكم يَقُصُّون عليكم آياتي ، ويُنذِرونكم لقاءَ يومكم هذا» . وإنه ليعلم ، ولكن الاعتراف المخزي هو في ذاته عذاب «قالوا : شَهِدْنا على أنفُسِنا» فلا مجال اليوم لغير الاعتراف والشهادة على النفس باستحقاق العذاب ، «وغَرَّتهمُ الحياةُ الدنيا» فكان هذا هو المصير «وشَهِدُوا على أنفسِهم أنَّهم كانوا كافرين» وإنك لتشهد الآن هذا الحوار ، وتسمع السؤال والاستنكار ، لأن السياق يحدث عنه كأنه في العيان .

سورة الصافات [1]

﴿ فإنَّما هيَ زَجْرَةٌ واحدةٌ فإذا هم يَنظرون . وقالوا : يا ويْلَنا !

---

(١) السورة (٥٦) مكية .

هذا يومُ الدين . هذا يومُ الفَصْل الذي كنتم به تكذِّبون . احشُرُوا الذين ظلموا وأزوَاجَهم وما كانوا يعبدُون مِنْ دُون اللهِ ، فاهْدوهم إلى صراط الجحيم ، وقِفُوهم إنَّهم مسئولون . ما لكم لا تناصَرون ؟ بلْ هُم اليومَ مُستَسْلِمون ! ﴾

﴿ وأقبلَ بعضُهم على بعضٍ يَتساءلون . قالُوا : إنكم كنتم تأتونَنا عنِ اليمين . قالوا : بلْ لمْ تكونوا مؤمنين ؛ وما كان لنا عليكم من سُلطانٍ ، بل كنتم قوماً طاغين ؛ فحَقَّ علينا قوْلُ ربِّنا إنَّا لذائقُون ، فأَغْوَيناكُمْ إنَّا كنَّا غاوِين . فإنهم يومئذٍ في العذاب مشترِكُون . إنَّا كذلِكَ نَفْعَلُ بالُمجرِمِين . إنهم كانوا إذا قِيلَ لهم لا إله إلاّ اللهُ يَستَكبِرُون ؛ ويقولون : أئنا لتارِكو آلهتِنا لِشَاعرٍ مجنون ؟ بل جاءَ بالحقِّ وصَدَّق المرسَلِين . إنكم لذائقُو العذابِ الأليم ؛ وما تجزَوْن إلاّ ما كنتم تعملونَ ، إلا عبادَ اللهِ المخلَصين ، أولئك لهم رِزْقٌ مَعلوم : فواكِهُ وهم مُكرَمُون ، في جنَّاتِ النعيم ، على سُرُرٍ متقابلين ، يُطافُ عليهم بكأْسٍ منْ مَعِينٍ ، بيضاءَ لذةٍ للشَّارِبين ، لا فيها غولٌ ولا هم عنها يُنزَفون ؛ وعندهم قاصراتُ الطَّرفِ عِينٌ ، كأنَّهن بَيضٌ مَكنونٌ ﴾ .

﴿ فأَقبلَ بعضُهم على بعضٍ يتساءلون . قال قائلٌ منهم : إنِّي كان لِي قَرِينٌ ، يقولُ : أئنكَ لَمِنَ المُصَدِّقين ؟ أئذا مِتْنا وكُنَّا تُراباً وعظاماً أئنا لَمدِينون ؟ . قال : هلْ أنتم مُطَّلِعون ؟ فاطَّلَعَ فرآهُ في سَواءِ الجحيم . قال : تاللهِ إنْ كِدْتَ لَتُردِينِ ؛ ولولا نعمةُ ربي لكُنتُ من المُحْضَرين .

أفما نحنُ بميّتين إلاّ موتتَنا الأولى ، وما نحنُ بمعذَّبين ؟ ﴾ .

﴿ إنّ هذا لَهُوَ الفوزُ العظيم . لمِثل هذا فليَعمَلِ العامِلون ﴾ .

﴿ أذلك خيرٌ نُزُلاً أمْ شجرةُ الزّقوم ؟ إنا جعَلْناها فِتنةً للظّالِمين .
إنها شجرةٌ تخرجُ في أصْلِ الجحيم . طَلْعُها كأنّه رءُوسُ الشّياطين .
فإنهم لآكِلُون مِنها فمالِئون منها البُطُون ، ثُمَّ إنّ لهم عَليها لَشَوباً من حَميم
ثم إنّ مَرْجِعَهم لَإلَى الجحِيم ﴾ .

* * *

نحن أمام مشهد من المشاهد المطولة المتعددة الجوانب ، المتنوعة الأساليب ، المزدحمة بالمناظر الحية والحركات المتتابعة ، يلتقي فيها الوصف بالحوار ، فتسير على نسق الحكاية فترة ؛ ثم تنتقل إلى نسق الحوار أخرى . ويتخلل سير الحوادث والمناظر تعليقات على كل منها ، هي أشبه شيء بتعليق المعلقين في ساحات الاستعراض على ما يقع فيها ، ويستحق الالتفات الخاص ؛ وبذلك كله يستكمل المشهد كل سمات الحياة . وقد جاء هذا الاستعراض طويلاً رداً على جماعة يقولون : « أئذا مِتنا وكُنا تُراباً وعظاماً أئنّا لَمبْعُوثُون ، أوَ آباؤُنا الأوَّلون » ؟ وكان الرد : « قُلْ : نعم ! وأنتم دَاخِرُون » أي ذلولون مُسْتسلمون . ثم أخذ في هذا الاستعراض الطويل : « فإنّما هي زَجْرَةٌ واحدةٌ فإذا هم ينظرون » وهكذا في ومضة خاطفة بمقدار ما تنبعث صيحة واحدة ، تسمى هنا « زجْرة » للدلالة على لون من الشدة فيها والعنف في توجهها ، والاستعلاء في مصدرها ... فإذا هم ينظرون ،

فجأة وبلا تمهيد أو تحضير ؛ وإذا هم يصيحون مبهوتين : «يا وَيْلَنا هذا يومُ الدِّين» وبينما هم في بَهْتَتِهم إذا صوت يحمل إليهم التقريع من حيث لا يتوقعون : «هذا يومُ الفَصْلِ الذي كنتم به تكذبون» !

وهكذا ينتقل السياق من الخبر ، إلى الخطاب يوجه لمن كانوا يكذبون بيوم الدين وإن هي إلا تقريعة واحدة حاسمة ، ثم يتوجه الأمر إلى الموكلين بالتنفيذ : «احشُرُوا الذين ظلموا وأزْوَاجهم وما كانوا يعبُدون من دُونِ اللهِ فاهدُوهم إلى صراط الجحيم ، وقِفُوهم إنَّهم مسئولون» . وفي الأمر على ما فيه من لهجة جازمة تهكم واضح في قوله «فاهدُوهم إلى صراطِ الجحيم» فما أعجبها هداية خير منها الضلال ! وإنها لهي الرد المكافئ لما كان منهم من ضلال . وإذ لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم ، فليهدوا في الآخرة إلى صراط الجحيم !

وها قد نفذ الأمر ، فهدوا إلى صراط الجحيم ، وَوُقِفُوا على استعداد للسؤال . وعندئذ يوجه إليهم الخطاب بالتقريع في صورة الاستفهام ، والسخرية في هيئة السؤال : «ما لكم لا تَنَاصرُون ؟» ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً وأنتم هنا جميعاً ومعكم ما كنتم تعبدون ! وطبيعي أن ليس هناك جواب ، ولكنها الرؤوس المنكسة والوجوه المخجولة .

وهنا يرد تعليق من تلك التعليقات المقصود بها النظارة لشرح نقطة في الاستعراض : «بل هم اليوم مستسلمون» !

ثم يعود السياق مرة أخرى إلى الحكاية والقصة ؛ لنرى مشهدهم يجادل بعضهم بعضاً : «وأقبلَ بعضُهم على بَعض يتساءلُون : قالوا : إنَّكم كنتم تأتونَنا عَنِ اليمين» أي توسوسون لنا عن يميننا – وهو المعتاد

في حالة الوسوسة بالأسرار غالباً – فأنتم مسؤولون عما صرنا إليه بسبب هذا الإغواء القديم وعندئذ ينبري المتهمون لتسفيه ذلك الاتهام ، وإلقاء التبعة على الغاوين : «قالوا : بَلْ لَمْ تكونوا مؤمِنين» فأنتم بطبيعتكم مصروفون عن الإيمان «وما كان لنا عليكم من سُلْطانٍ» نرغمكم به على قبول رأينا «بل كنتمْ قَوماً طاغين» لا ينفذ الإيمان إلى قلوبكم ، ولا تقفون عند حدكم فيما يحسن وما يسوء «فحق علينا قول ربنا ، إنَّا لذائقون» فقد استحققنا العذاب بما غوينا «فأغوَيْناكم إنَّا كُنا غاوِين» وقد انزلقتم معنا بسبب استعدادكم للغواية ، لا لأننا نملك عليكم سلطاناً ! فلسنا عنكم بمسؤولين .

وهنا يرد تعليق آخر ، وكأنه حكم يعلن على رؤوس الجميع بحيثياته وأسبابه : «فإنَّهم يومئذٍ في العذاب مُشتركون . إنَّا كذلكَ نَفعَلُ بالمُجْرمين . إنهم كانوا إذا قيلَ لهم : لا إله إلا الله : يَسْتكبرُون ؛ ويقولون : أئنا لتاركو آلهتناَ لِشاعِرٍ مجنونٍ ؟» .

ثم يكمل التعليق موجهاً آخره إلى أولئك المكذبين : «بلْ جاءَ بالحقِ وصَدَّق المرسَلين ، إنَّكم لذائقو العذابِ الأليم . وما تُجزَوْن إلاَّ ما كنتمْ تعمَلون . إلاَّ عبادَ اللهِ المُخلصِين» .

وحين ينتهي التعليق بهذا الخطاب ، وينتهي الخطاب بذكر عباد الله المخلصين يعود العرض على نسق الإخبار المصور للنعيم الذي يلقاه عباد الله المخلصون . وهو نعيم معنوي ومادي ، تستمتع به النفس والحس ، فهم أولاً عباد الله المخلصون ، وفي هذا تكريم أي تكريم ؛ وهم عند الله «مكرمون» كما هو المفهوم ؛ ثم إن لهم متاعاً مادياً : «فَواكِهُ» و«سُرُر» وراحة كاملة . ثم «يُطافُ عليهم بكأسٍ مِنْ

مَعِين ، بيضاءَ لذةٍ للشَّاربينَ ، لا فيها غَوْلٌ ولا همْ عنها يُنزَفون »
وتلك أجمل أوصاف الخمر ، التي تحقق لذة الخمر ، وتنفي عقابيل الشراب فلا خمار يصدع الرؤوس ، ولا نزف يذهب بالعقول ...
« وعندَهم قاصرَات الطرفِ عينٌ » حور حييات لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن ، مع أنهن « عِينٌ » واسعات العيون ! وهن كذلك مصونات « كأنَّهن بيض مكنون » لا تبْتَذِلهُ الأيدي والعيون .

ثم يمضي في الحكاية المصوِّرة ، فنرى عباد الله المخلصين هؤلاء – بعد ما يسرت لهم كل هذه المتع – ينعمون بسمر هادئ ، يتذاكرون فيه الماضي والحاضر – وذلك في مقابل التخاصم والتغابن الذي يقع بين المجرمين – وها هو ذا أحدهم يستعيد ماضيه ، ويقص على إخوانه طرفاً مما وقع له : لقد كان له صاحب يكذب باليوم الآخر ؛ وكان يحاوره ويسائله : « يقولُ أئنَّكَ لَمِنَ المُصَدِّقين ؟ أئذا مِتنا وكنَّا تراباً وعظاماً أئنا لمدِينون ؟ » هكذا كان صاحبه يدهش لتصديقه بالبعث والجزاء ...

وبينما هو ماض في قصته يخطر له أن يتفقد صاحبه هذا ليعرف مصيره . وهو يتوقع بطبيعة الحال أن يكون قد صار إلى الجحيم . فهو يقف ليتطلع ويوجه نظر إخوانه إلى حيث يتطلع : « قال : هل أنتمْ مُطَّلِعُون ؟ » ثم ينظر فيرى صاحبه حيث توقع : « فاطَّلعَ فرآهُ في سَواءِ الجحيم » !

عندئذ يترك إخوانه ، ويتوجه إلى صاحبه هذا الذي وجده في وسط الجحيم يتوجه إليه ليقول : يا هذا ، لقد كدتَ توردني موارد الردى بوسوساتك ، لولا أن الله قد أنعم عليَّ فلم أستمع إليك : « قال :

تاللهِ إنْ كِدتَ لتُرْدينِ ، ولولا نعمةُ ربي لكنتُ من المحضَرين» — أي الذين يساقون إلى الموقف ويُحضَرون وهم كارهون — ثم يستمر في تأنيبه بتذكيره بما كان يقول : «أفمَا نَحن بميتِين إلاَّ موتَتنَا الأولى وما نحنُ بمعذَّبين ؟» كما كنت تقول أيها القرين المشؤوم !

وهنا يرد تعليق من هذه التعليقات التي أسلفنا : «إنَّ هذا لهُوَ الفوزُ العظيم لمثلِ هذا فلْيَعْمَلِ العامِلون» .

ثم يستمر التعليق بلفت النظر إلى ما يقابل هذا الفوز ، وهو العذاب الذي يصلاه المكذبون . فالموازنة هنا بين الحالين تجيء في إبانها المناسب وفي هذه الموازنة تعرض صورة كاملة للعذاب ، تالية لموقف الحساب الذي عرض في أول المشهد بعد الزجرة الواحدة :

فهذه شجرة الزقُّوم — وقد مر ذكرها في مشهد آخر — ولكن هنا بعض التعريف لشجرة الزقوم التي لا يعرفها المستمعون : «إنها شَجرةٌ تخرجُ في أصْلِ الجحيم» فيا لها شجرة تنبت في أصل الجحيم ولا تحترق لأنها من نوع هذا الجحيم ! ولزيادة التعريف فاسمع : «طَلْعُها كأنَّه رُؤوس الشياطين» أتعرف أيها القارئ رؤوس الشياطين ؟! نعم ! فمن مخيلة الإنسان نبتت صورة الشياطين ، وهي تثير في نفسه الفزع والرعب ، وهو يتصورها ويستحضرها كل حين ! .

وهؤلاء الظالمون النازلون في جهنم يأكلون طلع هذه الشجرة يأكلون رؤوس الشياطين هذه . «فإنهم لآكِلُون منها فمَالِئون منها البُطون» فإذا شاكت حلوقهم ، وزحمت بطونهم ، وتطلعوا إلى برد الشراب ينقع الغلة ويطفئ اللهيب ، فإنهم لشاربون عليها ماء ساخناً مشوباً ، يردون بعده إلى عذاب الجحيم .

سورة لقمان [1]

١ – ﴿ نُمَتِّعُهم قليلاً ثم نَضْطَرُّهم إلى عذابٍ غليظٍ ﴾ .

٢ – ﴿ يا أيُّها النَّاس اتَّقُوا رَبَّكم واخشَوْا يَوْماً لا يجزى والدٌ عن ولَدِهِ ، ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً ﴾ .

* * *

١ – تصوير العذاب بأنه غليظ تجسيم للمعنوي يبرزه للحس محسوساً . وله في القرآن نظائر كثيرة ، وهذا ليس مشهداً من مشاهد القيامة على النحو الذي نستعرضه في هذا الكتاب ، ولكنه صورة مجسمة للعذاب ، لها وقع خاص في استشعار ذلك العذاب .

٢ – والصورة الثانية ترسمها الظلال السارية بين السطور في هذا التعبير ، وهي ظلال تلمحها النفس ، ولا تكاد تبدو للحس ، حيث تنقطع الروابط ، وتنفصم العرى ، ويبطل التكافل المعهود في الدنيا بين أقرب الناس وأولاهم بالتكافل : الولد والوالد . فالعدالة مطلقة ، والتبعات محددة ، والموقف عصيب . وذلك الوصف لليوم يصور الهول تصويراً نفسيًّا كاملاً ، دون أن يتعرض لوصفه المباشر . فحين يقف فعل الروابط الوثيقة بين الوالد والمولود ، يكون ذلك ولا شك يوماً عصيباً جد عصيب .

---

(١) السورة (٥٧) مكية إلا ثلاث آيات .

سورة سبأ[1]

١ - ﴿ ولو تَرَى إذِ الظالمون مَوْقوفون عند ربِّهم ، يَرْجعُ بعضُهم إلى بعضٍ القولَ ، يقول الذين اسْتُضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكُنَّا مؤمنين ! قال الذين استكبروا للذين اسْتُضعِفوا : أنحنُ صددناكم عن الهُدى بعد إذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين ! وقال الذين استُضعِفوا للذين استكبروا : بل مَكْرُ الليلِ والنهار إذ تأمروننا أن نكفرَ بالله ونجعلَ له أندادا ، وأسرُّوا الندامةَ لما رأَوُا العذاب ، وجعلنا الأغلالَ في أعناقِ الذين كفروا ... هل يُجْزَون إلا ما كانوا يعملون ؟﴾ .

٢ - ﴿ويومَ يحشرهم جميعاً ، ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إيَّاكم كانوا يَعْبدون ؟ قالوا : سبحانَك ! أنت وَليُّنا مِن دونِهم ، بل كانوا يعبُدون الجنَّ ، أكثرُهم بهم مؤمنون . فاليومَ لا يملكُ بعضُكم لبعضٍ نفعاً ولا ضرًّا ، ونقول للذين ظلموا : ذوقوا عذابَ النار التي كنتم بها تكذّبون﴾ .

٣ - ﴿ولو تَرى إذ فَزِعوا فلا فَوتَ ، وأُخِذوا من مكانٍ قريب . وقالوا : آمَنَّا به . وأنَّى لهم التَّنَاوُشُ من مكانٍ بعيد ؟ وقد كفروا به من قبل ، ويَقْذِفون بالغيب من مكان بعيد . وحِيلَ

(١) السورة (٥٨) مكية إلا آية .

بينهم وبين ما يَشْتَهُون كما فُعِلَ بأشياعهم مِن قبلُ ، إنهم كانوا في شك مُريب ! ﴾ .

* * *

المشهد الأول مشهد التخاصم والحوار بين التابعين والمتبوعين من الضالين . وقد سبقت له نظائر . ولكن الجديد الذي يذكر هنا للمرة الأولى هو تسمية التابعين بالذين استضعفوا ، والمتبوعين بالذين استكبروا وفي الحوار تنويع . فالذين استضعفوا يجزمون بأنهم لولا الذين استكبروا لكانوا مؤمنين ! والذين استكبروا يرذّلونهم وهم ينفون عن أنفسهم التهمة : « أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم » ثم يجبهونهم بالشتمة الغليظة : « بل كنتم مجرمين » ! عندئذ ينطلق المستضعفون في جرأة يعدون عليهم آثامهم ومكرهم ، ووسوستهم لهم بالليل والنهار ، وأمرهم باتخاذ آلهة أنداداً لله .

ولما كان هذا كله لا يجدي ، فقد أحسوا الندامة والحسرة ، ثم كتموها في نفوسهم ، واستسلموا للمصير المحتوم في يأس عقيم !

ويزيد المشهد هنا أن نختم هذه المحاورة بجعل الأغلال في أعناق الجميع ، فكلهم كافرون ... ثم يلتفت من الحكاية إلى تعليق في صورة سؤال : « هل يجزوْن إلا ما كانوا يعملون ؟ » وذلك التعليق يرد المشهد حاضراً ، ويحيل المستمعين نظارة ، كأن الأمر يُشهد الآن ويكون .

٢ – وفي المشهد الثاني نرى الملائكة حاضري الحشر ، حيث يوجه إليهم الخطاب على مرأى ومسمع من المحشورين : « أهؤلاء إيّاكم كانوا يَعْبدون ؟ » – وإن الله ليعلم ، ولكنها فضيحة عامة

وتشهير علني على رؤوس الجموع ! – ويكون ردّ الملائكة بالتبرؤ من هذا الإثم ، والتنزيه لله عن الشرك : «قالوا : سبحانك ! أنت وليُّنا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون» !

وتم الفضيحة ، ويتحقق التشهير ، وعندئذ يصدر الحكم في مواجهة المتهمين : «فاليوم لا يملكُ بعضكم لبعض نفعاً ولا ضرًّا ، ونقول للذين ظَلموا : ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذِّبون» .

٣ – أما المشهد الثالث فلم يسبق له مثيل ، وهو حافل بالحركة ، والشدّ والجذب ، فائض بالحياة بسبب هذه الحركات المتواليات :

ها أنت ذا تراهم وقد فزعوا ، وكأنما أرادوا الإفلات ، ولكن «لا فوتَ» ، ولا انفلات ، فقد قبض عليهم «وأُخذوا من مكان قريب» ! عندئذ استسلموا «وقالوا : آمنَّا به» وهم في فزعهم ومحاولتهم الانفلات ، وأخذهم ومسارعتهم بالإيمان ، كأنما يتناولون هذا الإيمان نهشاً ولهوجة ، وهو بعيد عن متناولهم لا تطوله أيديهم : «وأنى لهم التناوش من مكانٍ بعيد ؟» والتناوش هو التناول ، ولكن في لهوجة ونهشة ، واللفظ بجرسه معبر عن هذه الحركة كل التعبير ... أنى لهم «وقد كفروا به من قبل» ؟ وكانوا يرجمون بالغيب ، وهم بعيدون عنه ، ولكنهم كانوا يجزمون ، ولا يَدَعون مجالاً للمجهول الذي لا يعلمون ؟ «ويقذفون بالغيب من مكان بعيد» ... وبعد هذا التعليق المعترض لبيان حالهم ، وحقيقة موقفهم التي استحقوا بها العذاب يتمم المشهد ، فقد حيل بينهم وبين ما يشتهون من الإفلات ، ومن التمويه بالإيمان بعد فوات الأوان «كما فُعل بأشياعهم من قبل» فذلك جزاء مقرر للمكذبين من الأولين والآخرين «إنهم كانوا في شك منه مريب» .

سورة غافر [1]

١ - ﴿ وَأَنذِرْهم يومَ الآزِفَةِ إذ القلوبُ لدَى الحناجرِ كاظمين ، ما للظالمين من حَميم ولا شفيع يُطاعُ ﴾ .

٢ - ﴿ ويا قوم إني أخافُ عليكم يومَ التنادِ . يومَ تُوَلُّون مُدْبرين ، ما لكم من الله من عاصم ﴾ .

٣ - ﴿ وإذ يتحاجُّون في النار ، فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنّا كنا لكم تَبَعاً ، فهل أنتم مُغْنونَ عنَّا نَصيباً من النار ؟ قال الذين استكبروا : إنَّا كُلٌّ فيها ! إن الله قد حكم بين العباد ! وقال الذين في النار لخَزَنَةِ جهنم : ادْعُوا ربَّكم يُخفِّفْ عنا يوماً من العذاب ! قالوا : أوَلمَ تكُ تأتيكم رسُلكم بالبيناتِ ؟ قالوا : بلَى ! قالوا : فادْعُوا . وما دُعاءُ الكافرين إلّا في ضلال ! إنّا لننصرُ رسُلَنَا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ . يوم لا ينفعُ الظالمين معذِرتُهم ، ولهم اللعنةُ ولهم سوءُ الدار ﴾ .

٤ - ﴿ الذين كذَّبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رُسُلنا ، فسوف يعلمون . إذ الأغلالُ في أعناقهم والسلاسلُ يُسحَبون في الحميم ؛ ثم في النار يُسْجَرون ؛ ثم قيل لهم : أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ قالوا : ضلُّوا عنّا ، بل لم نكنْ ندعو من قبلُ شيئاً . كذلك يُضِلُّ اللهُ الكافرين ﴾ .

---

(١) السورة (٦٠) مكية إلا آيتين .

١ - المشهد الأول مشهد «الآزفة» وهي القيامة مصورة بصورة الواقعة السريعة ، وقد ضاقت الصدور ، وزهقت النفوس ، وبلغ الضيق كأن القلوب تغادر مكانها فتحشر في الحناجر ، وتكرب النفس ، وتكظم الأنفاس .

وفي وسط هذا الضيق كله ، ليس للظالمين من صديق يبثون له ، وينفسون عن صدورهم بالبثّ ما تضيق به ، وليس لهم من شفيع ذي كلمة مسموعة ، يسعى لهم في تفريج الكرب ، ورفع الحرج ، وهم هنالك بين الضيق والانفراد والإهمال . وكل ذلك يتمثل في كلمات قلائل ، مشحونة بالصور حافلة بالظلال .

٢ - والمشهد الثاني مشهد فريد بين مشاهد القيامة جميعاً ، فللمرة الأولى تشهد جماعة من المبعوثين يولون الأدبار عند النداء يحاولون الفرار ، وإن لم ينفعهم هذا الفرار فما لهم من الله من عاصم .

والمشهد الوحيد الذي يمتّ إليه بصلة جاء منذ قريب في سورة سبأ «ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب» ... ولكنه كان هناك مجرد فزع يتلوه الأخذ ، أما هنا فقد ولوا الأدبار فعلاً ، ثم أُخذوا بعد الفرار !

٣ - والمشهد الثالث مشهد الحوار والخصام بين المستكبرين والضعفاء - وقد سبقت مشاهد من هذا القبيل - ولكن المشهد هنا ليس تكراراً لها ، فهو يتجدد في التفصيل :

هنا يطلب الضعفاء من الأقوياء أن يؤدوا لهم دَيْنهم ، فيحملوا عنهم نصيباً من العذاب : «إنا كنا لكم تبَعاً فهل أنتم مُغْنون عنّا نصيباً من النار ؟» ويضيق الأقوياء صدراً بهذا الاستفهام المنطوي على

التأنيب ؛ ويرون أنفسهم يحتملون من العذاب أقصاه ، فلا مجال لاحتمال قسط آخر من نصيب الضعفاء ؛ فيطلقونها كلمة تضيق بها الصدور : «إنا كلٌّ فيها» ويعقبونها بتسليم الأمر كله لله ، والتخلي عن الصفة التي يطالبهم على أساسها الضعفاء بالاحتمال ، صفة العلو والاستكبار ، فإن هم إلا عبيد كالعباد : «إن الله قد حكم بين العباد !

ثم يتوجه هؤلاء وهؤلاء إلى حراس جهنم ، يرجونهم في ضراعة أن يشفعوا لهم عند الله ، وأن يدعوه فقد يجيب الدعاء ، فيخفف عنهم يوماً من العذاب .

ولكن الحراس يعرفون حدود اختصاصهم ، ويعلمون من ماضي هؤلاء الذين في النار ما لا يشجعهم على الاستغفار : «قالوا : أولم تكُ تأتيكم رسلكم بالبيّنات ؟» وهو سؤال للتقريع والتذكير . «قالوا ! بلى !» عندئذ ينفض الحراس أيديهم من الأمر ، في زراية وتهكم ، ويدعونهم يتولون أمرهم بأنفسهم على يأس من جدوى المحاولة والدعاء «قالوا : فادْعوا» !

ونسمع من وراء ستار تعليقاً على هذا الدعاء : «وما دعاء الكافرين إلا في ضلال» ! وذلك حق وهو الذي يتفق مع العدالة : «إنا لننصر رُسُلَنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويومَ يقوم الأشهاد ، يومَ لا ينفعُ الظالمين معذرتُهم ولهم اللعنةُ ولهم سوءُ الدار» كما رأينا من حال أهل النار !

٤ – أما المشهد الرابع فمشهد الأغلال في الأعناق والسلاسل في الأقدام ، ومشهد السحب إلى جهنم والسجر في النار (من سجر الكلب إذا شده إلى الساجور) ثم التأنيب والتقريع : «أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟» والجواب : «ضلوا عنّا» وغابوا . بل الأطرف من ذلك

قولهم «بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً» ! فما عبدنا لا يستحق أن يكون شيئاً ! ... ثم التعليق من وراء ستار : «كذلك يُضلُّ اللهُ الكافرين» .

سورة الزمر [1]

١ - ﴿قل : إن الخاسرين الذين خَسِرُوا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ألا ذلك هو الخسرانُ المبين . لهم من فوقهم ظُلَلٌ من النار ومن تحتهم ظلَلٌ ، ذلك يُخوِّف الله به عباده ، يا عباد فاتقون﴾ .

﴿لكِنِ الذين اتقوا ربهم لهم غُرَفٌ من فوقها غُرَفٌ مبنية تجري من تحتها الأنهار﴾ .

٢ - ﴿أفمن يتقي بوجههِ سوءَ العذاب يومَ القيامةِ ؟ وقيلَ للظالمينَ : ذُوقُوا ما كنتم تكسِبون﴾ .

٣ - ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوهُهم مسْوَدَّة ، أليس في جهنم مثوىً للمتكبرينَ ؟ وينجِّي الله الذين اتقوا بمفازتهم ، لا يمسّهم السوء ولا هم يحزنون﴾ .

٤ - ﴿وما قَدَروا اللهَ حقَّ قَدْرِه ، والأرضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يومَ القيامةِ ، والسمٰواتُ مطويّاتٌ بيمينه . سبحانه وتعالى عما يشركون !﴾

﴿ونُفخ في الصُّور فصَعِق مَن في السمٰواتِ ومن في الأرض . إلاَّ من شاء اللهُ . ثم نُفِخَ فيه أُخرى ، فإذا همْ قيامٌ يَنظرون . وأشرقت

---

(١) السورة (٥٩) مكية إلا ثلاث آيات .

الأرضُ بنورِ ربِّها ، وَوُضع الكتابُ ، وجيءَ بالنبيين والشهداءِ ، وقُضِيَ بينهم بالحق وهم لا يُظلمون ، ووُفِّيتْ كلُّ نفْسٍ ما عمِلتْ ، وهو أعلمُ بما يفعلون ﴾ .

﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زُمَراً ، حتى إذا جاءوها فُتِحت أبوابُها ، وقال لهم خزنتُها : ألم يأتِكمُ رسُلٌ منكم يَتْلُون عليكم آياتِ ربِّكم ، وينذرونكم لقاءَ يومكم هذا ؟ قالوا بلى ! ولكنْ حقَّتْ كلمة العذابِ على الكافرين . قيل : ادخلوا أبوابَ جهنم خالدين فيها ، فبئس مَثوى المتكبرين !﴾

﴿ وسيق الذين اتَّقوْا ربهم إلى الجنة زُمَراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابُها وقال لهم خزنتها : سلامٌ عليكم ، طِبْتم ، فادخلوها خالدين . وقالوا : الحمد لله الذي صدقَنَا وعْدَهُ ، وأورثَنا الأرضَ نَتَبوأُ من الجنة حيثُ نشاءُ ، فنعم أجرُ العاملين ﴾ .

﴿ وترى الملائكةَ حافِّين من حولِ العرش ، يسبِّحون بحمد ربهم ، وقُضِيَ بينهم بالحق ، وقيل : الحمد لله ربِّ العالمين ﴾ .

* * *

١ – المشهد الأول معرض من معارض التناسق الفني الظاهر في تصوير القرآن . فالذين كذبوا بآيات ربهم لهم ظُلل ولكنها من النار ، ظلل كالظل الذي من يحموم ، والظل ذي الثلاث شعب ، الذي لا ظليل ولا يغني من اللهب ! وهذه الظلل من فوقهم ومن تحتهم أيضاً !

أليست من نار ؟ والنار تلفهم من فوقهم ومن تحتهم سواء !

أما الذين اتقوا ربهم فلهم في مقابل الظلل من النار غرف مبنية من فوقها غرف كذلك ، تجري من تحتها الأنهار . فالمشهد متناسق بين الظلل والغرف . وإن كان ما بين هذه وتلك شتان ، ولكن اتحادهما في المنظر مما يلاحظه التناسق في القرآن .

٢ – والمشهد الثاني يعرض صورة فريدة لأحد أصحاب النار ، لا يملك أن يدفع عن نفسه النار بيديه ولا برجليه ، فيدفعها بوجهه ! والعادة جرت أن تكون كل الأطراف فداء للوجه تدفع عنه المؤثرات ، ولكن هنا يصبح الوجه نفسه من الأدوات ! وهو على أية حال مشهد مخيف ، ينم عن العجز والحيرة والاضطراب .

٣ – وفي المشهد الثالث تلوين لوجوه الكاذبين على الله بالسواد ، ولعله سواد الخزي والرهق ، أما الذين اتقوا فقد نجوا بسبب فوزهم . فهذه النجاة لا تكون إلاَّ بما قسم لهم من الفوز ، ومجرد النجاة من هذا اليوم الذي تسود فيه الوجوه هو في ذاته فوز كبير – وقد سبق الحديث عن لون من هذا التصوير .

٤ – ثم نخلص إلى المشهد الرابع ، وهو مشهد رائع حافل يبدأ متحركاً ثم يسير وئيداً ، حتى تهدأ كل حركة ، وتسكن كل نأمة ، ويخيم على ساحة العرض جلال الصمت ، ورهبة الخشوع ، وروعة السكون .

ها هي ذي الأرض جميعاً في قبضة ذي الجلال ، وها هي ذي السمٰوات جميعاً مطويات بيمينه (والقرآن الحريص على التنزيه والتجريد يستخدم هنا التخييل والتجسيم ليبدو المشهد محسوساً مثيراً

للحس مشبعاً للنفس) ثم ها هي ذي الصيحة الأولى تنبعث ، فيصعق من يكون باقياً على ظهرها من الأحياء . ولا نعلم كم مضى من الوقت حتى انبعثت الصيحة الثانية «فإذا هم قيام ينظرون» ... وفي غير ضجيج ولا عجيج هنا ومن غير ذكر للصيحة الثالثة تجتمع الخلائق . ذلك أن كل شيء في هذا المشهد يتم بهدوء ، ويتحرك في سكون ، ضماناً للتناسق في جوّ المشهد كله من بدئه إلى نهايته ، فعرش ربك هنا تحف به الملائكة ، فما يليق الصخب في مثل هذا المقام ... «وأشرقت الأرض بنور ربها» بأرض الساحة التي يتم فيها الاستعراض . أشرقت بالنور الهادئ «نور ربها» ، «وجيء بالنبيين والشهداء» وطوي كل خصام وجدال – في هذا المشهد خاصة – «وقُضي بينهم بالحق وهم لا يُظلمون ، ووُفّيت كل نفس ما عملتْ وهو أعلم بما يفعلون» فلا حاجة إلى كلمة واحدة تقال ، ولا إلى صوت واحد يرتفع . وهكذا تجمل هنا عملية الحساب والجزاء ، لأن المقام هنا مقام روعة وجلال .

وإذا تم الحساب وعرف المصير وُجه كل فريق إلى مأواه : «وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً» حتى إذا وصلوا إليها بعيداً هناك استقبلهم خزنتها بتسجيل استحقاقهم لها ، وتذكيرهم بما جاء بهم إليها : «قال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟» «قالوا : بلى ! ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين» فالموقف موقف إذعان واعتراف وتسليم . «قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين» .

وكذلك وُجّه الذين اتقوا ربهم إلى الجنة ، حتى إذا وصلوا هناك استقبلهم خزنتها بالسلام والثناء : «سلامٌ عليكم ، طبتم ، فادخلوها خالدين» وهيمنت أصوات أهل الجنة بالحمد والدعاء :

«الحمد لله الذي صَدَقَنا وعده وأورثَنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء» .

ثم يختم المشهد بما يلقي في النفس والحس روعة ورهبة وجلالاً تتسق مع المشهد كله ، وتختمه خير ختام : «وترى الملائكة حافّين من حول العرشِ يسبحون بحمد ربهم ، وقضي بينهم بالحق ، وقيل : الحمدُ لله رَبِّ العالمين» .

فإذا انتهت السورة ، فكأنما سدل الستار على المشهد وفي العين منه بقية ، والخيال يستعرضه ويتملاّه ، والحس مستغرق في طيوفه ورؤاه .

سورة فصلت [1]

١ – ﴿ ويومَ يُحشَرُ أعداءُ الله إلى النارِ ، فهم يوزَعُون . حتى إذا جاءوها شهد عليهم سمعُهم وأبصارُهم وجلودُهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم : لم شهدْتُم علينا ؟ قالوا . أنطقنا الله الذي أنطقَ كلَّ شيء ، وهو خَلَقَكم أوَّل مرّةٍ ، وإليه تُرجعون . وما كنتم تَستَتِرون أن يشهدَ عليكم سَمعُكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكنْ ظننتم أن اللهَ لا يعلمُ كثيراً مما تعملون . وذلكمْ ظنُّكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ، فأصبحتم من الخاسرين . فإن يَصبِروا فالنارُ مَثوىً لهم ، وإن يَسْتعْتِبُوا فما همْ من المُعْتَبين ﴾ .

---

(١) السورة (٦١) مكية .

﴿ وقيَّضنا لهم قُرَناء فزيَّنوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وحَقَّ عليهم القول في أمم قد خَلَتْ مِنْ قَبْلهم من الجنِّ والإنس ، إنهم كانوا خاسرين . وقال الذينَ كفروا : لا تَسْمَعُوا لهذا القرآنِ والْغَوْا فيه لعلَّكم تغْلِبون ! فَلَنُذِيقَنَّ الذين كفروا عذاباً شديداً ، ولنجزيَنَّهم أسوأ الذي كانوا يعملون . ذلك جزاءُ أعداءِ الله : النارُ ، لهم فيها دارُ الخلد ، جزاءً بما كانوا بآياتنا يجحدون . وقال الذين كفروا : ربَّنا أرِنا اللذيْن أضلاَّنا من الجنِّ والإنْسِ نجعلْهُما تحتَ أقدامِنا ليكونا من الأسفلين ﴾ .

﴿ إن الذين قالوا : ربُّنا اللهُ ، ثم استقاموا ، تَتَنَزَّلُ عليهم الملائكةُ ألاَّ تخافوا ولا تحْزَنوا ، وأبْشِرُوا بالجنَّةِ التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفُسكم ، ولكم فيها ما تدَّعون . نزُلاً من غفورٍ رحيم ﴾ .

٢ - ﴿ ويوم يناديهم : أين شركائي ؟ قالوا : آذَنَّاكَ ما مِنَّا من شهيد ! وضلَّ عنهم ما كانوا يَدْعون من قبل ، وظنوا ما لهم من مَحيصٍ ﴾ .

* * *

مشهد الحشر على طريقة حشر الحيوان والبهيمة ، وتجميع أولها على آخرها كتجميع القطيع ... مشهد مَرّ ، وفيه ما فيه من الزراية والحط من قيمة المحشورين . « حتى إذا جاءوها » والضمير هنا للنار .

فهي التي تترصد أمثالهم . « شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » وهنا يحيا المشهد ويثير العجب والانتباه ، فهــذه جوارحهم وجلودهم ، تقف منهم موقف الخصومة ، أو موقف الشهادة من حيث لم يكونوا يتوقعون . بل من حيث لم يكن أحد يتوقع من نظارة هذا العرض الكبير ! «وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟» ولعلهم اختاروا جلودهم لأنها ألصق بهم ، ولأنها لا ترى ولا تسمع كسمعهم وأبصارهم ! فها هي ذي تجبهم كما يجبه الغريب الغريب في موقف الشهود : « قالوا أنطقَنا اللهُ الذي أنطق كل شيء » ثم ترتفع نبرة التأنيب من هذه الجلود : « وهو خلقكم أول مرة ، وإليه ترجعون » ... وإنه لمشهد عجيب نابض بالحياة في هذا الحوار الغريب !

وحينما ينتهي الحوار بين بعضهم وبعض . بينهم وبين جلودهم التي فصل الموقف بينها وبينهم ، وإن لم تزل لاصقة بأجسادهم ! ... حينما ينتهي هذا الحوار يصب عليهم التأنيب والتهكم : «وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم» فما كان يخطر ببالكم وأنتم تقترفون ما تقترفون أن هناك من يتجسس عليكم من جوارحكم وجلودكم ، حتى تتخفوا منها . وما أنتم بمستطيعين ! ما كنتم تتوقعون ذلك «ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون» ما دمتم تعملونه متخفين . فانصرف همكم إلى التخفي عن الأبصار ، وحسبتم أنكم في مأمن على الأسرار ! وإذا بالسخرية الساخرة تنبع لكم من أبصاركم أنتم ، ومن أسماعكم كذلك وجلودكم . ولقد ساء ظنكم بالله ومبلغ علمه بما تعملون «وذلكم ظنُّكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ، فاصبحتم من الخاسرين» .

وهنا ينتهي التأنيب والتهكم . ثم يلتفت بالقول عن هؤلاء الذين

عرفنا مصيرهم في الجحيم إلى النظارة . « فإن يصبروا فالنار مثوى لهم » وهي مثواهم صبروا أم جزعوا . « وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين » وإن يطلبوا العتب – وذلك كناية عن طلب تصفية الموقف والاعتذار عما فات – فلن يجابوا إلى ما يطلبون ، وهم في كلتا الحالين في الجحيم !

وكأنما يراد أن تُقَصَّ على النظارة قصة أولئك القوم ، في هذا الموقف ، ليعلم الجميع كيف صاروا إلى هذا المصير ؛ فهنا يستمر السياق ، فيذكر أنهم في الدنيا كانوا قد جعل الله لهم قرناء سوءٍ يزينون لهم ما يعن لهم من الشهوات والنزوات ، وبذلك استحقوا أن يلحقوا بالمذنبين « في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس . إنهم كانوا خاسرين » .

ثم يستطرد إلى حكاية قول الكفار بعدم الاستماع إلى هذا القرآن : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوْا فيه لعلكم تغلبون » ثم يهددهم بما ينتظرهم من عذاب شديد ، كالذي صوره آنفاً في هذا المشهد القريب . وإذ وصل السياق إلى ذكر العذاب المنتظر ، فإنه يعرض مشهداً من مشاهده كأنه قد حضر : ذلك مشهد هؤلاء الذين كفروا اتّباعاً لما يزينه لهم قرناء السوء من الجن والإنس ، مشهدهم مغتاظين حانقين على قرنائهم المحبوبين ! « وقال الذين كفروا : ربَّنا أرِنا اللذيْن أضلاّنا من الجن والإنس نجعلْهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين » وترسم هذه الألفاظ وجُوهاً كاشرة محنقة ، وأنياباً كاظمة مفترسة ، على أولئك القرناء الذين قادوهم إلى ذلك المصير !

وبهذه المناسبة يعرض السياق للذين آمنوا وقرنائهم من الملائكة . فهم « أولياؤهم » وهم « يتنزلون عليهم » بما يحبون ، يطمئنونهم

ويبشرونهم بالخير ، وبالجنة التي كانوا يوعدون . كانوا . فنحن الآن في الآخرة والدنيا ماضٍ كان ! وها هي ذي الجنة لهم فيها ما تشتهي أنفسهم ، ولهم أن يدَّعوا ما يشاءون فيها من حقوق ، فيحقق لهم كل ما يدّعون !

وفي نهاية السورة يرد مشهد آخر سبقت له نظائر . «ويوم يناديهم : أين شركائي ؟» والجديد هنا هو الجواب : «قالوا : آذنّاك ما منا من شهيد» تركنا لك الإذن والعلم ، ما نعلم عنهم شيئاً ، وما شهدنا لهم وجهاً ! ونظروا فإذا الشواهد كلها تدل على أن لا مفر لهم من الموقف «وظنوا ما لهم من محيص» .

سورة الشورى[1]

١ - ﴿ ترى الظالمين مُشْفِقين مما كسبوا وهو واقع بهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات في رَوْضات الجنات ، لهم ما يشاءون عند ربِّهم ذلك هو الفضل الكبير ﴾ .

٢ - ﴿ وتَرى الظالمين لما رأوا العذابَ يقولون : هل إلى مَرَدٍّ من سبيل ؟ وتراهم يُعرضون عليها خاشعين من الذلِّ ، ينظرون من طَرْفٍ خفيٍّ ﴾ .

﴿ وقال الذين آمنوا : إن الخاسرين ، الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا إن الظالمين في عذاب مُقيم . وما كان لهم من

---

(١) السورة (٦٢) مكية إلا أربع آيات .

أولياءَ ينصرونَهم من دون الله ، ومن يُضلِلِ اللهُ فما له من سبيل .
استجيبوا لربكم مِن قبل أن يأتي يومٌ لا مَردَّ له من الله ، ما لكم من ملجأٍ يومئذٍ ، وما لكم من نكير﴾ .

* * *

المشهدان متقاربان ، ولكن ثانيهما أبرز وأوضح ، وأشد تفصيلاً .. وبينهما مع ذلك خلاف ينفي مظنة التكرار . فالظالمون في المشهد الأول مشفقون مما جنته أيديهم في الدنيا من سيئات ومظالم . «وهو واقع بهم» فما يجزون إلا من جنسه وبسببه . بينما المؤمنون الذين عملوا الصالحات في روضات الجنات . رغباتهم مجابة عند ربهم .

والظالمون في المشهد الثاني يرون العذاب ، ويعرضون على النار أذلاء خاشعين منكسي الأبصار ، لا يرفعون أعينهم من الخزي والذل ، بل «ينظرون من طرف خفي» وهي صورة شاخصة ذليلة . وهم يتساءلون في ذل وانكسار : «هل إلى مردٍّ من سبيل ؟» .

وفي هذا الوقت يبدو أن الذين آمنوا هم سادة الموقف ؛ فهم ينطقون ويقررون فيقولون : «إن الخاسرين ، الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة» وهم هؤلاء الذين «يعرضون عليها خاشعين من الذل» !

ويكون التعليق العام على الموقف بياناً لمآل هؤلاء المعروضين على النار : «ألا إن الظالمين في عذاب مقيم» حيث لا ينصرهم أحد «وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله» .

وفي هذه اللحظة التي يعرض فيها مشهد الظالمين خاشعين من الذل لا ولي لهم ولا نصير ، وقد ذلت كبرياؤهم وتضاءل طغيانهم . في

هذه اللحظة يلتفت السياق إلى الدنيا محذراً للجميع من ذلك المشهد الرهيب : «استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ، ما لكم من ملجأ يومئذ» يعصمكم «وما لكم من نكير» ينكر موقفكم ، أو ينكر ما ساقكم إلى هذا الموقف الرهيب ، وينجدكم من هذا المصير المرعب .

سورة الزخرف [1]

١ – ﴿ ومنْ يَعْشُ عن ذكر الرحمن نُقَيِّضْ له شيطاناً فهو له قَرين . وإنهم لَيَصدُّونَهم عن السبيلِ ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا ، قال : يا ليتَ بيْني وبينَك بُعْدَ المشرقين ! فبئس القرين ! ولن ينفعَكم اليومَ إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾ .

٢ – ﴿ هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيَهم بغتةً وهم لا يَشعرون ؟ الأخِلّاء يومئذ بعضُهم لبعض عدوٌّ إلا المتَّقين . يا عبادِ لا خوفٌ عليكم اليومَ ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخُلوا الجنةَ أنتم وأزواجكم تُحبَرون . يُطاف عليهم بِصحاف من ذهب وأكوابٍ ، وفيها ما تشتهيه الأنفسُ وتَلذُّ الأعينُ ، وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنةُ أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهةٌ كثيرة منها تأكلون ﴾ .

---

(١) السورة (٦٣) مكية إلا آية .

﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون . لا يُفَتَّرُ عنهم وهم فيه مُبْلِسُون . وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ونادَوا : يا مالكُ لِيَقْضِ علينا ربك ! قال : إنكم ماكثون ! ﴾ .

١ – يمتد المشهد الأول من الدار الدنيا إلى الدار الآخرة فيبدأ هنا وينتهي هناك . فأما في الدنيا فنحن أمام مخلوق تعامى عن ذكر الرحمن فلم يتذكر ربه ، ولم يجعل له حساباً في عمله ، وعندئذ ندب له شيطاناً يرافقه ، ويملي له في الغواية ! وإنه ليصده عن الهدى فيحسب أنه مهتدٍ ، ويضله عن الصواب فيظن أنه مصيب . ثم تستمر القصة «حتى إذا جاءنا» في يوم القيامة «قال : يا ليت بيني وبينك بُعْدَ المشرقين» أيها القرين المصاحب الذي أمليت لي في الضلال «فبئس القرين» أنت ، أغويتني وأضللتني ! وإذ كان ذلك سيقع في الآخرة فنحن إذن أمام المشهد حاضراً لا مستقبلاً – على طريقة القرآن – وإذا النداء يوجه للقرين وقرينه : لن ينفعكم اليوم شيء من هذه الملاحاة ، ولن ينفعكم اشتراككم في العذاب شيئاً ، ولن يخفف منه نصيباً .

٢ – والمشهد الثاني مشهد المفاجأة بمجيء الساعة ، هذه المفاجأة تحدث حدثاً غريباً . «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو» بعد إذ كانوا أصدقاء رفقاء . وإن عداءهم لينبع من معين ودادهم . فلقد كانوا من قبل يجتمعون على الشر ، ويملي بعضهم لبعض في الضلال . فاليوم هم يتلاومون ، ويلقي بعضهم على بعض تبعة الضلال . فهم خصوم يتلاحون من حيث كانوا أخلاّء يتصافحون «إلا المتقين» فأولئك مودتهم باقية ، لأن اجتماعهم كان على هدى ، وتناصحهم كان إلى خير ، فلا مجال بينهم للسخط والنكر .

وحينما ندع الأخلاء يتلاحون ويتخاصمون ، نرهف آذاننا لنستمع إلى التكريم يناله المتقون : «يا عبادِ لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون» أي تسرون بما يشيع الحبور في نفوسكم ويظهره في سماتكم . ثم نشهد فإذا صحاف من ذهب وأكواب يطاف بها عليهم ، وإذا لهم في الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، ولهم فوق ذلك الخلود في هذا النعيم ، ولهم فوق الخلود التكريم : «وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون» ثم توكيد للنعيم وتفصيل «لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون» .

فما بال المجرمين الذين تركناهم منذ هنيهة يتلاحون ويختصمون ؟ إنهم في عذاب جهنم خالدون . وإنه لعذاب دائم وفي درجة شديدة عصيبة ، لا يُفَتَّر لحظة ولا يُبرد هنيهة . ولا تلوح لهم بارقة أمل في الخلاص منه ، فهم «فيه مبلسون» يائسون .

وهنا تصل إلى أسماعنا صيحة يبدو أنها آتية من بعيد ، ومن خلف الأبواب الموصدة في الجحيم . إنهم ينادون مالكاً خازن النار ، ليدعو ربه فيمنّ عليهم بالهلاك ! «ونادوا : يا مالك ليقض علينا ربك» فالموت هنا أمنية عظمى – وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا – وإن هذا النداء ليلقي ظلاً للضيق والألم المفزعين ؛ وإننا لنلمح من وراء صرخات الاستغاثة نفوساً أطار صوابها العذاب ، وأجساماً تجاوز الألم بها حد الطاقة ، فانبعثت منها الصيحة المريرة : «يا مالك ليقض علينا ربك» ولكن الجواب في تيئيس وتخذيل ، وبلا رعاية ولا اهتمام : «إنكم ماكثون» ! فلا خلاص ولا دعاء . فإنكم في العذاب مقيمون !

سورة الدخان[1]

﴿ إن يومَ الفَصْل ميقاتُهم أجمعين ، يوم لا يُغني مَوْلىً عن مولىً شيئاً ، ولا هم يُنصرون . إلا من رحمَ اللهُ ، إنه هو العزيز الرحيم . إن شجرة الزَّقُّوم . طعامُ الأثيم ، كالمُهْلِ يَغْلي في البطون ، كغَلْيِ الحميم . خُذوه فاعْتِلوه إلى سواء الجحيم ؛ ثم صُبُّوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذُقْ : إنك أنت العزيزُ الكريمُ ! إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ .

﴿ إن المتقين في مقامٍ أمينٍ : في جنات وعيون ، يَلبَسُون من سُندُس وإسْتَبْرقٍ متقابلين ، كذلك وزوجناهم بحورٍ عِينٍ ، يدعون فيها بكل فاكهةٍ آمنين ، لا يذوقون فيها الموتَ إلا الموتَةَ الأولى ، ووَقاهم عذاب الجحيم . فضلاً من ربك ، ذلك هو الفوزُ العظيم ﴾ .

* * *

نحن أمام مشهد قديم جديد ، سبق بعضه وبعضه فيه تجديد . فاليوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ، وهؤلاء وهؤلاء لا ينالون خلاصاً ولا نصراً . ونحن نعرف من قبل أن شجرة الزقوم طعام الأثيم . ولكن لم نكن نعرف ما الزقوم ، ولا أثره في البطون . نعم لقد تخيلنا من لفظة الزقوم وجرسها الخشن أن طلعها الذي كأنه رؤوس الشياطين ، يخز الحلوق والبطون . وقد علمنا في مشهد سابق أنهم يشربون على هذا الطعام من ماء شديد الحرارة ويشربون كأنهم الجمال المصابة بداء

(٢) السورة (٦٤) مكية .

الاستسقاء ، لا تشبع ولا تروى بالشراب . فالآن نشهد المجرمين يتناولون من هذا الزقوم ؛ ونعلم أنه كدردي الزيت يغلي في البطون كغلي الحميم . واليوم نشهد المجرم واقفاً في الساحة ، ونسمع الأمر الذي لا يرد إلى الزبانية : « خذوه فاعْتِلوه إلى سواء الجحيم » اعتلوه عَتْلاً إلى وسط الجحيم ، شدوه في قسوة وخشونة ، وهناك صبوا فوق رأسه من ذلك الحميم المغلي الذي يشوه الوجوه – وقد تم ذلك على أعيننا – وها نحن أولاء نسمع التأنيب يصاحب التعذيب : « ذق ، إنك أنت العزيز الكريم ! » وذلك جزاء العزيز الحكيم ، الشامخ المتعالي على المرسلين « إن هذا ما كنتم به تمترون » وما كنتم فيه تشكون .

وبينما يدور الأخذ والعتل والتعذيب والتأنيب في جانب ، نمد أبصارنا إلى الجانب الآخر . فإذا المتقون « في مقام أمين » لا شد فيه ولا جذب ، ولا عتل فيه ولا سحب ؛ منعمون رافلون في أنواع الحرير الرقيق والسميك ؛ وهم متقابلون في مجالسهم ومتكآتهم « وزوَجناهم بحور عين » . وهم كذلك أصحاب الدار « يدعون فيها بكل فاكهة آمنين » وهم فيها خالدون « لا يذوقون فيها الموت » فلا موت إلا الموتة الأولى التي نقلتهم إليها « ووقاهم عذاب الجحيم » وهذا وحده « هو الفوز العظيم » وهو فضل من رب العالمين .

سورة الجاثية [1]

﴿ ويومَ تقوم الساعةُ يومئذٍ يَخسَرُ المبْطِلون ؛ وتَرى كلَّ أمةٍ جاثيةً . كلُّ أمةٍ تُدْعى إلى كتابها . اليومَ تُجْزَوْنَ ما كنتم تعملون. هذا كتابُنا

---

(١) السورة (٦٥) مكية إلا آية .

ينطقُ عليكم بالحقِّ . إنا كنا نَسْتَنْسِخُ ما كنتم تعملون ﴾ .

﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فيدخلهم ربُّهم في رحمته ، ذلك هو الفوزُ المبين ﴾ .

﴿ وأما الذين كفروا : أفلم تكن آياتي تُتلَى عليكم ، فاستكبرتم ، وكنتم قوماً مجرمين . وإذا قيل : إنَّ وعدَ الله حقٌّ والساعةُ لا ريب فيها ، قلتم : ما ندري ما الساعة ، إن نظنُّ إلا ظنّاً وما نحن بمستيقنين ﴾ !

﴿ وبدا لهم سيئاتُ ما عملوا ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . وقيل : اليومَ ننساكم كما نسيتم لقاءَ يومكم هذا ، ومأواكم النارُ وما لكم من ناصرين. ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هُزُواً ، وغرَّتكم الحياةُ الدنيا . فاليوم لا يُخْرجون منها ولا هم يُسْتَعْتَبُون ﴾ .

* * *

لقد تجمعت الأمم في ساحة العرض الفسيحة ؛ وقد جثوا جميعاً متحفزين في ارتقاب النداء عليهم للحساب ؛ وقد نودوا جميعاً ذلك النداء الشامل ، وأعلنوا بالدعوى التي اجتمعوا لها من كل حدب وصوب : « اليومَ تُجزَوْن ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » . فكل سجلات الدعوى حاضرة بين أيدي الشاهدين !

فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فأمرهم هين يسير . وما هي إلا لحظة ، حتى يدخلهم ربهم في رحمته ؛ فيستريحوا من طول الارتقاب وما فيه من قلق واضطراب . فلنلق أبصارنا تجاه الآخرين !

إنه التأنيب الطويل ، والتشهير المخجل : «أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين ؟» أفلم تتجاهلوا هذا اليوم وتبدوا استخفافكم به ؟ «وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة ، إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين» ؟!

وبعد لفتة قصيرة إلى المشاهدين يشرح لهم فيها حالة القوم على طريقة التعليق في الاستعراضات الكبرى : «وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون» بعد هذا التعليق يعود التأنيب والتشهير في خطاب المجرمين : «اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ، ومأواكم النار وما لكم من ناصرين . ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا» .

ثم يلتفت إلى المشاهدين في تعليق أخير : «فاليوم لا يُخرجون منها ولا هم يُسْتَعْتَبون» . فلندعهم ولننصرف ، فليس في المشهد بعد هذا تغيير ولا تحوير !

سورة الأحقاف [1]

١ – ﴿ ويومَ يُعرَض الذين كفروا على النار : أذْهبْتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ، واستمتعتمْ بها . فاليوم تُجْزَوْنَ عذاب الهُونِ ، بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تَفْسُقون ﴾ .

٢ – ﴿ ويوم يُعْرَضُ الذين كفروا على النار : أليسَ هذا بالحق ؟ قالوا : بلى ! وربِّنا ! قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ .

* * *

(١) السورة (٦٦) مكية إلا ثلاث آيات متفرقات .

في المشهدين عرض للكافرين على النار ، واستفهام للتوبيخ والاستنكار ، ثم قرار ، فأما الأول فمواجهة وتقرير «أذْهبْتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها» فكأنما استنفدوا هذه الطيبات في الدنيا فلم يبقوا منها شيئاً للآخرة : بما أباحوا لأنفسهم من المتاع بلا حد ، والالتذاذ بلا حساب . فاليوم تجدون الهوان في العذاب في مقابل الاستكبار والفسوق .

وأما الثاني فحوار ينتهي إلى قرار : «أليس هذا بالحق» ؟ هذه النار التي تشاهدون أليست حقاً ؟ والجواب في استسلام وانخذال : «بلى ! وربنا» وَيْ ! أو تقسمون أيضاً ! فما هناك حاجة للإيمان : «فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» .

وهكذا في سرعة يتم الحوار ويصدر القرار . فهي «كلمة ورد غطاها» كما يقولون . الواقعة ثابتة ، الجاني معترف . فإلى الجحيم !

وسرعة المشهد هنا مقصودة ، فالمواجهة حاسمة ، ولا مجال لأخذ ولا ردّ . لقد كانوا ينكرون النار فلا جدال إذن ولا إنكار .

سورة الذاريات [1]

﴿قتِل الخَرَّاصُون ، الذين هم في غَمْرَةٍ ساهون ، يَسألون : أيَّانَ يومُ الدين ؟ يومَ هم على النار يُفْتَنُون ! ذوقوا فتنَتكم ، هذا الذي كنتم به تَستعجِلون . إن المتقين في جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربُّهم ، إنهم كانوا قبلَ ذلك محسنين ، كانوا قليلاً من الليل ما

(١) السورة (٦٧) مكية .

يَهْجَعُون ، وبالأسحارِ هم يَستغفرون ، وفي أموالهم حقٌّ للسائل والمحروم ﴾ .

* * *

يبدأ المشهد في الدنيا وينتهي في الآخرة . يبدأ بلعنة الكاذبين المتشككين ، الذين يغمرهم الضلال فيسهون عن النظر في آيات الله ، ولا يتوقعون الآخرة ، بل هم يتساءلون شاكّين مستبعدين ذلك اليوم « أيّان يوم الدين » ؟ .

والجواب هو عرض مشهد من مشاهد القيامة : فها هم أولاء يعرضون على النار لابتلائهم ، وها هو ذا القول يوجه إليهم بالتأنيب : « ذوقوا فتنتكم ، هذا الذي كنتم به تستعجلون » ! فطعم هذا العذاب هنا من طعم تلك الفتنة هناك !

وبينما هؤلاء في النار يذوقون فتنتهم ، إذا المتقون في نعيم « في جنات وعيون » وهم يتلقون هذا النعيم في قبول واطمئنان : فهو من عند ربهم ، وهم قد اعتادوا أن يتقبلوا كل ما يعطيهم الله بالقبول ، فما بال هذا النعيم المقيم ؟ ثم ها نحن أولاء نسمع « حيثيات الحكم » : « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون » ... إلخ ، فهم إذن مستحقون للنعيم ، والله لا يضيع أجر المحسنين . وإنهم ليأخذون اليوم لأنهم كانوا يعطون ، وكان في أموالهم حق للسائل والمحروم .

سورة الغاشية [1]

﴿ هلْ أتاك حديثُ الغاشية ؟ وجوهٌ يومئذٍ خاشعةٌ ، عاملةٌ

---

(١) السورة (٦٨) مكية .

ناصبةٌ ، تَصلَى ناراً حامية ، تُسْقَى من عينٍ آنِيَةٍ . ليس لهم طعامٌ إلاّ من ضَرِيعٍ ، لا يُسْمِنُ ولا يُغني من جوع ﴾ .

﴿ وجوهٌ يومئذٍ ناعمةٌ ، لسعيها راضيةٌ ، في جنةٍ عالية ، لا تسمع فيها لاغيةً . فيها عينٌ جارية ، فيها سُررٌ مرفوعة ، وأكوابٌ موضوعة ، ونمارِقُ مصفوفة ، وزَرَابيُّ مبثوثةٌ ﴾ .

* * *

الغاشية : القيامة ، وإنها لتغشى الناس كالداهية . والسؤال عنها هنا للتذكير وللتهويل . والجواب عليها مشهد ذو جانبين :

ففي جانب منه وجوه خاشعة ذليلة متعبة مرهقة ، « تصلى ناراً حامية » ، تسقى من عين بالغة الحرارة لا تُبرد ولا تُروي ، وتطعم من شوك ترعاه الإبل إذا كان رطباً وتعافه إذا جف ، « لا يسمن ولا يغني من جوع » فيجتمع على تلك الوجوه عذاب الروح بالذل والخزي ، إلى عذاب البدن بالنصب والنار ، إلى عذاب الظمأ والطوى ، والشراب والطعام بما هو أشد من الظمأ والطوى .

وفي الجانب الآخر مقابلة كاملة . فهناك وجوه ناعمة ، راضية عن مسعاها ، في جنة عالية هادئة ، لا تسمع فيها لاغية . وهناك عين جارية روية عذبة ، ولهم الراحة في السرر المرفوعة ، والأكواب المهيأة للشراب ، بل الترف في الوسائد المصفوفة ، والبسط المفروشة .

وذلك النعيم كله في يوم « الغاشية » ولهذا قيمته الخاصة . وهذا التقابل الكامل في جزئيات المشهد ، لون من ألوان التناسق في العرض وللتناسق في القرآن ألوان .

سورة الكهف[1]

١ - ﴿ إنَّا أعْتَدْنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرادِقُها ؛ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمُهْل يَشوي الوجوهَ . بئسَ الشرابُ ، وساءتْ مُرْتَفقاً ﴾ .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنَّا لا نُضِيع أجرَ من أحسنَ عملاً . أولئك لهم جناتُ عَدْنٍ تَجري من تحتهم الأنهارُ ، يُحَلَّوْن فيها من أساورَ من ذهبٍ ، ويلبسونَ ثياباً خُضْراً من سندسٍ وإستَبرقٍ ، متكئين فيها على الأرائكِ ، نِعم الثوابُ ، وحسنتْ مُرْتَفقاً ﴾ .

٢ - ﴿ ويومَ نُسَيِّر الجبال وتَرَى الأرضَ بارزةً ، وحشرناهم فلم نغادرْ منهم أحداً ، وعُرِضوا على ربِّك صَفاً . لقد جئتمونا كما خلقناكم أوَّل مَرَّةٍ ! بل زعمتم أنْ لنْ نجعلَ لكم موعِداً ! وَوُضع الكتابُ ، فترى المجرمين مُشفقين مما فيه ، ويقولون : يا ويلتَنا ! مالِ هذا الكتابِ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ؟ ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً ﴾ .

٣ - ﴿ ويومَ يقول : نادُوا شركائيَ الذين زعمتم ؛ فدعَوْهم ، فلم يستجيبوا لهم ، وجعلنا بينهم مَوْبِقاً . ورأى المجرمون النارَ ، فظنوا أنهم مُواقِعوها ، ولم يجدوا عنها مَصْرِفاً ﴾ .

* * *

---

(١) السورة (٦٩) مكية إلا تسع عشرة آية .

في هذه السورة ثلاثة مشاهد ، غير الإشارات العارضة والقصيرة لليوم الآخر :

١ - فأما المشهد الأول فمشهد النار في هيئة السرادق تحيط بالظالمين ، فإن استغاثوا من الحر والظمأ أغيثوا بماء كدرديّ الزيت المغلي يشوي الوجوه والجلود ، بله الحلوق والأمعاء . « بئس الشراب » ويا لسوء النار مكاناً للاتكاء والارتفاق . وفي ذكر الاتكاء والارتفاق في النار تهكم مرير . فما هم هنالك للاتكاء والارتفاق إنما هم للنصب والاشتواء . ولكنها مقابلة مع ارتفاق المؤمنين في الجنة ، وشتان شتان .

وبينما هؤلاء كذلك إذ الذين آمنوا في جنات عدن ، تجري من تحتهم الأنهار . بالري واعتدال النسيم . وهم هنالك للارتفاق حقاً : « متكئين فيها على الأرائك » وهم رافلون في ألوان من الحرير ، تزيد عليها أساور من ذهب للزينة والمتاع « نعم الثواب وحسنت مرتفقاً » .

٢ - وفي المشهد الثاني يتجلى الهول المادي في تسيير الجبال الراسية ، وبروز الأرض منها عارية ، فهي - كما رأينا في مشهد سالف - قاع صفصف لا عوج فيها ولا نتوء . ثم يلي ذلك مشهد الحشر الجامع الذي لا يخلف وراءه أحداً ، وعرض الجمع صفاً على « ربك » وهنا يجبهون بما سلف منهم من تكذيب . فنلمح الخزي على الوجوه ، والذل في الملامح : « لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة » ! جئتم أيها القوم وكنتم تزعمون أن لن تجيئوا أبداً « بلْ زعمتم أنْ لن نجعل لكم موعداً » ! فماذا ترون الآن ، وقد كان ما كان ؟!

« وَوُضع الكتاب » وهنا نلمح مشهداً فريداً . فهؤلاء هم المجرمون خائفين من هذا الكتاب وما فيه : ضيقي الصدور بدقته التي لا تفوتها فائتة « وقالوا : مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا

أحصاها ؟ » إنه لكذلك أيها الإخوان ، ولا حيلة لكم ولا مفر من هذا السجل الدقيق « ووجدوا ما عملوا حاضراً » شاخصاً حاضراً بنفسه كأنما جاء بلا مجيء . « ولا يظلم ربك أحداً » .

٣ – ومشهد الشركاء والمواجهة بهم يوم القيامة مشهد مكرر في عمومه . ولكن الجديد هنا أن يقال لهم « نادوا شركائي الذين زعمتم » فينسون أنهم في العالم الآخر ، وأن هؤلاء الشركاء لا يملكون لهم نفعاً ، ويدفعهم الهول لأن ينادوهم فعلاً : « فدعوْهم فلم يستجيبوا لهم » فلقد وضعت مهلكة بين الفريقين « وجعلنا بينهم مَوْبقاً » وكل منهما على حافة هذا الموبق ، وهو فاصل بينهما . وإنه للنار وقد رآها المجرمون ، فتوقعت نفوسهم أنهم واقعون فيها ، مختلطون بها وصح ما توقعوه « ولم يجدوا عنها مصرفاً » !

سورة النحل [1]

١ – ﴿ لِيَحْمِلوا أوزارَهم كاملةً يومَ القيامة ، ومِن أوزار الذين يُضلونهم بغير علم . ألا ساءَ ما يَزِرُون ! قد مكرَ الذين منْ قبلِهم ، فأتى اللهُ بنيانَهم من القواعد فخرَّ عليهم السقفُ من فوقهم ، وأتاهم العذابُ من حيثُ لا يشعرون ، ثم يومَ القيامةِ يُخزيهم ويقول : أين شركائيَ الذين كنتم تُشاقُّون فيهم ؟ قال الذين أُوتوا العِلْمَ : إنَّ الخزيَ اليومَ والسوءَ على الكافرين ، الذين تتوفَّاهم الملائكةُ ظالمي أنفسِهم ، فألقَوُا السَّلَمَ : ما كنَّا نعملُ من سوءٍ ، بلى ! إن اللهَ عليمٌ بما كنتم

(١) السورة (٧٠) مكية إلا ثلاث آيات .

تعملون . فادْخُلوا أبوابَ جهنمَ خالدين فيها ، فلبئس مثوَى المتكبرين ﴾ .

﴿ وقيل للذين اتَّقَوْا : ماذا أنزلَ ربكم ؟ قالوا : خيراً ، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنةٌ ، ولَدَارُ الآخرة خيرٌ ، ولَنِعْمَ دارُ المتَّقين : جناتُ عَدْنٍ يدخلونها تجري من تحتها الأنهارُ ، لهم فيها ما يشاءون . كذلك يجزي الله المتقين ، الذين تتوفّاهم الملائكةُ طيِّبين يقولون : سلامٌ عليكم ، ادخلوا الجنةَ بما كنتم تعملون ﴾ ..

٢ – ... ﴿ ويومَ نبعثُ من كل أمة شهيداً ، ثم لا يُؤذنُ للذين كفروا ولا هم يُسْتَعْتَبُون . وإذا رأى الذين ظلموا العذابَ ، فلا يُخفّفُ عنهم ولا هم ينظَرون . وإذا رأى الذين أشركوا شركاءَهم ، قالوا : ربَّنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنَّا ندعو من دونك ، فألقَوْا إليهم القولَ : إنكم لكاذبون ! وألقوا إلى الله يومئذٍ السَّلَم ، وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

٣ – ﴿ يومَ تأتي كلُّ نفسٍ تُجادل عن نفسِها ، وتُوَفَّى كل نفسٍ ما عملتْ وهم لا يُظلمون ﴾ .

* * *

١ – المشهد الأول من المشاهد المشتركة ، يسير موكبها من الحياة الدنيا فيمر بموقف الاحتضار ، ويجتازه تواً إلى الحياة الأخرى . فالحياتان متصلتان بهذا البرزخ ، والموكب متصل السير إلى موقف الجزاء ، فإما إلى جنة وإما إلى نار .

ويبدأ المشهد هنا بمنظر المجرمين يحملون على ظهورهم أوزاراً ،

وهي ذنوب في صورة مجسمة ، فهي أحمال تحمل على الظهور ، وهي أوزارهم الشخصية وبعض أوزار الذين أضلوهم وهم غافلون . ثم ينتقل العرض إلى ساحة الدنيا فنرى مصير قوم ماكرين قد هدم الله بنيانهم من القواعد ، وخر عليهم السقف من فوقهم ، وهم غافلون مبغوتون .

ومن هناك مباشرة ننتقل إلى يوم القيامة ، لنراهم في موقفٍ مخز مخجل ، يسألهم الله : أين شركائي الذين كنتم تجادلون المؤمنين فيهم ، وتعادونهم من أجلهم ، وتملأون الدنيا شقاقاً بسببهم ؟ ومشهد السؤال عن الشركاء مشهد متكرر ؛ ولكن له في كل مرة وجهاً جديداً . وهذا الوجه الجديد هنا ، هو أن الجواب على هذا السؤال يتولاه « الذين أوتوا العلم » حين يخجل المشركون ويصمتون ، فهم يقولون : « إن الخزيَ اليومَ والسوءَ على الكافرين » . فكأن « الذين أوتوا العلم » هؤلاء ، هم أصحاب الموقف ، ولهم الحق في أن يقرروا حقيقته ، وأن يثبتوا على الكافرين الخزي المهين . ثم يستمر أولوا العلم في الحديث ، ويستطردون في وصف هؤلاء الكافرين وتاريخهم القديم ؛ فيعرضون مشهداً لهم تتوفاهم الملائكة فيه وتقبض أرواحهم ، وهم ظالمون لأنفسهم ، وهم كاذبون أيضاً كعادتهم ؛ فما إن يواجهوا الملائكة ساعة الاحتضار حتى يستسلموا لهم بعد المكابرة ، ولكنهم يحاولون الكذب عليهم فيقولون ! « ما كنا نعمل من سوء » ! « بلى ! » لقد عُلِم : « إن الله عليم بما كنتم تعملون » !

ومن موقف الاحتضار رأساً إلى موقف الجزاء ، ومن الدار إلى النار : « فادخلوا أبوابَ جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين » .

ثم يستمر السياق بالمثل فيعبر بالذين اتقوا نفس المراحل ، ويقف

بهم في ذات المشاهد . ولكن الأمر بالعكس ، كما يبدو من نص الآيات ، وهي ليست بحاجة إلى التفسير .

٢ – أما المشهد الثاني فهو مشهد الشركاء أيضاً ، ولكن فيه عنصراً جديداً طريفاً . فها هم أولاء الذين كفروا في الموقف الرهيب لا يؤذن لهم في شفاعة ، ولا يطلب منهم عتاب ؛ ولكنهم يلمحون شركاءهم الذين عبدوهم من دون الله ، فيصيحون مشيرين إليهم : « ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك » وكأنما هم يحرضون على هؤلاء الشركاء خفية أن يفلتوا من الجزاء ! عندئذ يرتاع شركاؤهم للاتهام ، فيجبهونهم بشدة : « إنكم لكاذبون » ثم يتجهون إلى الله – وهم كانوا آلهة ! – فيستسلمون إليه في إذعان . وينتهي الأمر ، ويخضع الجميع للواحد الديان .

٣ – والمشهد الثالث يصور لنا ذلك الهول الذي صوره من قبل قوله : « لكلِّ أمرئٍ منهم يومئذٍ شأن يغنيه » فكل نفس لا يشغلها إلا نفسها ، وقد جاءت منفردة ، وهي في وسط هذا الخضم من المحشورين لا تحس بشيء إلا بذاتها ، فهي تجادل عن نفسها ، تدافع أو تحاول الدفاع ، وتروم الخلاص ، ولا مجال هناك للخلاص .

فكل نفس توفّى ما عملت ، فلا ينفع الجدل ، ولا تؤخذ الحجة ، وهم مع ذلك لا يظلمون . فكل شيء في كتاب مبين .

سورة إبراهيم [1]

١ – ﴿ واستفتحوا وخاب كلُّ جبار عنيد ، من ورائه جهنمُ ،

(١) السورة (٧٢) مكية إلا آيتين . سبقتها سورة نوح وليس فيها شيء من مشاهد القيامة وإن لم تخل من إشارة .

ويُسقى من ماءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرّعُه ولا يكاد يُسيغه ، ويأتيه الموتُ من كُلِّ مكان – وما هو بميِّت – ومِن ورائه عذابٌ غليظٌ ﴾ .

٢ – ﴿ وبَرَزُوا لله جميعاً ؛ فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنَّا كُنَّا لكم تبَعاً ، فهل أنتم مُغْنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا : لو هدانا اللهُ لهديناكم ، سواءٌ علينا أجَزِعْنا أم صَبَرنا ، ما لَنا من مَحيص . وقال الشيطانُ لما قُضِيَ الأمرُ : إن اللهَ وعَدَكم وعْدَ الحقِّ ، ووعدتُكم فأخلفتُكم ، وما كان لي عليكم من سُلطان إلا أن دعوتكم فاستجبْتم لي ؛ فلا تلوموني ولوموا أنفسَكم ، ما أنا بِمُصرِخِكم ، وما أنتم بِمُصرِخيَّ ، إني كفرتُ بما أشركتمونِ من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ .

٣ – ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ الله غافلاً عما يعملُ الظالمون . إنما يؤخرهم ليومٍ تَشْخَصُ فيه الأبصار . مُهْطِعِين ، مقنِعي رءُوسِهم ، لا يرتدُّ إليهم طرفُهم ، وأفئدتُهم هواء ﴾ .

٤ – ﴿ وأنذِرِ الناسَ يوم يأتيهمُ العذابُ ، فيقول الذين ظلموا : ربَّنا أخِّرْنا إلى أجلٍ قريبٍ ، نُجِبْ دعوتَك ، ونتَّبِعِ الرسُلَ . أوَلَمْ تكونوا أقسمتم من قبلُ ما لكم من زَوالٍ ؟ وسكنتمُ في مساكن الذين ظلموا أنفسَهم ، وتبيَّن لكم كيف فعَلنا بهم ، وضربْنا لكم الأمثالَ ؟ ﴾

٥ – ﴿ يومَ تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمٰواتُ ، وبرزوا لله

الواحدِ القهار . وتَرى المجرمين يومئذٍ مُقرَّنين في الأصفادِ ، سرابيلهم من قَطِرَانٍ ، وتَغشى وجوههم النار﴾ .

* * *

١ – في المشهد الأول طرافة . فجهنم مؤجلة للآخرة ، ولكنها كذلك حاضرة في الدنيا ! فها هم أولاء يستفتحون على الله في الدنيا ، يطلبون أن يفتح الله على الذين هم على الحق ، ويخيب الذين هم على الباطل . وقد استجاب الله الدعاء «وخاب كل جبار عنيد» وإنه لهنا في هذه الدار ، ولكن جهنم من ورائه وهو منها على شفا جرف هار . لا بل إنه في جهنم تأتيه فيها أسباب الموت من كل مكان ؛ ولكنه لا ينال الموت ولا يرتاح «ومن ورائه عذاب غليظ» ينتظره في كل حين .

وإنه لمشهد طريف أن يقف الجبار في الدنيا ، وتقف من خلفه جهنم : «ومن ورائه عذاب غليظ» يتراءى للخيال ، ويكاد يتمثل في العيان .

٢ – والمشهد الثاني مشهد الذين استكبروا والذين استضعفوا . وقد مرت له نظائر ؛ ولكنه هنا طريف كذلك بما أدخل عليه من التجديد ؛ وبسبب دخول شخصية جديدة في الحوار ، هي شخصية الشيطان ..

وفي هذا المشهد تتجسم للخيال ثلاث فرق :

الضعفاء : الذين كانوا ذيولاً للأقوياء . وهم ما يزالون في ضعفهم وقصر عقولهم ، وخور نفوسهم . يلجأون إلى الذين استكبروا في الدنيا ، يسألونهم الخلاص من هذا الموقف ، ويعتبون عليهم إغواءهم في الحياة ، متمشين في هذا مع طبيعتهم الهزيلة وضعفهم المعروف .

والذين استكبروا : قد ذلت كبرياؤهم ، وواجهوا مصيرهم .

وهم ضيقو الصدور بهؤلاء الضعفاء ، الذين لا يكفيهم ما يرونهم فيه من ذلة وعذاب ، فيسألونهم الخلاص ، وهم لا يملكون لذات أنفسهم خلاصاً ، أو يذكرونهم بجريمة إغوائهم لهم حيث لا تنفع الذكرى . فما يزيدون على أن يقولوا لهم في سأم وضيق : « لو هدانا الله لهدينا كم ».

والشيطان : بكل ما في شخصيته من مراوغة ومغالطة ، واستهتار وتبجح ، ومكر « وشيطنة » . يعترف لأتباعه – الآن فقط – بأن الله وعدهم وعْدَ الحق ، وأنه هو وعدهم فأخلفهم ؛ ثم يمضهم ويؤلمهم ، وهو ينفض يديه من تبعاتهم : « وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم » لا بل يزيد في تبجحه ، فيقول : « إني كفرت بما أشركتمون من قبل » ولقد أنكرت شرككم وإشراككم بي مع الله !

حقاً . إنه لشيطان !

وإن هذا لهو الإبداع في تصوير الموقف ، الذي يتخلى فيه التابع عن المتبوع ، ويتنكر المتبوع للتابع ، حيث لا يجدي أحداً منهم أن يتخلى أو يستمسك ، ولكنها طبيعة كل فريق ، تبرز عارية أمام الهول العظيم .

وإن الشيطان هنا لمنطقي مع نفسه ، ومع الصورة التي يرسمها القرآن له . وإلا فما يكون شيطاناً بغير هذا التلاعب والتبجح والإنكار !

٣ – والمشهد الثالث يتألف من أربع صور متتابعة متواكبة ، أو أربعة مشاهد لصورة واحدة ، يتلو بعضها بعضاً ، فتتم بها لوحة شاخصة في الخيال . وهي لوحة فريدة للفزع والخجل والرهبة والاستسلام ، يجللها ظل ساهم كئيب ، يكمد الأنفاس . فها هي ذي الأبصار شاخصة لا تطرف ولا تتحرك . وهؤلاء هم مسرعين في مشيتهم ،

رافعين رؤوسهم ، لا لكبرياء ، ولكن لتقيد أجسامهم وتخشبها . لا تطرف أبصارهم ولا تنقل إليهم شيئاً مما ترى . وقلوبهم فارغة يطير بها الفزع وتستبد بها الحيرة .

إنه لمشهد كامل لا تنقصه سمة من السمات . مشهد الهول يتبدى في الملامح والسمات ، ويلقي ظله على النفوس والقسمات .

٤ – والمشهد الرابع مشهد الظالمين « يوم يأتيهم العذاب » وإذا هم يتقدمون ضارعين « ربّنا أخّرْنا إلى أجل قريب ، نُجبْ دعوتك ونتّبع الرسل » ، وهنا ينصب عليهم التأنيب انصباباً : « أوَ لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟ » حينما خدعتكم الحياة فنسيتم الموت ونسيتم البعث ، وعميتم عن رؤية مصائر الظالمين قبلكم ، وهي حاضرة أمامكم إذ سكنتم مساكنهم « وتبين لكم كيف فعلنا بهم » فلم يؤثر ذلك في نفوسكم ، وضربنا لكم الأمثال ، فلم يكن لكم فيها اعتبار .

وهنا ينتهي المشهد ؛ وقد جُبهوا بما كان منهم ، وتبين أن لا موضع لرجائهم ، ولا مجال لإرجائهم .

٥ – والمشهد الخامس مشهد التغيير الشامل لكل ما يعهده الناس في الدنيا ، فالموقف هنا جديد طارئ على أبصارهم وحواسهم « يوم تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض والسموات » فكل شيء قد تبدَّل ، وهم اليوم في وضع جديد « وبرزوا لله الواحد القهار » بلا وقاية ولا ستار . وفي ذلك من الوحشة والهول ما فيه . وحشة الغربة في عالم جديد ، ورهبة البروز للواحد القهار .

ثم انظر فإنك لتبصر منظراً عجباً « وترى المجرمين يومئذ مقرّنين في الأصفاد » وهم أردية ولكنها من « قطران » فيها منه السواد والتلطيخ والقابلية للاشتعال . وهم يساقون اثنين اثنين في الأصفاد ، أو مقرونة

أيديهم إلى أرجلهم فيها « وتغشى وجوههم النار » وإن الخيال ليتم حركة الاشتعال في السرابيل المتخذة من قطران !

فالهول هول مادي ومعنوي ، في تبدل الأرض ، وفي البروز للواحد القهار . والعذاب عذاب حسي ومعنوي ، في غشيان النار لوجوههم ، وفي تقرينهم في الأصفاد . وهذه سمة الإهانة والاحتقار .

سورة الأنبياء (1)

١ - ﴿ ويقولون : متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين ؟ لو يعلمُ الذين كفروا حينَ لا يكفُّون عن وجوههم النارَ ولا عن ظهورهم ، ولا هم يُنصرون ؛ بل تأتيهم بغتةً فتَبْهَتُهم ، فلا يستطيعون ردَّها ، ولا هم يُنظَرُون ﴾ .

٢ - ﴿ واقتربَ الوعدُ الحقُّ ، فإذا هي شاخصةٌ أبصارُ الذين كفروا ، يا ويلنا ! قد كنا في غفلة من هذا ، بل كنا ظالمين ! . إنكم وما تَعبدون من دون الله حَصَبُ جهَنمَ ، أنتم لها وارِدُون . لو كان هؤلاء آلهةً ما وَرِدُوها ، وكلٌّ فيها خالدون ، لهم فيها زفيرٌ وهم فيها لا يَسمعون ﴾ .

﴿ إنَّ الذين سَبقتْ لهم منّا الحُسنى أولئك عنها مُبْعَدون ، لا يَسمعون حَسِيسهَا ، وهم في ما اشتهت أنفُسهم خالدون ، لا يَحزُنهم الفزَعُ الأكبرُ ، وَتَتَلقَّاهم الملائكةُ : هذا يومكم الذي كنتم توعَدون ﴾ .

---

(1) السورة (٧٣) مكية .

﴿ يوم نَطوِي السماءَ كطيِّ السِّجل للكُتُب ، كما بَدأْنا أوَّلَ خلقٍ نُعيده ، وَعْداً علينا ، إنّا كنَّا فَاعِلِينَ ﴾ .

* * *

١ - في المشهد الأول نرى الذين كفروا تنوشهم النار من كل جانب ، وهم يحاولون في حركة مُخبَّلة يرسمها الخيال ، أن يكفوا النار عن وجوههم وعن ظهورهم وهي تنوشهم فلا يستطيعون : وكأنما تلقفتهم النار بغتة ، ففقدوا قدرتهم على التصرف ، ومقدرتهم على التفكير ، ووقفوا مشدوهين تتناولهم النار من كل جانب ، فلا يستطيعون ردها ، ولا يؤخر عنهم العذاب ، ولا يمهلون إلى أجل قريب . وهذه المباغتة في مقابل الاستعجال . فلقد كانوا يقولون : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » فكان الرد هو هذه البغتة التي تذهل العقول ، وتعجز المعذبين عن ردها ، وتحرمهم المهلة والتأجيل !

٢ - ثم يمضي السياق في السورة ، فيعرض مشهداً آخر فيه من المشهد الأول عنصر المفاجأة التي تبهت المفجوئين : « فإذا هي شاخصةٌ أبصارُ الذين كفروا » ويقدم في التعبير كلمة « شاخصة » لترسم المشهد المطلوب ؛ ثم يميل السياق عن الرسم والتصوير ، إلى الحوار المباشر فهؤلاء الشاخصة أبصارهم في الساحة يتكلمون : « يا ويلنا ! قد كنا في غفلةٍ من هذا ، بل كنا ظالمين » وهي تفجع المفجوء التي تتكشف له الحقيقة المروعة بغتة ، فيتفجع ويعترف ويندم ، ولكن بعد فوات الأوان !

وحين يصدر هذا الاعتراف في ذهول المفاجأة : يصدر الحكم القاطع : « إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم أنتم لها واردون » .

وكأنما نحن في الساحة نشهد ورودهم مع آلهتهم إلى جهنم ، فهم حطبها ووقودها ، وعندئذ يوجه البرهان من هذا الواقع المشهود : «لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها» وهو برهان وجداني يعتمد على هذا المشهد المعروض للخيال قبل وقوعه بأجيال ! ثم يستمر السياق على أنهم قد وردوا جهنم فعلاً ، فيصف حالهم فيها ، وهي حال المكروب المذهوب بإدراكه : «لهم فيها زفير وشهيق وهم فيها لا يَسْمَعون» .

وندع هؤلاء لنجد المؤمنين في نجوة من هذا كله : «أولئك عنها مبعَدُون ، لا يسمعون حَسِيسَها» ولفظة «الحسيس» من الألفاظ المصورة بجرسها لحقيقتها . وإنه لجَرْس يتفزع له الجلد ويقشعر : «حسيس النار» ولذلك نُجِّي من سماعه «الذين سبقت لهم منا الحسنى» فنجوا من «الفزع الأكبر» وتولى الملائكة مصاحبتهم لتطمئن قلوبهم منه ؛ وإنهم ليدخلون إلى نفوسهم الطمأنينة بالترحيب والتكريم : «هذا يومكم الذي كنتم توعدون» .

ويختم المشهد بالمنظر المصاحب له ، ذلك أن السماء قد طويت في هذا اليوم كما يطوي خازن الكتب كتبه ، فلمت أطرافها ، وحزمت رقعتها ، أو أنها كوِّرت ، كما جاء في موضع آخر من القرآن .

وهو مشهد انقلاب وانتهاء ، «كما بدأنا أول خلق نعيده» ذلك وعد الله : «وعداً علينا إنا كنَّا فاعلين» .

سورة المؤمنون[1]

﴿حتى إذا جاء أحَدَهم الموتُ قال : ربِّ ارْجِعونِ ، لعلِّي أعملُ

(١) السورة (٧٤) مكية .

صالحاً فيما تركتُ . كلاّ ! إنها كلمةٌ هو قائلُها ؛ ومن ورائهم برزخٌ إلى يوم يُبعثون .

﴿ فإذا نُفخ في الصُّور فلا أَنْسابَ بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون . فمن ثقُلتْ موازينُه فأُولئك هم المفلِحُون ؛ ومن خفَّتْ موازينُه فأُولئك الذين خسروا أنفسَهم في جهنم خالدون ، تلفَحُ وجوهَهم النارُ ، وهم فيها كالحون . ألم تكن آياتي تُتلى عليكم ، فكنتم بها تكذِّبون ؟ قالوا : ربَّنا غلبتْ علينا شِقْوَتُنا ، وكنّا قوماً ضالين . ربَّنا أخرِجْنا منها ، فإن عُدْنا فإنا ظالمون . قال : اخسَئُوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريقٌ من عبادي يقولون : ربَّنا آمنَّا فاغفرْ لنا وارحمْنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سِخْرِيّاً حتى أنْسَوْكم ذِكْري ، وكنتم منهم تضحكون . إني جَزَيْتُهم اليومَ بما صبروا أنَّهم هم الفائزون ﴾ .

﴿ قال : كم لبثُتم في الأرض عَدَدَ سنين ؟ قالوا : لبِثنا يوماً أو بعضَ يوم فاسأل العادِّين ! قال : إنْ لبثتم إلا قليلاً ، لو أنكم كنتم تَعلمون . أفَحَسِبتم أنّما خَلقناكم عَبَثاً ، وأنكم إلينا لا تُرجعون ؟ ﴾ .

* * *

يبدأ المشهد هنا بمنظر الاحتضار ، وإعلان التوبة لدى قدوم الموت ، وطلب الرجعة إلى الدنيا لتدارك ما فات . وكأنما نحن نشهد المنظر . فإذا الرد على هذا التمني لا يوجه إلى صاحبه ، بل يوجه إلى النظارة عامة ! « كلا ! إنها كلمة هو قائلها » فهي كلمة لا معنى لها ،

ولا تجوز العناية بقائلها . هي كلمة الموقف الرهيب ، فلا ثمرة لها ولا استجابة ، وهو هناك حيث فارقته الروح «ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون» .

ولا يطول المكوث . فقد نفخ في الصور ، فاستيقظوا وقد تقطعت بينهم الروابط «فلا أنساب بينهم يومئذ» وشملهم الهول بالصمت ، فهم ساكنون لا يتحدثون «ولا يتساءلون» . ثم يعرض السياق ميزان الحسنات والسيئات مجسماً – كما مر في مشهد آخر – ولا يقف عنده طويلاً . فهناك مشهد جديد :

لقد تمت عملية الوزن هنا بسرعة وانتهت ، فلنتبع خطوات «الذين خسروا أنفسهم» ها هم أولاء «تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون» وهذا العذاب الحسي في كفة ، وما يلقونه من الإحراج والتبكيت في كفة أخرى . فلنسمع لهذا الحوار الطويل : «ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ؟» وهنا يخيل إليهم أنهم مأذونون في الحديث ، مسموح لهم بالرجاء ، وأن الاعتراف قد يجدي في قبول الرجاء : «قالوا ربّنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين» وهو اعتراف تبدو فيه المرارة والشقوة «ربَنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون» وكأنما قد تجاوزوا حدهم وأساءوا أدبهم . فلم يكن مأذوناً لهم إلا بالإجابة على قدر السؤال . بل لعله سؤال لا يطلب عليه جواب . فهم يزجرون زجراً قاسياً عنيفاً : «قال : اخسئوا فيها ولا تُكلمونِ» اخرسوا ، واسكتوا سكوت الأذلاء المهينين . فإنكم لتستحقون ما أنتم مقارفون : «إنه كان فريق من عبادي يقولون : ربّنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخْرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون» فلم يكن جرمكم أنكم قد كفرتم واقتصرتم على أنفسكم

إنما بلغ بكم السفه أن تسخروا ممن يؤمنون ، وممن يرجون رحمة الله من المؤمنين ، وتضحكوا عليهم فانظروا : «إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون» !

وبعد الرد القاسي المهين ، وبيان أسبابه وما في البيان من تعزيز وتبكيت ، يبدأ استجواب جديد : «قال : كم بعثتم في الأرض عدد سنين ؟» وإنهم لا يعلمون كم لبثوا ، فهم يجيبون : «لبثنا يوماً أو بعض يوم» وإنهم لبائسون ضيقون ، فما هنالك جدوى ، طالت هذه الأيام أم قصرت «فاسأل العادين» فما نحن بحاسبين ! والرد : إنكم لم تلبثوا على كل حال إلا قليلاً ، بالقياس إلى ما سيكون . فلقد بعثنا كم سريعاً ، ولم يكن من ذلك بد «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون» فكفرتم وفجرتم ؟ فانظروا الآن أين أنتم مما كنتم تحسبون ؟

سورة السجدة (١)

١ - ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربِّهم . ربنا أبْصَرْنا وسمَعْنا ، فارجعنا نعمل صالحاً ، إنا موقنون ﴾ .

٢ - ﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جناتُ المأوَى نُزُلاً بما كانوا يعملون . وأما الذين فسَقوا فمأواهم النارُ ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها ، وقيل لهم : ذوقوا عذابَ النارِ الذي كنتم به تكذّبون ﴾ .

(١) السورة (٧٥) مكية إلا خمس آيات .

١ – المشهد الأول مشهد المجرمين عند ربهم منكسي الرؤوس ، لا ترتفع جباههم من الخزى ، ولا تتوجه أبصارهم من الذل . ولإحياء المشهد وإحضاره يعدل السياق عن أسلوب الحكاية إلى أسلوب الخطاب . فما يكاد يعرض هؤلاء المجرمين في هيئتهم تلك ، حتى نسمعهم مباشرة يتحدثون . وكأنما كانت الجملة الأولى رفعاً للستار عن المشهد لنرى المجرمين ونسمعهم وهم منكسو الرؤوس يقولون : «ربنا أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون» الآن وبعد فوات الأوان !

٢ – أما المشهد الثاني فوارد في الآيات المدنية ، وإذن فوضعه هناك حينما نصل إلى السور المدنية ، وإن كان هذا لا يهدينا إلى موضع هذه الآيات وترتيبها بالقياس إلى السور المدنية . ولكننا نتحسس مع ذلك إذا لاحظنا أن المشهد الذي يعرض هنا كثير الشبه بمشهد سيأتي في سورة (الحج) المدنية . وقد لاحظنا أن كثيراً من المشاهد المتشابهة أو المتقاربة تأتي في سور متوالية . ولكن هذا كله مجرد حدس وفرض . لأنه لا يقين في شيء من ترتيب النزول . فلينظر القارئ هذا المشهد عندما نعرض مشهد سورة الحج فيما يأتي إن شاء الله .

سورة الطور [١]

﴿ والطُّورِ ؛ وَكتابٍ مسطورٍ ، في رقٍّ منشورٍ ؛ والبيتِ المعمورِ ؛

---

(١) السورة (٧٦) مكية .

والسقفِ المرفوعِ ، والبَحرِ المسْجُورِ : إنّ عذاب ربِّك لواقعٌ ، ما له مِنْ دافعٍ ، يومَ تمورُ السماءُ مَوْراً ، وتَسْيرُ الجبالُ سيراً . فويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين ، الذين هم في خَوْضٍ يلعبون ، يومَ يُدَعُّون إلى نار جهنم دَعًّا . هذه النارُ التي كنتمْ بها تكذبُون . أفَسِحْرٌ هذا أم أنتمْ لا تُبْصِرون ؟ اِصْلَوْها ، فاصبروا أو لا تصبروا سواءٌ عليكم ، إنما تُجْزَوْنَ ما كنتم تعملون ﴾ .

﴿ إن المتَّقين في جَنَّاتٍ ونعيم ، فَاكِهين بما آتاهُم ربهم ، ووقاهم ربهم عذابَ الجحيم . كلوا واشرَبُوا هَنِيئاً بما كُنْتم تعملون . متكئين فيها على سُرُرٍ مصفوفةٍ ، وزوّجناهم بحُورٍ عِينٍ . والذين آمنوا واتَّبعتْهمْ ذريتُهم بإيمانٍ ألحقْنا بهم ذريَّتهم ، وما أَلَتْنَاهُم[1] من عملهم من شيءٍ ، كلُّ امرئٍ بما كَسَب رهينٌ . وأمددناهم بفاكهةٍ ولحمٍ مما يشتهون . يتنازعون فيها كأساً لا لغوٌ فيها ولا تأثيمٌ ، ويَطوف عليهم غِلمانٌ لهم كأنهم لؤلؤٌ مكنونٌ ؛ وأقبل بعضُهم على بعضٍ يتساءلون : قالوا : إنّا كنا قبلُ في أهلِنا مُشْفقين ، فمَنَّ اللهُ علينا ، ووقانا عذابَ السَّمُوم . إنّا كنا من قبلُ ندعُوه ، إنه هو البرُّ الرحيمُ ﴾ .

* * *

---

(١) نقصناهم .

في هذه المشاهد يبدو لون من تداعي الصور والخواطر بطريقة خفية تحتاج في ملاحظتها إلى حس شاعر ذي تجربة ، يدرك كيف تتداعى الصور والخواطر في الحس ، وإن بعدت بينها في الظاهر الصلات .

فهنا قسم بأشياء على وقوع أشياء . وبين الطائفة الأولى والطائفة الثانية هذا اللون من التداعي والتناسق . وقد سبق في سورة « العاديات » وفي سورة « المرسلات » لونان آخران بينهما بعض الفروق .

هنا قسم بالطور ، ذلك الجبل الذي يوحي لقارئ القرآن بقصة موسى وبالألواح التي كتبت له في الجبل ؛ ويلي القسم بالطور ، القَسَم بالكتاب المسطور في رق منشور . وهذا هو التداعي الأول . ويليهما قَسَم بالبيت المعمور ، وهو المكان المقدس للمسلمين ، كما أن الطور المقدس لموسى . وهذا هو التداعي الثاني . وبالسقف المرفوع – والمقصود به هنا السماء – وهي تتداعى مع المقدسات المذكورة من الناحية المعنوية وكلمة السقف تتداعى مع البيت من الوجهة اللفظية والتصويرية . وهذا هو التداعي الثالث . وبالبحر المسجور ، وهو يتداعى مع السماء من جهة التصوير ومن جهة المنظور . وهذا هو التداعي الرابع .

ذلك في القِسْم الأول الخاص بالقَسَم . أما في القِسْم الخاص بالمقسم عليه ، فيجري تداعي الصور والخواطر على نفس النسق :

« والطور ، وكتاب مسطور » ... إلخ « إن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع » ثم يأخذ في عرض مشاهد اليوم الذي يقع فيه العذاب :

« يوم تمور السماء مَوْراً » فذلك تداع مع السقف المرفوع . « وتسير الجبال سيراً » فذلك تداع مع الطور . « فويل يومئذ للمكذبين ، الذين هم في خوض يلعبون » فيتداعى الخوض من بعيد مع البحر المسجور .

ويتم هذا التداعي الخفي اللطيف بين الصور والخواطر ، فيدركه الحس الدقيق الشاعر ، وتتسق به المشاهد والمناظر .

وتتوالى المشاهد بعد ذلك مصورة طريقة العذاب ، مفصلة ذلك الويل الذي ينتظر المكذبين :

ها هم أولاء «يُدَعُّون إلى نار جهنم دعاً» ولفظة الدعّ لفظة مصورة بجرسها لمعناها ، يكاد سامعها يحس بالدفع في ظهور المكذبين ، وهم يزخون مدفوعين . تناسباً مع الخوض واللعب الذي كانوا فيه . وبينما هم يدعّون في عنف وضغط ، يشار إلى جهنم ويقال : «هذه النار التي كنتم بها تكذّبون» ثم ينتقل السياق من لهجة التقرير إلى لهجة التهكم والاستنكار : «أفسحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون» ؟ أفسحرٌ ما ترون رأي العين كما كنتم تقولون عن الآيات وفي مقدمتها القرآن ، أم قد عميتم فلا ترون ما تشهدون ؟ ثم يعود السياق إلى الأمر والتقرير : «اصْلَوْها ، فاصبروا أو لا تصبروا سواءٌ عليكم» فلا مخرج منها ولا فرار «إنما تجزون ما كنتم تعملون» فهو جزاء مقرر ، له أسبابه فلن يتغير .

وعلى عادة القرآن في عرض جانبي العذاب والنعيم متجاورين – وفي الغالب متقابلين – يعرض السياق مشهد النعيم هنا ، وهو نعيم حسي ونفسي عرضت له نظائر من قبل . ولكن فيه جديداً هنا هو ذكر الذرية الصالحة تتبع الوالدين ، ولا ينقص ذلك من نصيب هؤلاء شيئاً ولا هؤلاء .

ويلفت نظرنا كذلك تعبير جديد عن الكأس التي يشربونها في دار النعيم . فهم (يتنازعونها) ولا تنازع في دار الرضى ، إنما هو التجاذب والتبادل ، زيادة في الصفاء ، وتلذذاً بالكأس المشتركة تدار على الأصفياء . كما يلفت نظرنا تعبير جديد عن الغلمان الذين يطوفون

بهذه الكأس ؛ فهؤلاء الغلمان مخصصون كالمملوكين لأهل النعيم «ويطوف عليهم غِلمان لهم ، كأنهم لؤلؤ مكنون» من النضارة والصباحة والصيانة أيضاً . والكأس «لا لغو فيها ولا تأثيم» وهو تعبير لطيف ، فهذه الكأس لا لغو فيها . كأنما اللغو الذي يهذر به الشاربون من خمر الدنيا كامن في ذات الكأس التي بها يشربون . أما هذه الكأس الفردوسية فبرأة من اللغو ، مبرأة من الإثم أيضاً !

والمشهد الأخير هو مشهد السمر بين المتكئين على السرر المرفوعة ، الشاربين من الكأس الرّوية ، الطاعمين من الفاكهة الشهية . مشهد السمر والذكريات : «وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون» ويتذاكرون أسباب النعيم الذي يتمتعون به اليوم : «قالوا : إنا كنا في أهلنا مشفقين» خائفين من هذا اليوم وما فيه ونحن «في أهلنا» آمنون . «فمنّ الله علينا ووقانا عذابَ السَّمُوم» الذي يصلاه المكذبون . «إنا كنا من قبل ندعوه . إنه هو البر الرحيم» وهذا هو سِرّ ما نحن اليوم فيه من نعيم .

وبهذا المشهد تتم صورة المتاع . فهو متاع الحس ، ومتاع الخاطر ، ومتاع الضمير .

سورة الملك [1]

١ - ﴿ولِلذين كفروا بربهم عذابُ جهنم وبئسَ المصيرُ . إذا أُلقُوا فيها سَمِعوا لها شهيقاً وهي تَفُورُ . تكادُ تَميَّزُ من الغيْظ ، كلما أُلْقِيَ فيها فوجٌ سأَلهم خَزَنَتُها : ألم يأتِكم نذيرٌ ؟ قالوا : بلى ! قد جاءنا

(١) السورة (٧٧) مكية .

نذيرٌ ، فكذَّبْنا وقُلنا : ما نزّلَ اللهُ من شيء ، إن أنتم إلا في ضلالٍ كبيرٍ . وقالوا : لو كنا نَسمعُ أو نعقِلُ ما كنا في أصحاب السعيرِ ! . فاعترفُوا بذنبهم ، فَسُحْقاً لأصحاب السعيرِ . إن الذين يخشَوْن ربَّهم بالغيب لهم مغفِرةٌ وأجرٌ كبيرٌ﴾ .

٢ - ... ﴿ ويقولون : متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين . قل : إنما العلمُ عند الله وإنما أنا نذيرٌ مبينٌ . فلما رأوْه زُلفَةً سِيئَتْ وجوهُ الذين كفروا . وقيل : هذا الذي كنتم به تَدَّعُون﴾ .

* * *

التشخيص طريقة من طرق التصوير ، تردُّ الصورة حية ، وتمنح الجوامد والخواطر شخصية آدمية أوقع في الحس ، وأجمل في النفس . وجهنم في هذا المشهد حية متحركة ، يُلقى إليها الذين كفروا كما يلقون إلى الغول ، فتتلقاهم بشهيق وهي تفور ، يملأ « نفسها » الغيظ حتى لتكاد جوانبها تتفجر من الحقد .

إنه مشهد مروّع ، تضطرب له القلوب ، وتقشعر لهوله الجلود . وبينما هم في فزع من هذه الغول التي تتميز من الغيظ وهي تتلقفهم بشهيق وهي تفور ، نسمع خزنتها وحراسها يتلقون كل فوج مدفوع بسؤال واحد مكرور . فكلهم ذوو شأن واحد مكرور : « ألم يأتكم نذير ؟ » والجواب في ذل الاعتراف وخجل الانكسار : « بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا » بل تبجحنا في الإنكار « وقلنا : ما نزّل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير » أيها الرسل ، ونحن على هدى مبين ! ثم تطّرد موجة الاعتراف والانخذال ، فإذا بهم ينفون عن أنفسهم السمع

والعقل : «وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير» فما يذهب الإنسان إلى السعير إلا وقد فقد السمع الذي يستمع إلى الهدى ، وفقد العقل الذي يقود إلى الحق «فاعترفوا بذنبهم فسُحقاً لأصحاب السعير» .

وعلى الجانب الآخر في اختصار «الذين يخشون ربهم بالغيب» دون أن يشهدوه . أولئك «لهم مغفرة وأجر كبير» .

٢ – والمشهد الثاني يتم بطريقة غريبة نوعاً : إنهم كعادتهم يكذّبون باليوم الآخر ويشكون : «ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟» فيكون الجواب : «إنما العلم عند الله» وبينما هذا الجواب يقال نحس كأنما على حين غفلة قد وقع اليوم المعلوم ، وإذا بهم يرونه فجأة قريباً منهم ، كأنما فوجئوا به وهم يتساءلون . وذلك بطبيعة الحال تخييل ، ولكن السياق يهيئ الخاطر له بتوالي المشاهد في كر سريع : «فلما رأوه زُلْفةً» قريباً منهم «سيئت وجوه الذين كفروا» كأنما قفز الاستياء إلى الوجوه قفزاً فسيئت وكلحت «وقيل هذا الذي كنتم به تَدَّعُون» وتكذبون .

ومشهد المفاجأة على هذا النحو ، يؤثر في الحس تأثيراً مضاعفاً ، لأنه يجيء من حيث لا يحتسبون . بل يجيء وهم يتساءلون !

سورة الحاقة [1]

﴿ الحاقَّةُ . ما الحاقَّةُ ؟ وما أدراك ما الحاقةُ ؟ كذّبت ثمودُ وعادٌ بالقارعةِ . فأما ثمودُ فأُهلكوا بالطاغيةِ . وأما عادٌ فأُهلِكوا بريحٍ صَرْصَرٍ

(١) السورة (٧٨) مكية .

عاتيةٍ ، سخّرها عليهم سَبْعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حُسُوماً ، فترَى القومَ فيها صَرْعَى كأنهم أعجازُ نَخْلٍ خاويةٍ . فهل تَرَى لهم من باقيةٍ ؟ وجاء فرعونُ ومن قَبْله والمؤتَفِكاتُ بالخاطئةِ ، فعَصَوْا رسولَ ربِّهم ، فأخذَهم أخذةً رابيةً . إنّا لمّا طغَى الماءُ حملناكم في الجاريةِ ، لنجعلها لكم تَذْكِرةً وتعيهَا أُذنٌ واعيةٌ . فإذا نُفخَ في الصُّورِ نفخةٌ واحدةٌ ، وحُمِلَتِ الأرضُ والجبالُ فدُكتا دَكّةً واحدةً . فيومئذٍ وقعت الواقعةُ ، وانشقّتِ السَّماءُ فهي يومئذٍ واهيةٌ ﴾ .

﴿ والمَلَكُ على أرجائها ، ويَحمِلُ عرشَ ربِّك فوقهم يومئذٍ ثمانيةٌ . يومئذٍ تُعرَضون لا تَخْفَى منكم خافيةٌ ﴾ .

﴿ فأما مَن أُوتِيَ كتَابه بيمينه ، فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيهْ . إني ظننتُ أني مُلاقٍ حسابيَه . فهو في عيشةٍ راضية : في جنة عالية ، قطوفها دانية . كُلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ .

﴿ وأما من أُوتيَ كتابَه بشِماله ، فيقول : يا ليتني لم أوتَ كتابيَهْ ، ولم أدرِ ما حسابيهْ . يا ليتَها كانتِ القاضية . ما أغنَى عنّي ماليهْ . هلكَ عني سُلطانيهْ . ﴾ .

﴿ خذوه ، فغُلُّوه ؛ ثم الجحيمَ صَلُّوه ؛ ثم في سلسلةٍ ذَرْعُها سبعون ذراعاً فاسلُكوه . إنه كان لا يؤمنُ باللهِ العظيم ، ولا يَحُضُّ على طعام المسكين . فليس له اليومَ ها هنا حميمٌ . ولا طعامٌ إلا من غِسْلِينٍ ؛ لا يأكُلُه إلا الخاطئون ﴾ .

* * *

الحاقة : القيامة . وهو يختار هذا اللفظ من الناحيه المعنوية لما سيعقبه من ذكر التكذيب بها من عاد وثمود ... فهي الحاقة التي تحِق ، والتي تقع لأحقيّتها بالوقوع ، إحقاقاً للعدل الإلٰهي وتقريراً للجزاء على الخير والشر ، كما سيجيء في السورة بعد قليل .

وهو يختار هذا اللفظ من الناحية التصويرية لأن له جَرْساً خاصاً ، هو أشبه شيء برفع الثقل ثم استقراره استقراراً مكيناً ، رفعه في مدّة الحاء بالألف ، واستقراره في تشديد القاف بعدها ، والانتهاء بالتاء المربوطة التي يوقف عليها بالهاء الساكنة (والجرس في ألفاظ القرآن وعباراته يشترك في تصوير المعنى ووقعه في الحس) .

وهنا ينتهي الحديث في لفظ «الحاقة» لننظر في محيط أوسع إلى السياق الكامل :

الجو كله في هذه الآيات جو تهويل وترويع ، وتعظيم وتضخيم ، يوقع في الحس الشعور بالقدرة الإلٰهية الكبرى من جهة ، وبضآلة الكائن الإنساني بالقياس إلى هذه القدرة من جهة أخرى . والألفاظ بجرسها وبمعانيها وباجتماعها في التركيب وبدلالة التركيب كله ، تشترك في خلق هذا الجو وتصويره : فهو يبدأ فيلقيها كلمة مفردة لا خبر لها في الظاهر : «الحاقة» ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستهوال والاستعظام لماهية هذا الحدث العظيم : «ما الحاقة ؟» ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام بالتجهيل وإخراج المسألة عن حدود الإدراك : «وما أدراك ما الحاقة ؟» ثم يدعك فلا يجيب على هذا السؤال . يدعك واقفاً أمام هذا الأمر المستعظم المستهوَل الذي لا تدريه ولا يمكن أن تدريه . يدعك لحظة مفعم الحس بالاستهوال والاستعظام ليدور بك هنيهة حول الموضوع ، ما دامت مواجهته غير مستطاعة !

« كذبت ثمود وعاد بالقارعة » !

إنك لا تدري ما الحاقة ... فهي القارعة ! ..

أأحسست وقعها في حسك ، وقرعها في نفسك ؟ ... إن عاداً وثمود كذبوا بهذه القارعة ! فماذا كان ؟ « فأما ثمود فأُهْلِكُوا بالطاغية ؛ وأما عاد فأُهْلِكوا بريح صَرْصَرٍ عاتية ... » والطاغية – على ما في اسمها من صورة الطغيان والغمر والتغطية – وكذلك الريح الصرصر العاتية ، كلتاهما أخف من القارعة ؛ ولكن لعلهما تقربان إلى حسك هذه القارعة ، فهما من جنسها ونوعها . وهكذا قُضِيَ على عاد وثمود في هذه الدنيا ، قضي عليهما بطرف من تلك الحاقة ومن هذه القارعة ، فإذا عجز إدراكك – وهو عاجز – عن تصور الحاقة ، فإليك نموذجاً مصغراً منها في الصيحة الطاغية ، وفي الريح العاتية ، فهما من مشاهدات هذه الحياة الدنيا ، وإن نَضَح اسمهما ووصفهما هولاً ! هولاً تنقله إلى حسّك هذه الصورة المروّعة : صورة العاصفة مزمجرة مدوّية سبعَ ليال وثمانية أيام ، وصورة القوم فيها « صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » وإنك لتراهم الآن فالصورة حاضرة – « فترى القوم فيها صرعى ... » – « فهل ترى لهم من باقية » ؟ كلاّ ! لا باقية ولا أثر ، فلتتعظ إذن ولتعتبر ، وليخشع حسك للهول ، ولتتفتح نفسك للإيمان بالغيب المجهول .

ثم إليك مشهداً آخر لعله يقرب إلى حسك روعة الحاقة وهول القارعة . إن فرعون وَمنْ قبله وقرى قوم لوط المعروفة قد جاءوا بالفعلة الخاطئة .. جاءوا بها فكأنما هي شيء محسوس أو كائن يجاء به « فعصوا رسول ربهم » وهم رسل متعددون ، ولكنهم بمثابة الرسول الواحد ، فجميعهم يحمل رسالة واحدة من عند إله واحد . « فأخذهم أخذة

رابية » والأخذة هنا « رابية » ليتم التناسق بينها وبين « الطاغية » فكلتاهما تَرْبى وتطغى ، وتغطي وتغمر . والتناسق في المناظر ملحوظ في اللوحة الكبرى .

وما دمنا بصدد استعراض المشاهد الهائلة ، والروائع الغامرة ، فمشهد الطوفان إذن يتسق مع هذا الاستعراض كل الاتساق : « إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية » لتكون هذه الحادثة عبرة تذكرونها وتعيها الآذان الواعية .

والآن وقد استعد الحس البشري المحدود لتصور هول الحاقة غير المحدود . الآن وقد تهيأ الحس باستعراض هذه الصور المروعة الطاغية الرابية الغامرة ... فقد آن الأوان لاستكمال العرض ، وتهيأ الموقف للوثبة الكبرى : « فإذا نُفخ في الصور نفخةٌ واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية » وننظر في اللوحة الكبرى التي تجمع هذه المشاهد جميعاً . فماذا نرى ؟

نرى نوعاً من التناسق الفني العجيب بين الحاقة والقارعة والطاغية والعاتية والرابية والدكة الواحدة والواقعة ... تناسق اللفظ والجرس ، وتناسق المناظر التي تخيل للحس أنها جميعاً ثائرة فائرة طاغية غامرة ، تذرع الحس طولاً وعرضاً ، وتملؤه هولاً وروعاً ، وتهزه من أعماقه هزاً .

ولن يجد مصور بارع اتساقاً أعظم من اتساق الصيحة العالية الطاغية والريح الصرصر العاتية ، والأخذة القوية الرابية ، والطوفان الطاغي تخوض غماره الجارية ، والنفخة الهائلة الواحدة ، والدكة المحطمة المفردة . وبين وقعةِ الواقعة والسماءِ المنشقة الواهية ... إنها كلها

من لون واحد ، وحجم واحد ، ونغمة واحدة ، وكلها تؤلف اللوحة الكبرى ، وترسم الجو العام الذي أراده القرآن .

وكأنما العاصفة تهدأ ، والسكون يخيم لحظة ، ليبدأ استعراض جديد ، فيه هول ولكنه هول ساكن رابض ، بعد ما سكن الهول الهائج المائج .

« والمَلَكَ على أرجائها ؛ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تُعْرَضُون لا تَخْفَى منكم خافية » .

ها نحن أولاء نشهد العرض . نشهده مجسماً مخيلاً في أشد المواضع التي يحرص الإسلام على التجريد فيها والتنزيه . ولكن طريقة التعبير بالتصوير تختار التجسيم في هذا الموضع أيضاً لمجرد إثارة الحس وإشراك الخيال والتأثير الوجداني الحار .

فهنا السماء قد انشقت فهي واهنة واهية ، وهنا الملائكة موزعون على أرجائها في هذا الاستعراض الإلهي العظيم . وهنا العرش – عرش ربك – يظلل الجميع في وقار رهيب ، يحمله حملته وهم ثمانية ... ثمانية أملاك ، أو ثمانية صفوف منهم ، فالجرس الموسيقي لثمانية يتسق مع جرس الفاصلة كلها ، والمقصود ليس حقيقة العدد ولكن تنسيق المشهد وتكثير المعدود ... هنا مجلس قضاء تم فيه الحشد ، فليبدأ الاستعراض ، حيث لا تخفى خافية في الحس أو الضمير ، في هذا الحشد الجم الغفير .

وتكملة للعرض المجسم ينقسم المعروضون ، ويكون هناك كتاب يؤتى باليمين وكتاب يؤتى بالشمال . « فأما من أوتي كتابه بيمينه » فما تسعه الساحة من الاطمئنان والمباهاة « فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه » لقد ظننت لشدة خوفي من القارعة « أني ملاقٍ حسابيه » فإذا أنا ألقى

الغفران والنعيم ! ثم ليلق صاحبنا السعيد جزاءه الطيب على مشهد من النظارة جميعاً : «فهو في عيشة راضية : في جنة عالية ، قطوفها دانية» وليلق التكريم المعنوي كما لقي التكريم الحسي ، فها نحن أولاء نسمع من عليين : «كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية» فذلك التكريم حق لكم بما أسلفتم من صالحات .

وننظر في الجانب الآخر من الساحة لنرى ذلك الذي أوتي كتابه بشماله : لقد أدركته الحسرة ، وركبته الندامة ، فلنسمعه يتوجع توجعاً طويلاً : وقد ثبت المشهد كأنه لا يتحرك : «يا ليتني لم أوتَ كتابيه ، ولم أدرِ ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه ...» ولكن ما باله هكذا لا ينوي مغادرة الموقف ، ولا ينوي كذلك السكوت عن التفجع ؟ لقد طال استعراضه ليتحقق التأثر الوجداني بتأوه الندم وتفجع الحسرة . فإذا تم هذا الغرض فهنا نسمع الأمر العلويّ الذي لا يردّ ، فلنكتم أنفاسنا من خشية ، ولنستمع في رهبة : «خذوه فغلُّوه . ثم الجحيم صَلُّوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذرعاً فاسلكوه» هنا كل شيء مفصل مطول ، فمن الجمال الفني ، ومن التأثير الوجداني ، ومن الغرض الديني . ما يجعل لطول الموقف غايته المقصودة . وهنا يشترك جرس الكلمات وإيقاع العبارات مع السلسلة التي «ذرعها سبعون ذراعاً» – وذراع واحدة تكفي ! – يشترك هذا كله في إطالة الموقف أمام النظارة وفي حسهم أيضاً ، ليتم التناسق بين المشهد المعروض والتأثر المطلوب .

ثم لا تقف المسألة عند الأمر العلويّ الذي لا يرد بسحبه في عنف من موقفه ، بعد أن طال التفجع والندم ؛ إنما يلقى التقريع والتشنيع ، فيكشف جرمه على أعين النظارة جميعاً : «إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ،

ولا يحض على طعام المسكين» فماذا يكون الجزاء المرتقب بعد السحب والغل ؟ إن كل من في ساحة العرض سيعلمون : «فليس له اليوم ها هنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين[1] ، لا يأكله إلا الخاطئون» فهو معذب الحس في طعامه من غسلين ، معذب الروح في نبذه بلا حميم . ليتم جحيم الجسم والروح !

وإذ يبلغ التأثر الوجداني هنا ذروته بعد هذا الاستعراض الحي للبشرية في يوم الهول العظيم ، يوم الحاقة القارعة ... في هذا الأوان الذي تتفتح فيه منافذ النفس جميعاً للإيمان ، لا تكون حاجة للتوكيد والقسم والأيمان .

«فلا أقسم بما تُبصرون وما لا تُبصرون . إنه لقول رسول كريم ؛ وما هو بقول شاعر . قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن . قليلاً ما تذكَّرون . تنزيلٌ من ربِّ العالمين» .

سورة المعارج[2]

١ - ﴿ سأَل سائلٌ بعذابٍ واقعٍ ، للكافرين ، ليس له دافعٌ ، من الله ذي المعَارجِ ، تعرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إليه في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألف سنةٍ . فاصبرْ صبراً جميلاً . إنهم يَرَوْنه بعيداً ونراه قريباً : يوم تكونُ السماءُ كالمُهْلِ ، وتكونُ الجبالُ كالعِهْن ، ولا يسألُ حميمٌ حميماً ؛ يُبصَّرُونهم ، يَوَدُّ المجرمُ لو يَفْتَدِي من عذابِ يومئذٍ ببنيه ،

(١) من غسالة أهل جهنم ومما يسيل من أبدانهم بعد الاحتراق ! ! !

(٢) السورة (٧٩) مكية .

وصاحبته وأخيهِ ، وفصيلته التي تُؤويه ، ومَن في الأرضِ جميعاً ، ثم يُنْجيه ، كلاَّ ! إنها لظَى ، نَزَّاعةً لِلشَّوَى ، تدعُو من أدبرَ وتولى ، وجمعَ فأوْعَى ﴾ .

٢ – ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعَبُوا حتى يُلاَقوا يومَهم الذي يوعَدون . يوم يَخْرجون من الأجداثِ سِرَاعاً ، كأنهم إلى نُصُبٍ يُوفِضُون ، خاشعةً أبصارهم ، تَرْهَقُهم ذِلة . ذلك اليومُ الذي كانوا يوعدون ﴾ .

* * *

١ – يتألف المشهد الأول من عدة خطوات أو مناظر يتلو بعضها بعضاً . فالمنظر الأول منظر الملائكة والروح يصعدون إلى الله – والسياق يجسم المنظر هنا لأن هذه هي طريقة القرآن الغالبة التي يخاطب بها الحس ، وينشط بها المخيلة – وهو منظر عجب حين يتملاّه الخيال ، منظر الفضاء الشاهق بين الأرض والسماء تصعد فيه هذه المخلوقات الشَّفَّةُ ، التي لا نعرف لها في عالمنا إلا صورتها المتخيلة الغامضة في نفوسنا مما يوقظ كل مشاعر النفس ويرهفها . وذلك في يوم « كان مقداره خمسين ألف سنة » وهو يوم القيامة ، وهو يوم طويل بأحداثه ومرائيه كما هو طويل في حس المحاسبين فيه . وطوله هنا في السياق يتسق مع الارتفاع الشاهق الذي تصعد فيه الملائكة إلى ذي العرش الرفيع ، فوحدة الجو الشعوري والتصويري هنا وحدة واضحة محققة .

وهذا المشهد العجيب الرائع تمهيد للمشهد التالي : « يوم تكون السماء كالمُهل » وقد تذاوبت واسودّت ، والمهل هنا سائل المعادن الذائبة « وتكون الجبال كالعِهن » هشة خفيفة متطايرة كالصوف المنفوش ...

وهنا يكون الحس قد امتلأ رعباً وروعة ، والخاطر قد ازدحم ، وكاد يدركه الذهول . وهكذا يبدأ المشهد الثالث مشهد الناس أمام هذا الهول الذي اشتركت فيه مشاهد الأرض والسماء . فإذا هم – كما هو المتوقع – في ذهول ، لا يتلفت منهم أحد إلى خارج نفسه ، ولا يجد فسحة في شعوره لغيره «ولا يسأل حميم حميماً» فلقد قطع الهول المروّع جميع الوشائج ، وحبس النفوس على همها لا تتعداه . وإنهم ليتراءون ويبصّر بعضهم ببعض فيراه ، ولكن لكل منهم همه ، ولكل ضمير منهم شغله .

ذلك حال الناس جميعاً ، فما بال «المجرم» ؟ إن الهول ليأخذ بحسه ، وإن الرعب ليذعر نفسه ، وإنه ليود «لو يَفْتَدِي من عذاب يومئذ» بأعز الناس عليه ، ممن كان يفتديهم ويناضل عنهم ، ويضحي بنفسه لهم : «ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التي تؤويه» بل إن حاجته إلى الافتداء ورغبته في الخلاص ، لتجعله مخلوقاً أثراً لا يهمه شيء في الدنيا إلا نفسه ؛ وإنه ليتمنى لو يفتدي بالناس جميعاً ! «ثم ينجيه» !

ولكن شيئاً من هذا كله لن يجدي . «كلا ! إنها لظى . نزاعة للشَّوَى تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى» وهنا يعرض السياق مشهداً مفزعاً للنار التي يواجهها هذا المجرم فتطير نفسه شعاعاً ، ويتمنى تلك الأمنيات الجنونية المستحيلة التي أسلفناها . «إنها لظى» تتلظى وتتحرق . «نزاعة للشوى» تنزع الجلود عن الوجوه والرؤوس نزعاً . وهي غول ناطقة ، لا تنتظر حتى يلقى إليها وقودها ، بل «تدعو من أدبر وتولّى» تدعوهم إليها كما كانوا من قبل يُدْعون إلى الهدى . تدعوهم فلا يملكون الفرار . وقد كانوا يدعون من قبل فيولون الأدبار ! فيا لها من دعوة مفزعة ،

لا يملك المدعوّ إلا أن يلبيها مقهوراً ، وكل ما فيه يدْعوه أن يفلت فلا يستطيع الإفلات !

٢ - والمشهد الثاني يأتي في السياق بعد فاصل من بيان حال المؤمنين والكافرين . وهو مشهد رأينا له نظائر فيما مضى . ولكن في التعبير شيئاً جديداً . فهؤلاء الخارجون من القبور يسرعون كأنما هم ذاهبون إلى نصب يعبدونه ! وفي هذا التهكم تناسق مع حالهم في الدنيا . لقد كانوا يسرعون إلى الأنصاب يعبدونها ، فها هم أولاء يسرعون يوم القيامة إسراعهم ذاك ، ولكن شتان ما بين هذا وذاك !

ثم تتم سماتهم بقوله : «خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة» فنلمح سيماهم كاملة ، وترتسم لنا من قسماتهم صورة واضحة ، وهي صورة تتناسق مع صورة الخوض واللعب في الدنيا ، فإنهم ليسرعون اليوم ولكن لا إلى اللهو واللعب ، بل إلى الذل والرهق . وإن أساريرهم المرحة الفرحة في الدنيا لتخشع وتذل في الآخرة . واحدة بواحدة ، ويوم بيوم : «ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون» .

سورة النبأ[1]

﴿إن يَومَ الفَصْلِ كانَ مِيقاتاً : يومَ يُنفخُ في الصُّورِ ، فتَأتونَ أفواجاً ؛ وفُتحَتِ السماءُ فكانتْ أبواباً ؛ وسُيِّرتِ الجبالُ فكانت سَرَاباً .

﴿إنَّ جهنم كانت مِرصاداً ، للطّاغين مآباً ، لابثين فيها أحقاباً ،

(١) السورة (٨٠) مكية .

لا يذوقون فيها بَرْداً ولا شَراباً ، إلاَ حميماً وغَسَّاقاً . جزاءً وِفاقاً . إنهم كانوا لا يَرْجُون حِساباً ، وكذَّبوا بآياتنا كِذَّاباً . وكلَّ شيء أحصيناه كتاباً . فذوقوا ، فلن نزيدَكم إلاّ عذاباً ﴾ .

﴿إنَّ للمتقين مَفازاً : حدائقَ وأعناباً ، وكواعبَ أتراباً ، وكأساً دِهاقاً ؛ لا يسمعون فيها لَغْواً ولا كِذَّاباً . جزاءً من ربِّك عَطاءً حساباً﴾.

﴿ربِّ السمٰواتِ والأرضِ وما بينهما ، الرَّحمٰنِ ، لا يملكون منه خِطَاباً . يومَ يقومُ الروحُ والملائكةُ صَفّاً لا يتكلمون إلاَّ من أذِن له الرَّحمٰنُ ، وقال صواباً . ذلك اليومُ الحقُّ ، فمن شاء اتخذَ إلى ربِّه مآباً . إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ، يومَ يَنْظُرُ المرءُ ما قدَّمتْ يداه ، ويقول الكافرُ : يا ليتني كنتُ تراباً ﴾ .

* * *

هذه المشاهد جاءت رداً على سؤال في أول السورة ، أو استنكاراً لسؤال بتعبير أدق . فقد بدأت السورة هكذا : «عَمَّ يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون ؟» وكأنما هذا التساؤل غير مفهوم ولا مقبول . فالأمر بديهي معلوم . ثم مضى السياق يقول : «كلاّ سيعلمون ثم كلاّ سيعلمون» وفي هذه الصيغة رائحة التهديد فكأنما يقول : إنهم سيعلمون ولكن في وقت لا يجدي فيه العلم شيئاً ! وقبل أن يعرض لليوم المعلوم استعرض من مشاهد الحياة ما فيه الكفاية لمن شاء أن يلتمس الدليل : «ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً ؟ وخلقناكم أزواجاً ؟ وجعلنا نومكم سُباتاً ؟ وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً ؟ وبنينا فوقكم سَبْعاً شِداداً ؟ وجعلنا سراجاً وهّاجاً ؟

وأنزلنا من المُعْصِرَاتِ[1] ماءً ثَجَّاجاً ، لنخرج به حبّاً ونباتاً وجنّاتٍ ألفافاً ؟» وفي هذه المشاهد كلها دليل .

ثم أخذ في عرض مشاهد يوم الفصل الذي جعله موعداً وميقاتاً : فعرض مشهد النفخ في الصور ، وتركنا نشهد الأفواج الآتية لساحة الحشر ؛ ثم عرض المشهد المصاحب في السماء والأرض . فالسماء فتحت فصارت أبواباً بعد أن كانت «سبعاً شداداً» والجبال سيّرت فصارت سراباً بعد أن كانت «أوتاداً» . ثم ها نحن أولاء نشهد جهنم ترصد الكافرين فهي في ارتقاب وانتظار ، وهي مآب الظالمين ومردهم وهم يردونها للاقامة واللبث لا للمرور والمشاهدة ، لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، إلا ماء ساخناً يشوي البطون والحلوق ، وإلا ما يغسق ويسيل من أجساد المحروقين ، وهو أشد وأنكى من الحميم . وذلك جزاء يوافق أعمالهم ، فلقد كانوا لا ينتظرون يوم الحساب ، وكانوا يكذبون به أشد التكذيب . بينما قد أحصيت أعمالهم في كتاب دقيق .

وعقب عرض حالهم في هذا المشهد الأليم نسمع كلمات التأنيب توجه إليهم مع التيئيس من تغيير الحال : «فذوقوا ، فلن نزيدكم إلاّ عذاباً» .

ثم يعرض المشهد المقابل . مشهد المتقين في النعيم . وقد عرضت له نظائر من قبل ، فهم فائزون ، لهم حدائق وأعناب ، ولهم كواعب أتراب ، ولهم كأس مليئة ، وهم لا يسمعون لغواً في الجنة ولا كذباً . وذلك جزاؤهم العادل بعد الحساب الدقيق .

وتكملة لمشاهد اليوم الذي يتم فيه هذا كله ، نشهد الملائكة والروح

---

(١) السحب تعصرها الرياح فتمطر .

قائمين صفاً ، لا يتكلمون في ساحة العرض الفسيحة ، إلاّ لمن يأذن له الرحمن ، ويقول قولاً صواباً ، لأنهم لا يتكلمون إلاّ فيما هم فيه مأذونون . وموقف هؤلاء المقربين إلى الله ، الأبرياء من ارتكاب الذنوب موقفهم هكذا صامتين لا يتحدثون إلاّ بإذن وبحساب ، يغمر الجو بالروعة والرهبة ويشيعهما في الموقف كله . فلا عجب إذا نظر كل امرئ إلى ما قدمت يداه فعرف جزاءه ، ولا عجب أن يقول الكافر : «يا ليتني كنت تراباً» وهو تعبير يلقي ظلاً للرهبة والندم ، حتى ليتمنى الكائن الإنساني أن ينعدم ويصير إلى عنصر مهمل زهيد ، فذلك خير من المواجهة في هذا الموقف الشديد .

سورة النازعات[1]

١ - ﴿ والنَّازِعَاتِ غَرْقاً ، والنَّاشطاتِ نَشْطاً ، والسَّابحاتِ سَبْحا ، فالسَّابقاتِ سبقاً ، فالمُدَبِّراتِ أمراً ، يومَ ترجُفُ الراجفة ، تتْبعُها الرادفةُ ، قلوبٌ يومئذٍ واجفةٌ ، أبصارُها خاشعةٌ ﴾ .

﴿ يقولونَ : أئِنا لمردودون في الحافِرةِ ؟ أئذا كنا عِظاماً نخِرةً ؟ قالوا : تلك إذاً كرَّةٌ خاسرةٌ ! ﴾

﴿ فإنما هي زَجْرَةٌ واحدةٌ ، فإذا هم بالسَّاهِرةِ ﴾ .

٢ - ... ﴿فإذا جاءتِ الطَّامّةُ الكُبرى ، يومَ يتذكَّرُ الإنسانُ ما سَعَى ، وبُرِّزَتِ الجحيمُ لِمن يَرىَ . فأما من طَغَى ، وآثر الحياة

---

(١) السورة (٨١) مكية .

الدنيا ، فإنّ الجحيمَ هي المأوى . وأمّا مَن خاف مقام ربِّه ، ونَهى النفسَ عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى ﴾ .

٣ - ﴿يسألونك عن الساعة أيّان مُرْساها ؟ فيم أنتَ من ذِكراها ؟ إلى ربِّك مُنْتهاها . إنما أنت مُنْذِرُ مَن يخشاها . كأنهم يومَ يَرَوْنها لم يلبثوا إلا عشيةً أو ضُحاها ﴾ .

* * *

لكأنما كل شيء هنا يرجف ويلهث : الإيقاع والألفاظ والصور والمعاني . ولكأنما كل شيء هنا يركض وهو في شبه غمرة وفي خفقان أو اضطراب ، لا يدري مما حواليه شيئاً ...

ذلك طابع السياق كله بمشاهده وإيقاعاته . حيث يرتفع إلى مستوى من التناسق الكامل بين جميع الجزئيات :

النازعات . الناشطات . السابحات . السابقات . المدبّرات ... ما هذه ؟ ما شأنها ؟ ما بالها هكذا تركض ركضاً وترجف رجفاً .. إنها طوائف من الملائكة ، أو طوائف من أي خلق ، أو من أي شيء . تصنع أشياء ، وتحدث آثاراً ؛ ولكن ذلك كله يتم في عجلة وسرعة ورجفة ... إن كل شيء هنا كذلك : «يومَ ترْجفُ الراجفةُ . تتبعها الرادفة» و«الراجفة» قد تكون الصيحة الأولى ، و«الرادفة» قد تكون الصيحة الثانية... على أية حال إنما هذه كلها إرهاصات ممهدة لنشهد بعدها المخلوقات الآدمية : «قلوبٌ يومئذ واجفة ، أبصارُها خاشعة» وكيف لا تَجِفُ القلوب وتخشع الأبصار ، ونحن على البعد ، وبتأثير هذا الإيقاع اللاهث ، وهذه الإرهاصات المدعورة ، قد وجفت قلوبنا واهتزت مشاعرنا ، وغمرنا شعور غامض بالرجفة والاضطراب ؟!

وفي هذه اللحظة التي يغمر الموقف فيها الارتجاف ، يرتد السياق إلى المكذبين بهذا اليوم ، ويعيد أقوالهم المتشككة التي تبدو في هذا الموقف سخيفة مضحكة : إنهم « يقولون : أئنا لمردودون في الحافرة ؟ أئذا كنا عظاماً نخرة ؟ » فهم لا يصدقون أن يعادوا من حفرتهم التي دفنوا فيها ، وقد صاروا عظاماً نخرة ، وهم يتهكمون على هذه العودة « قالوا : تلك إذن كرّةٌ خاسرة » ! وكلمة « إذن » هنا مما يبرز السخرية من الإعادة .

وإذ ينتهي من عرض ما يقولون ، يرتد إلى الموقف الذي كنا فيه منذ لحظة . فيجيب على هذا التساؤل وهذه السخرية إجابة حاسمة سريعة : « فإنما هي زجرةٌ واحدة » والصيحة هنا زجرة ، لأن الزجر مما يلائم هذه الطبائع الساخرة « فإذا هم بالساهرة[1] » هكذا فجاءة ، وبعد الزجرة مباشرة ، فالجو كله إسراع ، والموقف كله اندفاع .

٢ – ثم يمضي السياق يقص قصة فرعون وموسى ، فيهدأ الإيقاع نوعاً ، وتتراخى السرعة قليلاً . ثم يعرض بعد القصة مشاهد السماء والأرض وما تدل عليه من قوة وأيْدٍ : « أأنتم أشدُّ خَلْقاً أم السماء بناها ، رفع سَمْكها فسوَّاها ، وأغْطش ليلها وأخرج ضُحاها : والأرضَ بعد ذلك دَحَاها ، أخرجَ منها ماءَها ومَرْعَاها ؛ والجبالَ أرساها ، متاعاً لكم ولأنعامكم » .

نلحظ في جميع هذه المشاهد القوة والأيد ، كما نلمحه في جرس الكلمات وصورها . من بناء السماء إلى رفع سَمْكها وتسويتها . إلى إغطاش الليل ، وإخراج الضحى . إلى دحو الأرض . إلى إرساء الجبال .

---

(١) الساهرة : الأرض البيضاء المستوية .

وفي ذلك كله تمهيد وتناسق مع وصف القيامة المختار في هذا الموضع : إنها « الطامة الكبرى » والطامة لفظة مصورة بجرسها لمعناها ، فهي تطم وتعم وتربي وتطغي . على السماء المبنية ، والأرض المدحوة ، والجبال المرساة ، والليل المغْطَش والضحى المخرج ... إنها تطم على كل شيء وتعم . وهي تجيء في إبّانها لتطم على هذا كله ، وليطغى مشهدها على تلك المشاهد جميعاً !

وفي يوم الطامة الكبرى بُرِّزت الجحيم لمن يَرى ، فكل شيء هنا شديد بارز « فأما من طغى » – والطغيان مما يتسق مع السياق – « فإن الجحيم هي المأوى » . « وأما من خاف مقام ربه » – والخوف أليق شيء بالسياق أيضاً – « فإن الجنة هي المأوى » .

٣ – وفي هذه اللحظة التي يغمر الوجدان فيها شعور غامر بالروعة الكبرى ، يرتدّ السياق إلى أولئك الذين يتشككون في الساعة ويسألون النبي « أيّان مُرْساها » ؟

والجواب : « فيمَ أنت من ذكراها ؟ » وهو جواب يوحي بالعظمة والضخامة ، فها هو ذا يقال للرسول العظيم : « فيم أنت من ذكراها ؟ » إنها لأعظم منك جداً وما كنت لتحدد ميقاتها ومرساها (وكلمة مرساها توحي باللجة الطامة ترسو الساعة منها في مرساها) إنما أنت فقط لتنذر من يخشاها ، وعند ربك منتهاها . فكل شيء للتهويل والتضخيم ، حتى الهاء الممدودة ذات الإيقاع الضخم الطويل . وهي تأتيهم بغتة حتى « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » ! وحين تجتمع الضخامة إلى الفجاءة يجتمع هولان ، ويتحد مظهران ، ويتسق الجو كله من مبدإ الصورة إلى منتهاها !

سورة الانفطار [1]

﴿ إذا السماءُ انْفَطَرَتْ ، وإذا الكواكبُ انتثرتْ ، وإذا البحارُ فُجِّرَتْ ، وإذا القبورُ بُعْثِرتْ ، عَلِمَتْ نفسٌ ما قدَّمتْ وأخَّرتْ ﴾ .

﴿ يا أيها الإنسانُ ما غرّك بربِّك الكريم ، الذي خَلَقَك فسوَّاك فَعَدَلك ؟ في أي صورةٍ ما شاء ركّبَك . كلا بلْ تُكذِّبون بالدين ، وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون ﴾ .

﴿إنّ الأبرارَ لَفي نعيمٍ ، وإن الفُجّارَ لَفي جحيمٍ ، يَصْلَوْنها يومَ الدّين ، وما هم عنها بغائبين . وما أدراكَ ما يومُ الدِّين ؟ ثم ما أدراكَ ما يومُ الدِّين ؟ يومَ لا تَملكُ نفْسٌ لِنفْسٍ شيئاً ، والأمرُ يومئذٍ لله ﴾ .

* * *

عودة إلى مشاهد الطبيعة الهائلة المنقلبة في اليوم العظيم : السماء منفطرة منشقة ، والكواكب مبعثرة منتثرة ، والبحار فائضة متفجرة ، والقبور منبوشة مبعثرة . هول في السماء وفي الأرض ، وحركة عنيفة في الطبيعة ... فإذا أفعم الحس ، وتفتحت منافذ النفس ، أخذ السياق في إيقاظ الوجدان للاتعاظ والاعتبار : «يا أيها الإنسان . ما غرّك بربك الكريم ... ؟» «يا أيها الإنسان» فهو خطاب للبشر بأحسّ ما فيهم وهو (الإنسانية) . خطاب يهز القلوب ، ويشعر هذا الإنسان بعناية ربه ، ومآثر خالقه ، الذي خلقه فأحسن خلقه ، وأبرزه في هيئة

---

(١) السورة (٨٢) مكية .

جميلة معدلة ، وتنسيق سويٍّ سليم ؛ وهو القادر على تركيبه في أية صورة يشاء ؛ ثم لم يترك سدى ، فهناك من يحسب عليه كل حركة وكل نأمة «وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون» .. ذلك عرض للمؤثرات من طرفيها : المؤثرات الهائلة المروّعة في الطبيعة ، والمؤثرات الوديعة العميقة في النفس ... فإذا تم هذا كله عاد السياق إلى عرض مشاهد الجزاء . فالأبرار في نعيم ، والفجار في جحيم . ثم تفصيل لمشاهد العذاب لأنها أوقع في الحس - وخاصة مع المكذبين - فهذه الجحيم «يصلونها يوم الدين ، وما هم عنها بغائبين» . ثم يعود إلى التهويل بيوم الدين ، يسأل عنه سؤال التعظيم ، ويثنّي بسؤال للتجهيل والتفخيم ؛ ثم يصف هذا اليوم بإحدى خصائصه العظيمة : «يومَ لا تملِكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً ، والأمر يومئذ لله» مالك يوم الدين والكل دونه عاجزون .

سورة الانشقاق[1]

﴿إذا السماءُ انشقّتْ ، وأَذِنَتْ لربهِّا وحُقَّتْ ؛ وإذا الأرضُ مُدَّتْ ، وألقتْ ما فيها وتخلَّتْ ، وأذنتْ لربهِّا وحُقَّتْ . يا أيها الإنسانُ إنك كادحٌ إلى ربِّك كَدْحاً فَمُلاقِيهِ . فأما مَن أُوتيَ كتابَه بيمينه ، فسوف يُحاسَب حساباً يسيراً ، وينقلبُ إلى أهله مسروراً ؛ وأمّا مَن أُوتيَ كتابَه وراء ظهره ، فسوف يدعو ثُبوراً ، ويَصْلَى سعيراً . إنه كان في أهله مسروراً . إنه ظنَّ أنْ لن يحورَ . بلى ! إن ربَّه كان به بصيراً﴾ .

* * *

(١) السورة (٨٣) مكية .

المشهد العام لانشقاق السماء ، وانبساط الأرض لا عوج فيها ولا أمْت ... هذا المشهد هو هو كما عرض من قبل . ولكن هنا جديداً في الملابسات يضيف إلى المشهد عناصر ذات قيمة .

فالسماء هنا تنشق ، ولكن لا تنتهي إلى الحدث المادي وحده . إنها كذلك تنقاد لربها ، وتسلمه زمامها ، وتنال إذنه على انشقاقها . والأرض كذلك تسوّى وتزول جبالها ونتوءاتها ، وتلقي ما في باطنها من الجثث وسواها وتتخلى عنها . ولكنها كذلك تسلم قيادها لربها وتنال إذنه على تخليها ؛ وكأنما تسلم أمانتها التي حملتها طويلاً ، وتنفض منها نفسها أخيراً !

الموقف موقف تسليم وانقياد وأداء أمانة تعبت الطبيعة في حملها حتى أسلمتها . وذلك يتسق مع موقف الإنسان في هذا المشهد من مشاهد القيامة :

« يا أيها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك كدحاً فملاقيه » فالإنسان كذلك محتمل لمشقات ، كادح ليصل إلى ربه في النهاية ، كما وصلت الأرض والسماء ، ليلقي أمامه حمله ، ويتلقى منه الجزاء : « فأما من أوتيَ كتابه بيمينه فسوف يحاسَب حساباً يسيراً » وذلك قد علمناه من قبل في مشاهد أخرى . ثم يزيد هنا أنه « ينقلب إلى أهله مسروراً » ، كما يقع للإنسان حين يناله الخير فيعود إلى أهله مستبشراً . وأهله يذكرون هنا ، لأن الذي يُؤتي كتابه وراء ظهره — وهذا وضع جديد لإيتاء الكتاب — كان في أهله مسروراً في الدنيا ؛ وكان يظن أن لن يرجع لله ؛ وسيصلى هنا سعيراً ؛ فمن المقابلة المنسّقة أن يكون لمن يؤتي كتابه بيمينه أهل ، يعود إليهم في الآخرة مسروراً !

سورة الروم[1]

١ - ﴿ويومَ تقومُ الساعةُ يُبلِسُ المجرمون ؛ ولم يكنْ لهم من شركائهم شُفَعاءُ ، وكانوا بشركائهم كافرين . ويوم تقوم الساعةُ يومئذٍ يتفرّقون : فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في رَوْضَةٍ يُحْبَرون . وأما الذين كفروا وكذَّبوا بآياتِنا ولِقاء الآخرة فأولئك في العذاب محْضَرون﴾ .

٢ - ﴿ويومَ تقومُ الساعةُ يقسم المجرمون ما لبثوا غيرَ ساعةٍ . كذلك كانوا يُؤْفكون . وقال الذين أُوتوا العلم والإيمَانَ : لقد لبثتم في كتاب الله إلى يومِ البَعْث ، فهذا يومُ البعثِ ، ولكنكم كنتم لا تعلمون . فيومئذٍ لا ينفعُ الذين ظَلَموا معذِرتُهم ولا هم يُسْتَعْتَبون﴾ .

* * *

١ - المشهد الأول مشهد المجرمين تبغتهم الساعة فيسكتون سكوت اليائس الذي يحس أن لا فائدة لحديث ، ولا جدوى لمحاولة ؛ ثم لا يجدون من شركائهم الذين عبدوهم في الدنيا شفعاء ، بل يكفر بهم شركاؤهم ، وينكرون صلتهم بهم إنكار الجحود ! ثم يتفرق الناس فريقين : الذين آمنوا في روضة تملأ نفوسهم ووجوههم بشراً وحبوراً ، والذين كفروا يحضرون إلى العذاب إحضاراً على كره منهم واضطرار .
٢ - والمشهد الثاني مشهد المجرمين كذلك يبعثون بغتة ، فيخدعهم إحساسهم حتى ليحسبون أنهم لم يلبثوا إلا ساعة ثم استيقظوا . وهنا

---

(١) السورة (٨٤) مكية إلا آية .

يتدخل «الذين أوتوا العلم والإيمان» وكأنما هم مفوَّضون في تقرير الأمور – كما قلنا في مشهد سابق – فيكشفون لهم عن جهلهم ، ويذكرونهم بما فرط منهم ، ويقولون لهم : لقد لبثتم ما شاء الله أن تلبثوا ؛ ثم لقد بعثتم اليوم . وها هو ذا البعث الذي كنتم به تكذبون !

ثم يأتينا التعليق على الموقف كله : «فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يُسْتَعْتَبون» ! !

سورة العنكبوت[1]

﴿ يستعجلونك بالعذاب ، وإن جهنمَ لَمُحيطةٌ بالكافرين ، يومَ يغشاهم العذابُ من فوقهم ومن تحت أرجُلهم ، ويقول : ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ .

... ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لَنُبَوِّئَنَّهم من الجنة غُرَفاً تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، نِعْمَ أجرُ العاملين ﴾ .

* * *

المشهد هنا طريف ، وقد سبق له نظير على وجه آخر . فهؤلاء القوم يستعجلون النبي بالعذاب ، في الوقت الذي تحيط بهم جهنم . وكأنما ننظر نحن فنرى هذا المنظر من حيث لا يرونه ، فنعجب لغفلتهم ، وهم واقفون يستعجلون ، وجهنم محيطة بالسائلين ! وتنسيقاً للمشهد كله عرضت صورة للعذاب في الآخرة – يوم يجيء – يغشاهم

(١) السورة (٨٥) مكية إلا إحدى عشرة آية .

من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ففيه صورة الإحاطة من كل جانب ، ثم يزيد على ذلك التأنيب والتوبيخ : «ذوقوا ما كنتم تعملون» .

وللذين آمنوا غرف تضمهم وتحتويهم في مقابل إحاطة جهنم بالكافرين . ولكن شتان بين احتواء واحتواء ! ولهم كذلك تكريم ونعيم ، مقابل التأنيب والتوبيخ : «نِعْمَ أجر العاملين» .

سورة المطففين [1]

﴿كلا ! إن كتَابَ الفُجَّارِ لَفي سِجِّين ، وما أدْراك ما سِجِّينٌ ؟ كتابٌ مرقومٌ . ويلٌ يومئذ للمكذبين ، الذين يُكَذِّبون بيوم الدين – وما يكذِّبُ به إلا كلُّ مُعْتَدٍ أثِيم ، إذا تُتْلَى عليه آياتُنا قال : أساطيرُ الأوَّلين . كلاَّ ! بلْ رَانَ على قلوبهم ما كانوا يَكسِبون . كلاَّ ! إنهم عن ربِّهم يومئذٍ لَمحْجُوبون ؛ ثم إنهم لَصَالُو الجحيمِ ، ثم يقال : هذا الذي كنتم به تكذِّبون !﴾

﴿كلاَّ ! إن كتاب الأبرار لفي عِلِّيِّينَ . وما أدراك ما عِلِّيُّونَ ؟ كتابٌ مرقومٌ ، يشهدُه المقرَّبون . إن الأبرارَ لفي نعيم ، على الأرائك يَنْظُرون ، تعرفُ في وجوهِهم نَضْرَةَ النعيم ، يُسْقَوْن من رَحِيقٍ مختومٍ ، ختامُه مِسْكٌ ، وفي ذلك فَلْيَتَنَافسِ المتنافسون ، ومزاجُه من تَسْنيمٍ ، عيناً يشربُ بها المقرَّبُون﴾ .

﴿إنَّ الذين أجْرموا كانوا من الذين آمنوا يَضْحَكون ، وإذا

(١) السورة (٨٦) مكية ، وهي آخر سورة نزلت بمكة .

مَرُّوا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فَكِهِين ، وإذا رأوْهم قالوا : إنَّ هؤلاء لَضَالُّون . وما أُرسلوا عليهم حافظين﴾ .

﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يَضْحَكون ، على الأرائِكِ ينظرون﴾ .

﴿هل ثُوِّبَ الكفارُ ما كانوا يفعلون ؟!﴾ .

* * *

للمرة الأولى يذكر أن للفجار كتاباً يحفظ في مكان خاص غير المكان الذي يحفظ فيه كتابُ الأبرار . وكتاب الفجار في «سِجِّين» ونحن لا نعرف ما هو ولا أين السِّجِّين . ولكن لنا أن نفهم من طريقة المقابلة المتبعة في القرآن أنه مكان هابط يقابل «علِّيِّين» .

ثم نشهد الفجار محجوبين عن ربهم لا يرونه ، والله لن يراه إنسان ، ولكن الحجب هنا معنوي مجسم ، فهم لن يتطلعوا إلى ربهم ، بل يقفون كما عهدناهم ناكسي رؤوسهم يائسين . وإنهم ليحجبون عن ربهم ، لأنه ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . ران عليها فحجبها عن الهدى وحجب عنها النور . فجزاؤهم أن يُحجبوا عن ربهم في الآخرة جزاء وفاقاً ، وتنسيقاً في المشهد كذلك ملحوظاً .

كذلك نشهد الأبرار في نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف في وجوههم نضرة النعيم . وللمرة الأولى يذكر أنهم «يُسْقَوْنَ من رحيق مختوم» ... «ومزاجه من تسنيم ، عيناً يشرب بها المقربون» ولأول مرة تذكر التسنيم ، ونعرف أنها عين يشرب بها المقربون .

ويلحظ هنا أن هناك تطويلاً يتناول مشهدين : مشهد النعيم العظيم

الذي يتمتع به المقربون ؛ ومشهد السخرية التي كانت تنالهم في الدنيا من المجرمين . وكلما زاد المشهدان طولاً - وهذا المشهد الأخير بخاصة - كانت المفاجأة في النهاية أوقع عندما يقول : «فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظرون» ! ثم يتوجه بالتهكم في النهاية إلى أولئك المستهزئين بالمؤمنين : «هل ثُوِّبَ الكفارُ ما كانوا يفعلون» ؟

كلا ! لم يثوَّبوا فهم كما شهدناهم منذ هنيهة ، هنا في الجحيم !

سورة البقرة [1]

١ - ﴿فاتَّقُوا النارَ التي وَقُودها الناسُ والحجارةُ أُعِدّتْ للكافرين﴾ .

﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ أن لهم جنَّاتٍ تجْري من تحتها الأنهارُ ، كلما رُزِقوا منها مِنْ ثمرةٍ رِزقاً قالوا : هذا الذي رُزِقْنا من قَبلُ ، وأُتوا به متشابهاً ، ولهم فيها أزواجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وهم فيها خالدون﴾ .

٢ - ﴿ولو يَرى الذين ظلموا إذْ يَرَوْن العذابَ أنّ القوةَ لله جميعاً ، وأن اللهَ شديدُ العذابِ . إذْ تَبرَّأَ الذين اتُّبِعُوا ، من الذين اتَّبَعُوا ورَأَوُا العذابَ ، وتَقَطّعتْ بهم الأسبابُ ؛ وقال الذين اتَّبعوا : لو أنّ لنا كرَّةً فنتبرَّأَ منهم كما تبرَّأُوا مِنَّا ! كذلك يُريهم اللهُ أعمالَهم حَسَراتٍ عليهم ، وما هم بخارجين من النار﴾ !

---

(١) السورة (٨٧) مدنية إلا آية «اليوم أكملت لكم دينكم» فقد نزلت بمنى في حجة الوداع .

٣ - ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلَ الله من الكتابِ ، ويشترون به ثمناً قليلاً ، أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النارَ ، ولا يكلمهم اللهُ يومَ القيامةِ ولا يُزَكِّيهم ، ولهم عذابٌ أليم﴾ .

* * *

١ - في النص الأول تصوير جديد للنار .. فقد علمنا أن وقودها من الناس وأن بعض الناس وبعض الآلهة (حَصَبُ جهنم) فالآن ينص على أن وقودها من الحجارة أيضاً . وأن الناس يسوون بالحجارة في هذا الوقود ! فليس من الضروري أن تكون تلك الحجارة معبودات ، إنما هي جهنم تلتهم كل شيء ، والناس فيها والحجارة سواء . وفي هذا من التحقير لأصحابها ما فيه ، فهم حجارة تسد مسد الحجارة !

وفيه صورة كذلك للنعيم جديدة . فالثمار في هذا النعيم متشابهة المظهر ، مختلفة الطعوم . فكلما رزق المؤمنون من هذا الثمر : «قالوا : هذا الذي رُزقنا من قبل» ولعل قيمة هذا التشابه والتنوع هي قيمة المفاجأة اللذيذة السارة من حيث لا تحتسب ، مع شيء من المداعبة لهؤلاء المنعمين تزيدهم شعوراً بالنعيم . ثم لعله مظهر من مظاهر القدرة التي تضع الفروق بين المتشابه ، وتُعدد الأنواع والمظهر متقارب .

٢ - والنص الثاني يعرض حالة التابعين والمتبوعين . وهذه قد عرضت من قبل ، ولكن تفصيلاتها هنا تختلف . فلا حوار هنا بين هؤلاء وهؤلاء ، إنما يتبرأ المتبوعون من التابعين ، فيحقدها عليهم هؤلاء ، ويقفون يحرّون على أسنانهم من الغيظ ، ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا لغرض واحد يشفون منه نفوسهم الفائضة بالمرارة : «لو أن لنا كَرَّةً فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا» فقط لمجرد رد الجميل !

ولكنها حسراتٌ «وما هم بخارجين من النار» .

٣ - والنص الثالث يعرض نوعاً من العذاب الحسي والمعنوي يذكر هنا لأول مرة . فالذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً «إنما يأكلون في بطونهم ناراً» وهو مشهد طريف حقاً أن تتخيلهم يأكلون النار ، فتستقر في بطونهم ناراً . أما في الآخرة فهم منبوذون مهملون ، لا يكلمهم الله ولا يزكيهم . ويا له من عذاب مُخزٍ مهين . وإنه لعذاب فوق العذاب الحسي ، لا يقل عنه مضاً للخواطر وإيلاماً للنفوس .

سورة آل عمران[1]

١ - ﴿يومَ تجدُ كلُّ نَفْسٍ ما عملتْ من خير مُحْضَراً وما عملتْ من سوءٍ ، تَوَدُّ لو أنَّ بينهَا وبَيْنَهُ أمَداً بعيداً﴾ .

٢ - ﴿إن الذين يَشترون بعهد الله وأيْمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خَلاقَ لهم في الآخرة ، ولا يكلِّمُهم اللهُ ، ولا ينظُرُ إليهم يومَ القيامة ، ولا يزكِّيهم ، ولهم عذابٌ أليمٌ﴾ .

٣ - ﴿أولئك جزاؤهم أنَّ عليهم لعنةَ اللهِ والملائكة والناس أجمعين ، خالدين فيها ، لا يخفَّفُ عنهم العذابُ ، ولا هُم يُنظَرون﴾ .

٤ - ﴿يومَ تبيضُّ وجوهٌ وتَسْوَدُّ وجوهٌ . فأما الذين اسودَّتْ وجوهُهم : أكفرتم بعدَ إيمانكم ؟ فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون ! وأما الذين ابيضت وجوهُهم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ .

---

(١) السورة (٨٩) مدنية .

٥ - ﴿ولا يحسَبَنَّ الذين يبخلون بما آتاهم اللهُ من فضلهِ هو خيراً لهم ، بل هو شرٌّ لهم ، سَيُطَوَّقون ما بَخِلوا به يومَ القيامة﴾ .

٦ - ﴿كلُّ نَفْسٍ ذائقةُ الموتِ ، وإنما تُوَفَّوْنَ أجورَكم يوم القيامة ، فمَنْ زُحزِحَ عن النارِ وأُدخِلَ الجنَّةَ فقد فازَ﴾ .

* * *

١ - يتألف المشهد الأول من ظلال نفسية تنبغث من تجسيم متخيَّل . فها هي ذي النفوس تنظر في يوم القيامة ، فإذا الذي عملته في الدنيا محضر بخيره وشره ، وكأنما هو شيء مجسَّم يُحْضَر ، وتواجه به مواجهة حسية لا سبيل منها إلى الفرار . عندئذ تنبعث من هذه النفوس تلك الظلال النفسية التي ترسمها لنا مشخصة واضحة : إنها لتنفر مما عملته هي ذاتها نفوراً شديداً ، وإنها لتود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً . وإنها للحظات بائسة من الخزي والإشفاق والتمني الخائب ، ترتسم شاخصة في هذه الكلمات القصار .

٢ - أما المشهد الثاني فهو مشهد الإهمال والإهانة والاحتقار لمن عاهدوا ثم أهملوا عهدهم واشتروا به ثمناً قليلاً . وقد مر له شبيه ، ولكنه لا يكرر هنا حتى تكون به زيادة . فهناك كان مظهر الإهمال والإهانة أن الله لا يكلمهم ولا يزكيهم فزاد هنا أن الله لا ينظر إليهم أيضاً ، والنظر أدنى من الكلام والتزكية ، ولكنهم لا ينالونه أيضاً . فليسوا معترفاً بهم في الموقف أدنى اعتراف . أليسوا قد نقضوا عهدهم مع الله واشتروا به ثمناً قليلاً من الناس ؟ ألا إنهم ليستحقون الاحتقار والإهانة والإهمال !

٣ - والمشهد الثالث يصور لوناً جديداً من العذاب لم يسبق

تصويره . ليس العذاب هنا بالنار . ولا بشجرة الزقوم . ولا بالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ، ولا بالغسلين . ولا بالحميم يشربونه شرب الهيم ...

إنما هو عذاب من لون آخر . عذاب قد تحسه النفوس والقلوب أكثر مما تحسه الأبدان والبطون . إنه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ...

ولقد كانت لعنةٌ واحدةٌ من هذه اللعنات تسود حياة إنسان وتعذبه عذاباً شديداً . بل لقد كانت لعنة جيل واحد من الناس تنصب على فرد تصيِّر حياته جحيماً . فكيف بلعنة هائلة مجتمعة من لعنة الله ولعنة الملائكة ولعنة الناس أجمعين ؟

إنه نوع من العذاب لا يطاق . وهو جدير بأن يسمى عذاباً ، يزيد وقعه أنه خالد دائم ، وحاضر لا يؤجل : « خالدين فيها لا يُخَفَّف عنهم العذاب ولا هم يُنظرون » .

٤ – والمشهد الرابع نرى فيه منظراً عجباً . نرى وجوهاً مسودة ووجوهاً مبيضة . ولا بد أننا نعرف الآن لمن الوجوه المسودة ولمن الوجوه المبيضة . وهو مشهد حسي ، ولكنه منبعث عن تأثر نفسي ، ألقى ظله على هذه الوجوه فابيضت ، وعلى تلك الوجوه فاسودت . ومع أن في هذا الكفاية للدلالة على ما يجيش في نفوس هؤلاء وهؤلاء ، فإنهم لا يتركون لما يعتلج في نفوسهم من شعور تبدو ظلاله على وجوههم :

« فأما الذين اسودت وجوههم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » .

« وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون » .

وهذا وذلك زيادة في العذاب والنعيم ، وفي التحقير والتكريم .

٥ – والمشهد الخامس مشهد طريف كذلك . فهؤلاء قوم آتاهم

الله من فضله في الدنيا سعة في الرزق ومالاً ومتاعاً ، فبخلوا بذلك كله . وحسبوا أنفسهم ناجين ، ثم جاءوا يوم القيامة ، فإذا الذي بخلوا به شيء مجسم ، وإذا بهم يطوَّقون به أغلالاً في الأعناق تكتم الأنفاس . فما هم بحاجة إلى أغلال جديدة ؛ فلقد جاءوا بأطواقهم من بيوتهم ! ومما ملكته أيديهم ! ومما بخلوا به في دنياهم ! وهو ولا شك عقاب طريف ، وجزاء مخيف !

٦ - والمشهد السادس يرسم صورة لقوة العذاب . لا يرسمها مباشرة ، ولا يبرزها مواجهة . إنما هو يدع الألفاظ تلقي ظلالاً معينة ، فيرتسم في الضمير مشهد مخيف : «فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنةَ فقد فاز» فكل فرد إذن على وشك أن يسقط في النار ، وإنه ليحتاج في مجاوزتها قليلاً إلى جهد عنيف . جهد الزحزحة ، وهي الحركة البطيئة العنيفة «وزحزح» نفسها ترسم صورة لمعناها . فمن تمت له النجاة بعد هذا الجهد البطيء العنيف فقد فاز ، وقد نجا من الخطر ذي الجاذبية العنيفة ، التي يحتاج الإنسان إلى الجهد في مجاوزة منطقتها الخطرة . وعندئذ يدخل الجنة ، فلقد بعد خطر الجاذبية للنار !

مشهد بطيء عنيف للزحزحة ولإدخال الجنة ، يستقر في الحس منه أنها محاولة خطرة ، وأنها مجازفة رهيبة ، وأن جهنم بمرصاد لكل إنسان ، لا ينجو منها إلا بجهد ، وبعناية تلحظ الفرد ، وبقوة فوق قوته ، وبالنضال والجهاد !

سورة الأحزاب[1]

﴿يومَ تُقَلَّبُ وجوهُهم في النار ، يقولون : يا ليتَنا أطعْنا اللهَ

(١) السورة (٩٠) مدنية .

وأطعْنا الرسولا ! وقالوا : ربَّنا إنَّا أطعْنا سادتَنا وكبراءَنا فأضلُّونا السبيلا . ربّنا آتهِمْ ضِعْفَيْنِ من العذابِ ، والعَنْهم لعْناً كبيراً ﴾ .

* * *

عرفنا من قبل كبَّ الوجوه في النار ، وكبكبة المجرمين في جهنم ، وسحبهم على الوجوه في السعير . فهنا نشهد منظراً آخر : منظر الوجوه تقلَّب في النار ، وما هي بحاجة إلى التقليب فالنار تغشاها من كل جانب ؛ ولكنه مشهد مفزع ، فيه العناية بإيصال النار إلى كل جزء وإلى كل صفحة وجه ! ولا غرابة في أن نسمعهم يقولون في لهجة ضارعة ذليلة ، وفي نبرة نادمة حسيرة : «يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا» ثم ترتفع النبرة البائسة النادمة ، فترتد حنقاً أليماً وسخطاً مريراً على أولئك الذين أصاروهم إلى هذا المصير :

«وقالوا : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً» .

ثم يختم المشهد ، فلا جواب على هذا كله ، ولا تحتفظ المخيلة إلا بتقليب الوجوه ، والحسرة والكظم ، والحقد المرير .

سورة النساء [1]

١ - ﴿ فكيفَ إذا جئنا من كل أُمّة بشهيد ، وجئناَ بك على هؤلاء شهيداً ؟ يومئذٍ يودُّ الذين كفروا وعصَوُا الرسولَ لو تُسَوَّى

---

(١) السورة (٩٢) مدنية سبقتها سورة «الممتحنة» وليس بها إلا إشارة للقيامة .

بهم الأرضُ ، ولا يكتمُون الله حديثاً ﴾ .

٢ – ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم ناراً ، كلما نَضِجت جلودُهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ، إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾ .

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهُم جنات تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً ، لهم فيها أزواجٌ مطهَّرةٌ ، وندخلهم ظلاًّ ظليلاً ﴾ .

٣ – ﴿ ومن يطِع اللهَ والرسولَ فأُولئكَ معَ الذينَ أنعمَ الله عليهم من النبِّيين والصدِّيقين والشُّهداءِ والصالحين ، وحَسُنَ أولئك رفيقاً ﴾ !

٤ – ﴿ إن المنافقينَ في الدَّرْك الأسفل من النار ولن تجدَ لهم نصيراً ﴾ .

* * *

١ – في المشهد الأول ترتسم صورة قوية عميقة للشعور بالخزي القاتل والخجل المميت : وقد أحضر المتهمون وجيء بالشهداء ، ووقف كل رسول يَشْهد على قومه بما صنعوا . في هذا الوقت «يودُّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوَّى بهم الأرض» وللتعبير على هذا النحو قيمة خاصة لا يبلغها التعبير المباشر عن الشعور بالخزي والندامة ، مهما بلغ من القوة والبلاغة : «لو تُسَوَّى بهم» . إن جمال التعبير وعمق الظلال النفسية والشعورية التي يلقيها ، والمجال الذي يفتحه

لتأمل بواطن النفس ، وخلجات الحس ، في هذا الموقف ... إن هذا كله ليحول بيني وبين ترجمة هذه الألفاظ القلائل إلى أي تعبير سواها . وإن هذا التعبير المختصر الحافل بتلك الظلال ، ليعيد إلى نفسي تلك الصورة التي مرت في قوله : « لكل امرئ منْهُم يومئذ شأن يغنيه » ، وكلاهما فريد في تصوير الهول النفسي البحت لذلك اليوم الرهيب . وإنه ليبلغ في تصوير هذا الهول أن يطغى على الأهوال المادية : من انفطار السماء ، وارتجاف الأرضين ، وانتثار الكواكب ، وانكدار الشموس .. إلى آخر تلك الأهوال المادية التي تتجلى في عالم الطبيعة العظيمة . هنا هول يشيع في عالم النفس ، وإنه لأعمق من عالم الحس ، أياً كانت أهوال الطبيعة العظام ! وكل ذلك في كلمات ثلاث أو أربع تلقي حشداً عميقاً من الصور والظلال .

٢ — أما المشهد الثاني فهو مشْهد مطوّل للعذاب الحسي . ومع أن ألفاظه ليست طويلة ، ولكنه يأخذ التطويل من التكرار : « كلما نضجت جلودهم بدلناهُم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » وتلك إحدى وسائل التطويل في عرض المناظر في القرآن . فلفظ « كلما » هنا يدع الخيال يستعرض المشهَد المروّع ، ويكرر العملية المفزعة ؛ وكلما زاد فزعاً وارتياعاً ، زاد إقبالاً على التكرار . والهول المروّع يشد الحس إلى المنظر المتخيل شداً ، ويقفه أمام المشهد لا يريم ، إلا أن ينتقل مع السياق إلى مَشْهَد الذين آمنوا في جنات تجري من تحتها الأنهار ، وفي ظل ظليل ، يقابل ذلك الإنضاج للجلود ، واللفح والشواظ . وإنه لينزلُ على الحس في هذه المناسبة برداً وسلاماً ، وروْحاً واستجماماً ، بعد مشهد العذاب الشديد ، ومشهد الشيِّ والوقود !

٣ — ويعرض في المشهد الثالث لونٌ جديد من النعيم بالتكريم

الخالص ، وهذا التكريم هنا هو مصاحبة النبيين والشهداء والصالحين . فحسب إنسان أنْ يكون مع هؤلاء «وحَسُن أولئك رفيقاً» وهو نوع من النعيم يناسب ذوي النفوس الطيبة والأحاسيس النبيلة ، أولئك الذين يهمهم النعيم الأدبي المعنوي ، فلا يعدلون به أشهى النعيم الحسي . وفي هذا المشهد نوع من ذلك النعيم .

٤ – وللمرة الأولى يعرض المشهد الرابع للمنافقين . يعرضهم في «الدرك الأسفل من النار» حسيًّا أو معنويًّا ، والتعبير يلقي في النفس ظل الاحتقار والامتهان ، مع شعور التثقيل ، في العذاب المكتوم المضغوط تحت الطوابق العليا ، في الدرك الأسفل من النار !!!

سورة الزلزلة[1]

﴿ إذا زُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَهَا ، وأخرجتِ الأرضُ أثقالَها ، وقال الإنسانُ : مَا لَهَا ؟ . يومئذٍ تُحدِّثُ أخبارهَا ، بأنَّ ربّك أوحَى لَهَا . يومئذٍ يَصْدُرُ الناسُ أشتاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهَم : فمَنْ يعمل مثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يرَهُ ، ومنْ يعملْ مثقالَ ذَرَّةٍ شرًّا يَرَهُ ﴾ .

* * *

هذه السورة أشبه شيء في نِظامها وفي مشاهدها بالسور المكية ، وهي تلحق بمشاهد القيامة في سور التكوير والانفطار والانشقاق ... الخ . والهول هنا مادي في مشاهد الطبيعة ، وحسِّي في داخل الحس الإنساني . فالأرض تزلزل زلزالها ، والأرض تخرج أثقالها : من جثث

---

(١) السورة (٩٣) مدنية .

مدفونة ، ومعادنَ مطمورة ، وكنوز مكنونة . ويبهت الإنسان لهذا المشهد الذي لم يألفه ، والذي يفعم حسه ونفسه ، فيسأل : ما لها ؟ ما لها تزلزل وتضطرب ، وتخرج ما فيها من دفائن وأجساد ؟

وهنا يَبْدَهُ الإنسانَ مشهدٌ لعله أشدّ من مشهد الزلزلة والانفجار . فهذه هي الأرض «تحدِّث أخبارها بأنَّ ربَّك أوحى لها» وقد انقلبت هذه الأرض شخصية حية ، تُسأل فتجيب ، وتبدي الطاعة للخالق المدبر . «يومئذ يَصْدُر الناس أشتاتاً» وينبعثونَ أفراداً ، يبعثرهم الهول الهائل ، ويفرقُهم الشغل ، الشاغِل . إنهم صدروا : «لِيُرَوا أعْمَالهم» لا لِيَرْوها طوعاً ، بل ليحملوا على الرؤية حملاً ! ثم تبدأ عَملية الوزن في الميزان الدقيق الذي تميله الذرة إنْ خيراً وإنْ شراً «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مِثقال ذرة شرًّا يره» .

سورة الحديد[1]

١ — ﴿ يومَ ترَى المؤمنين والمؤمناتِ يَسْعى نورُهم بين أيديهم وبأيْمَانهم . بُشراكم اليوم جنَّاتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ذلك هو الفوزُ العظيم . يوم يقولُ المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انْظُرُونَا نَقْتَبسْ من نوركم . قيل : ارجِعوا وراءَكم فالتمسُوا نوراً . فضُرِبَ بينهم بسُورٍ له بابٌ : باطنه فيه الرحمةُ وظاهِرُهُ من قِبَلِهِ العذابُ ، ينادونهم : ألمْ نكن معكمْ ؟ قالوا : بلى ! ولكنكم فَتَنْتُم أنفسَكم ، وترَبَّصْتُم ، وارتبْتُم ، وغرّتكم الأمانيُّ ، حتى جاءَ

---

(١) السورة (٩٤) مدنية .

أمرُ اللهِ وغرَّكُمْ باللهِ الغَرُورُ . فاليومَ لا يُؤخذُ منكم فِديةٌ ولا من الذين كفروا ، مأواكم النارُ هي مَوْلاَكم وبئس المصير ﴾ .

٢ - ﴿ سابِقوا إلى مغفرةٍ من ربِّكم وجنَّةٍ عرضُها كعرض السماء والأرض أُعدت للذين آمنو بالله ورسله ﴾ .

* * *

١ - المشهد هنا بإجماله وتفصيله جديد ، وهو من المشاهد التي يحييها الحوار ، بعد أن تُرسم صورتها المتحركة رسماً قوياً . فنحن نشهد هنا منظراً عجباً ، وهؤلاء هم المؤمنون والمؤمنات نراهم ، ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعاً لطيفاً هادئاً . ذلك نورهم يشع منهم ويفيض بين أيديهم . وذلك مشهد لطيف حقاً . فهذه الأجسام الإنسانية المعتمة ، قد أشرقت وأضاءت ، وأشعت نوراً يمتد منها فيرى أمامها ويرى عن يمينها ، وتوجه أبصارنا نحن النظارة في ساحة العرض إلى هذا النور ، ثم ها نحن أولاء نراه وها نحن أولاء نسمع ما يوجه إلى المؤمنين والمؤمنات هؤلاء من تكريم وتبشير : «بُشراكم اليوم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم» .

ولكن المشهد لا ينتهي عند هذا المنظر الطريف اللطيف . إن هناك جماعة من المنافقين ، وهم كعادتهم في الدنيا أولو ملق وتظاهر ، أم لعلهم هنا صادقون فيما يطلبون : «يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظُرونا نقتبسْ من نوركم» فحيثما تتوجه أنظار المؤمنين والمؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشفيف . ولكن أنَّى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور ، وقد عاشوا حياتهم كلها في ظلام ! إن صوتاً مجهَّلاً يناديهم : «ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً» ، والظاهر أنه

صوت للتهكم والتذكير بما كان منهم في الدنيا من نفاق ودس في الظلام : ارجعوا وراءكم في الدنيا إلى ما كنتم تعملون . ارجعوا فالنور يلتمس من هناك ، ومبعثه هو العمل في الدنيا ، وقد فات أوانه . ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور ! ولعلهم لا يفهمون السخرية فيتراجعوا قليلاً ! أم لعلهم فهموها وأحسوا الندامة والأسى ! على أية حال : لقد ضرب بين الفريقين بسور فاصل يحجب هؤلاء عن هؤلاء ، في جانب منه نعيم المنعمين ، وفي جانب منه عذاب المعذبين . ويبدو انه سور يمنع الرؤية ولكنه لا يمنع الصوت . فها هم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين : «ألم نكن معكم ؟» فما بالنا نفترق عنكم ، ألم نكن معكم في الدنيا نعيش في صعيد واحد ، وقد بعثنا هنا معكم في صعيد واحد ؟ «قالوا : بلى !» كان الأمر كذلك ، «ولكنكم فتنتم أنفسكم» وصرفتموها عن الهدى ، «وتربصتم» فلم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الأخيرة ، لأنه لم يكن لكم من اليقين ما يدفعكم إلى الاختيار الحاسم «وارتبتم ، وغرتكم الأماني» الباطلة في أن تنجوا بهذه الذبذبة ، وأن تمسكوا العصا من طرفيها ، فتجنوا الفائدة مضاعفة . «حتى جاء أمر الله» وانتهى الأمر «وغرّكم بالله الغَرور» وهو الشيطان غالباً ذلك الذي أطمعكم في الفوز ، وإن لم تثوبوا إلى يقين . ثم يستمر المؤمنون في التذكير والتقرير ، كأنما هم أصحاب الموقف المحكمون : «فاليومَ لا يُؤخذ منكم فديةٌ ولا من الذين كفروا ، مأواكم النارُ هي مولاكم ويا لها من مولى !» «وبئس المصير» !

ويتكرر في السورة ذكر النور : «والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء ، عند ربهم ، لهم أجرهم ونورهم» و: «يا أيها الذين آمَنُوا اتقوا الله وآمِنُوا برسوله ، يؤتكُمْ كِفْلَيْن من رحمته ،

ويجعل لكم نوراً تمشون به » .

وننظر فنجد للنور هنا حكمة خاصة ، تشيع التناسق في المشهد كله : إن الحديث هنا عن المنافقين . والمنافقون يخفون باطنهم ، ويتظاهرون بغير ما في الضمير المكنون ؛ ويعيشون في ظلام من النفاق والدس والوقيعة . والنور يكشف المخبوء ، ويفضح المستور ، فهو أليق شيء هنا بأن تطلق أشعته على المشهد الكبير ! وأن ينير كذلك بين أيدي المؤمنين والمؤمنات . بينما المنافقون في الدرك الأسفل من النار – كما عرفنا من قبل – أي في بطون الظلمات التي تناسب ظلمات الضمير ، وظلمات الخافي المستور !

٢ – والمشهد الثاني في سياق السورة ، هو مشهد المساحة الواسعة تشغلها الجنة « عرضها كعرض السماء والأرض » وهي مساحة واسعة شاملة تفسح المجال لتصور مشاهد النعيم الحافل في هذا المجال الفسيح . وتلك وظيفة المشهد هنا . فهو يجيء بعد ذكر متاع الدنيا وقصره : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد ، كمثل غَيث أعْجَبَ الكُفَّارَ نباتُه ، ثم يَهيج فتراه مُصْفراً ، ثم يكون حطاماً . وفي الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ... » ثم يذكر الجنة وعرضها فيفسح المجال للموازنة الشعورية بين ذلك المتاع الضيق القصير ، وهذا النعيم الرحيب الوسيع .

سورة محمد [١]

﴿مَثَلُ الجنة التي وُعِدَ المُتَقُونَ ، فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسنٍ ،

(١) السورة (٩٥) مدنية إلا آية نزلت في الطريق في أثناء الهجرة .

وأنهارٌ من لبَن لم يتغيرَّ طعمهُ ، وأنهارٌ من خمرٍ لَـذَّةٍ للشاربين ، وأنهارٌ من عسلٍ مُصَفًّى ، ولهم فيها من كلِّ الثمرات ، ومَغفرةٌ مِنْ ربّهم . كَمَنْ هوَ خالدٌ في النار ، وسُقُوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءَهم ﴾ .

* * *

ذلك عرض للون من ألوان النعيم : أنهار من ماء ، وأنهار من لبن ، وأنهار من خمر ، وأنهار من عسل ... كل شيء هنا بلا حساب ، وكل شيء هنا لا ينضب له معين ، فهي أنهار تجري بأطايب الحياة التي يتشهاها الإنسان ، ولا يجد منها إلا القدر اليسير ، وهذه الأنهار من نوع أجود ، ومن طعم ألذ . ومع هذا كله فاكهة من كل الثمرات ، ومع الطعام والشراب « مغفرة من ربهم » .

هذا كله في ناحية والخلود في النار ، والماء الحميم يقطع الأمعاء ويشوي البطون في الناحية الأخرى . وهذا مثل ذاك . كلاهما نهاية الطرف في النعيم والعذاب !

ونشهد هنا لوناً من التناسق في تصميم اللوحة . المشهد كله مشهد أشربة : أشربة في الجنة وشراب في النار . الماء واللبن والخمر والعسل ، وأمامها الحميم الذي يقطع الأمعاء . ولكنه بعد شراب . لتتحد الجزئيات ، ويتوحد الأساس في رسم المشاهد واللوحات .

سورة الرعد [1]

١ - ﴿ وإنْ تَعْجَبْ فعَجَبٌ قولُهم : أئذا كُنَّا تُراباً أئنَّا لفي

(١) السورة (٩٦) مدنية .

خلقٍ جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربِّهم ، وأولئك الأغلالُ في أعناقِهم ، وأولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون ﴾ .

٢ - ﴿ جناتُ عَدْنٍ يدخلونها ومَنْ صَلَحَ مِنْ آبائهم وأزواجهم وذُرِّيَّاتهم ، والملائكة يَدْخُلُون عليهم من كلِّ بابٍ : سلامٌ عليكم بما صَبَرْتم ، فنِعْمَ عُقْبى الدار ﴾ .

٣ - ﴿ مَثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون تجري من تحتها الأنهار ، أُكُلها دائمٌ وظِلها ، تلك عُقْبى الذين اتَّقَوْا ، وعُقْبى الكافرين النارُ ﴾ .

* * *

١ - طرافة المشهد الأول أنه يعرض صورة لقوم من الكفار ، يقولون : «أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد ؟» وبينما هم يقولون ذلك يصورهم لنا و«الأغلال في أعناقهم» وهذه الأغلال سيلقونها في الآخرة . ولكن الطرافة هنا في التعجيل بذلك اليوم ، ومزجه بالموقف الحاضر ، حتى لكأن الأغلال الآن في أعناقهم في اللحظة التي يقولون فيها قولتهم . وهو تخييل سريع . وهو كذلك طريف عجيب

٢ - وقد سبق أن شاهدنا الملائكة يتلقون المؤمنين بالتحية ، أو يبشرونهم بالجنة ، أو يتوفونهم طيبين . فالآن نشهدهم يدخلون من كل باب على المؤمنين ، ومعهم زوجاتهم وذرياتهم . يدخلون عليهم من كل باب بالتحية والتكريم : «سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» والتعبير «يدخلون عليهم من كل باب» يهيئ للنظر مشهداً للدخول الكثير من جهات متعددة ، ويوقع في الحس كثرة الترحيب والتأهيل . ودوام التسليم والتكريم .

٣ - والمشهد الثالث مشهد الأنهار الجارية والأكل الدائم والظل الذي لا ينحسر ؛ وهو مشهد المتاع والجمال والاسترواح . تلك عقبى الذين اتقوا ، تقابلها عقبى الكافرين : النار !

سورة الرحمن [1]

﴿ فإذا انشقَّتِ السماءُ فكانتْ وَرْدَةً كالدِّهانِ . فبأي آلاء [2] ربِّكما تُكَذِّبَانِ ؟ فيومئذ لا يُسْأَلُ عن ذنْبِهِ إنسٌ ولا جانٌّ . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبانِ ؟ يُعْرَفُ المجرمونُ بسيماهم فيؤخذُ بالنَّواصِي والأقدامِ . فبأي آلاء ربِّكما تكذّبان ؟ هذهِ جهنمُ التي يكذِّب بها المجرمون يطوفون بينها وبينَ حميمٍ آنٍ . فبأي آلاء ربكما تكذِّبان ؟ ﴾

﴿ ولِمَنْ خافَ مقامَ ربِّه جنتَّانِ . فبأي آلاء ربِّكما تكذِّبان ؟ ذَوَاتاَ أفنانٍ . فبأي آلاء ربِّكما تكذِّبان ؟ فيهما عينان تجريانِ . فبأي آلاء ربِّكما تكذِّبان ، فيهما من كلٍّ فاكهة زوجان . فبأي آلاء ربِّكما تكذِّبان ؟ متكئين على فُرُشٍ بطائنُها من اسْتَبرقٍ وجَنَى الجنَّتَين دانٍ . فبأي آلاء ربِّكما تكذِّبان ؟ فيهنَّ قاصراتُ الطَّرْفِ لم يَطْمِثْهُنَّ إنسٌ قبلهم ولا جانٌّ . فبأي آلاء ربِّكما تكذِّبان ؟ كأنهن الياقوتُ والمَرْجانُ . فبأي آلاء ربِّكما تكذِّبان ؟ هل جزاءُ الإحسانِ إلاَّ الإحسانُ ؟ فبأي آلاء ربِّكما تكذِّبان ؟ ومن دونهما جنَّتانِ .

---

(١) السورة (٩٧) مدنية .

(٢) نعم .

فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ مُدْهامَّتانِ . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ فيهما عينان نَضّاخَتَانِ . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ فيهما فاكهةٌ ونخلٌ ورمانٌ . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ فيهنَّ خَيراتٌ حِسانٌ . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ حورٌ مقصوراتٌ في الخيامِ . فبأي آلاء ربكما تكذبان ! لم يطْمِثْهُنَّ إنسٌ قبلهم ولا جانٌّ . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ متَّكئين على رَفْرَفٍ خُضْر وعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ .

﴿ تبارك اسمُ ربِّك ذي الجلال والإكرام ﴾ .

* * *

يسير السياق في هذه السورة على نسق خاص كالذي مر في سورة المرسلات وسورة القمر : يعرض نعم الخالق على خلقه ويعددها ، ثم يسأل بعد كل منها : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » والخطاب موجه فيها إلى الإنس والجن ؛ ثم يستطرد من نعم الخالق على خلقه في الدنيا إلى آلائه عليهم في الآخرة ؛ ويعد الجزاء على الخير والشر بالنعيم والعذاب من بين هذه النعم ؛ وإنها لكذلك ، فالعدالة في الجزاء نعمة إلٰهية كبرى ، يعجز عنها الإنسان ولا يحققها إلا إلٰه .

وتبدأ مشاهد القيامة هنا بانشقاق السماء ؛ وللمرة الأولى نشهدها حمراء وردة سائلة كالدهان ؛ ونرى كذلك مشهداً غريباً علينا بعض الشيء في مشاهد القيامة ، فسيما الوجوه تدل عليها ، والمجرمون يعرفون بسيماهم – وبلا سلام ولا كلام – يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم فيقذفون ، حيث « لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان » وما الحاجة إلى

السؤال ، والوجوه ناطقة والفريقان معروفان ؟! .

وبينما الأخذ بالنواصي والأقدام يذهل العقول ويرجف الأفئدة ، توجه أنظارنا إلى حقيقة الموقف : « هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون » هذه هي وها هم أولاء « يطوفون بينها وبين حميم آنٍ » متناه في الحرارة ، وهم يتراوحون بين جهنم وبين هذا الماء الآني ، فيا له ويا لها من عذاب !

« ولمن خاف مقام ربِّه جنَّتان » وللمرة الأولى كذلك تذكر الجنتان . وهما ضمن الجنة الكبيرة المعروفة . ولكن اختصاصهما قد يكون لنوعهما أو لمرتبتهما . وكما علمنا في سورة الواقعة أن هناك مراتب في الجنة : فهناك السابقون المقربون وهناك أصحاب اليمين . ولكل منهما نعيم . فهنا كذلك نلمح أن هاتين الجنتين هما لفريق ذي مرتبة عالية ، ثم نرى جنتين أخريين فيهما من هاتين مشابه ، ولكنهما أقل درجة ، ونلمح أنهما للفريق الذي يلي هذا الفريق .

فلنشهد الجنتين الأوليين فهما « ذواتا أفنان ... فيهما عينان تجريان ... فيهما من كل فاكهة زوجان ... » وأهل الجنتين ما حالهما ؟ أنظر تجدهم : « متكئين على فُرشٍ بطائنها من إستبرق » وتلك رفاهة ظاهرة في الفراش « وجَنى الجنتين دانٍ » لا يتعب في القطاف ، وذلك أيضاً ترف ملحوظ ! ولكنه لا يستقصي ما فيهما من متاع « فيهن قاصراتُ الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » عفيفات النظر والملمس ، لا يمددن بأبصارهن ، ولم يمسسهن إنس ولا جن . وليس هذا وحده ، فهن نضيرات لامعات ثمينات « كأنهن الياقوت والمرجان » ... وذلك كله جزاء حق لمن خاف مقام ربه ، وتوقع الآخرة ، وخشي الله فيها : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ؟

«ومن دونهما جنتان» أخريان لذلك الفريق الآخر . وأوصافهما كذلك أدنى من أوصاف هاتين ، فهما : «مُدْهامَّتان» أي مخضرتان خضرة تميل إلى السواد لما فيهما من أعشاب «فيهما عينان نضَّاختان» تنضخان بالماء وتنبضان . وذلك دون الجريان «فيهما فاكهة ونخل ورمان» وهناك «من كل فاكهة زوجان» «فيهن خيراتٌ حِسان» ومن هن هؤلاء الخيرات الحسان ؟ هن «حورٌ مقصورات في الخيام» ومن كلمة الخيام نفهم أنهن أشبه بالبدويات ، وأنه نعيم بدوي دون النعيم الحضري الذي مرّ في تينك الجنتين الأخريين ! «لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان» فهن يشتركن في الصون والعفاف مع أولئك ؛ ولكن لم يذكر هنا أنهن «كأنهن الياقوت والمرجان» . وأهل هاتين الجنتين ؟ انظر تجدهم : «متكئين على رفرف خضر» أي أبسطة «وعبقري حسان» وهي جميلة كأنها من صنع عبقر . ولكن المتكآت كانت هناك مبطنة بالإستبراق ! وهناك «جنى الجنتين دان» ... هما درجتان من النعيم ، تمثل الدرجة الأولى بالترف والرفاهية في الحضر ، وتمثل الثانية بالترف والرفاهية في الوبر . تُرى هذه الصور والأشكال مجرد مُثل للنعيم تقربه للحس ، وتصوره للخيال ؟ لا أجزم بشيء ، فليس لدي برهان .

سورة الإنسان[1]

﴿إناَّ هديناه السبيلَ إماً شاكراً وإماً كَفُوراً . إنا أعْتَدْنا للكافرين سلاسلَ وأغلالاً وسعيراً . إن الأبرارَ يشربون من كأس كان مزاجُها

---

(١) السورة (٩٨) مدنية .

كافوراً . عيناً يشربُ بها عبادُ الله يُفجِّرونها تفجيراً . يوفون بالنَّذْر ويخافونَ يوماً كان شرُّه مستطيراً ويُطعمون الطعامَ — على حُبِّه — مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جَزاءً ولا شُكوراً . إنَّا نخاف من ربِّنا يوماً عَبوساً قَمْطريراً . فوقاهم الله شرَّ ذلك اليومِ ، ولَقَّاهم نَضْرةً وسروراً ، وجزاهم بما صبروا جَنَّةً وحريراً . متَّكئين فيها على الأرائك ، لا يَرَوْن فيها شمساً ولا زمهريراً . ودانية عليهم ظِلالها وذُلِّلتْ قطوفُها تذليلاً . ويُطافُ عليهم بآنيةٍ من فضةٍ ، وأكوابٍ كانت قواريرَ . قواريرَ من فضةٍ قدَّروها تقديراً . ويُسْقَوْن فيها كأساً كان مزاجُها زنجبيلاً . عيناً فيها تُسمى سَلْسَبيلاً . ويطوف عليهم ولدان مخلَّدون ، إذ رأيتهم حسبتَهم لؤلؤاً منثوراً . وإذا رأيت — ثَمَّ — رأيتَ نعيماً ومُلكاً كبيراً ، عالِيَهم ثيابُ سندس خُضْرٌ وإسْتبرقٌ ، وحُلُّوا أساورَ من فضةٍ ، وسقاهم ربُّهم شراباً طهوراً . إنَّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيُكم مشكوراً ﴾ .

﴿ إن هؤلاء يحبون العاجلة ، ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ﴾ .

* * *

تبدأ هذه المشاهد بتقدمة عن الإنسان ، الذي خلقه الله فجعله « سميعاً بصيراً » وهداه السبيل وترك له حرية الاختيار « إما شاكراً وإما كفوراً » ثم تنتهي بما ينتهي إليه الطريقان : طريق الشكر وطريق الكفران ، وكأنما نحن نشهدها الآن ، على طريقة القرآن !

فأما الكافرون فقد هيأ لهم « سلاسل وأغلالاً وسعيراً » وذلك

إجمال لوسائل العذاب . لا يزيد عليه هنا ، بل يعمد إلى صور النعيم فيفصلها تفصيلاً . وقد وردت معظم مشاهد النعيم هذه من قبل ، ولكن التنويع في عرضها ، والتفصيل في جزئياتها ، وبيان أسمائها ، يجعلها من وجهة العرض الفني جديدة .

فالأبرار يشربون من كأس كانت توصف من قبل بأنها «لا لغو فيها ولا تأثيم» أو أنهم لا يُصدَّعون عنها ولا يُنزفون ، ولكننا لم نكن نعلم ماهيتها ونوعها . ومرة واحدة عرفنا أنها «من تسنيم» ، فالآن نعرف لوناً آخر من الشراب ، فهذه الكأس «كان مزاجها كافوراً» مرة «وكان مزاجها زنجبيلاً» مرة . فالكأس إذن متعددة الموارد ، وإن اشتركت في الصفات العامة من حيث أثرها في شاربيها .

وفي أثناء السياق يأتي ذكر عباد الله الذين يشربون من هذه الكأس فيستطرد السياق في تعداد أوصافهم ، فهم قوم يطعمون الطعام ـ على حبه ـ مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، وهم قوم يفعلون الخير لوجه الله لا يريدون من الناس جزاء ولا شكوراً ، وهم قوم يخافون الله ويخشون يوماً عبوساً قمطريراً ، هو ذلك اليوم الذي نحن فيه ، وقد وقاهم الله شر ذلك اليوم «ولقّاهم نضرةً وسروراً» وجنة وحريراً . فلنشهدهم الآن في جلستهم الهادئة المريحة المعهودة «متكئين فيها على الأرائك» ولكن لنشهد حالة لم تعرض من قبل ، أو عرضت بغير هذه الصيغة «لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً» وقد عرفنا من قبل أن هنالك ظلاً ظليلاً ؛ وعرفنا مرة أن «أكلها دائم وظلها» فلنشهد الآن هذا المشهد الفريد «لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً» ويكمل المشهد «ودانية عليهم ظلالها ، وذلِّلت قطوفها تذليلاً» .

ثم نشهد الطواف عليهم بالأكواب . ولكننا نشهد الآن أنها قوارير

من فضة ، فهي فضة شَفَّةٌ إذن لا تحجب ما بداخلها – وتلك نهاية الإبداع في الصنعة ونهاية الترف في النعيم – ثم لنشهد الغلمان . إنهم «مخلّدون» لا يفعلُ فيهم الزمن ، ولا تؤثر فيهم السن ؛ وإنهم لفي نضارة وبهجة «إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً» ... ثم يمد السياق بأبصارنا إلى المشهد كله ، وإلى ما وراء هذه الجزئيات ، فإذا هنالك حيثما اتجه النظر ، نعيم عظيم وملك كبير ، ومنعمون تعلوهم ثياب من السندس والإستبرق وحلى من الفضة ، وهم يشربون شراباً طهوراً ، يزيد من قيمته أن ربهم هو الذي سقاهم إياه ..

وعند هذه النظرة الشاملة نسمع القرار الشامل : «إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً» .

٢ – أما النص الثاني فيهمنا منه وصف اليوم بأنه ثقيل . وهو وصف مجسم لليوم ، كوصفه العذاب بأنه غليظ ، يقابله حبهم للعاجلة ؛ فكأنهم يستخفون هذه ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً هو أولى بالاهتمام ، لأنه ثقل يعوق خطاهم ، ويقعد بهم ، ويسبب لهم العناء .

سورة النور [1]

﴿ إن الذين يرمون المُحْصَنَاتِ الغافلاتِ المؤمناتِ لُعِنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذابٌ عظيمٌ ، يومَ تَشْهَدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يعملون . يومئذٍ يُوفِّيهم الله دِينَهم الحقَّ ، ويعلمون أن الله هو الحقُّ المبين ﴾ .

* * *

(١) السورة (١٠٢) مدنية سبقتها سور «الطلاق والبينة والحشر» وفيها جميعاً ذكر للجنة والنار ولكنه لا يبلغ أن يكون مشهداً من مشاهد القيامة .

رأينا من قبل ذلك المشهد العجيب ، الذي يقف فيه المجرمون . فيشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يفعلون ، وحضرنا ذلك الحوار الطريف بينهم وبين جلودهم . وسمعنا الرد المفحم لهذه الجلود !

فالآن نشهد طائفة أخرى من الجوارح تشهد : الألسنة والأيدي والأرجُل . وللألسنة هنا شأن لأنها هي التي لاكوها في الدنيا ، فقذفوا بها المحصنات الغافلات المؤمنات زوراً وبهتاناً . فهي اليوم تشهد عليهم حقاً وصدقاً . ويومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، ويعطيهم جزاءهم المستحق . ويعلمون كذلك أن الله هو الحق . وتتكرر هنا لفظة الحق وتؤكد تأكيداً ، لأننا أمام مشهد افتراء وكذب في الدنيا ، يقابله مشهد صدق وحق في الآخرة ؛ حتى لتنطق بهذا الحق تلك الألسنة التي تحركت بالكذب ، وتؤيدها الأيدي والأرجل ، وهي أبعاض من هؤلاء الأفَّاكين ، تدمغهم بالحق المبين .

سورة الحج [1]

١ - ﴿ يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكم إن زَلْزَلَةَ الساعةِ شيءٌ عظيمٌ . يوم تَروْنَها تَـذْهَلُ كلُّ مُرْضِعةٍ عما أرضَعَتْ ، وتَضعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلها ، وتَرى الناسَ سُكارى وما هم بِسُكارى ، ولكنَّ عذاب الله شديد ﴾ .

٢ - ﴿هٰذان خصمانِ اختصموا في ربِّهم : فالذين كفروا قُطِّعَتْ لهم ثيابٌ من نارٍ ، يُصَبُّ من فوق رؤوسهم الحميمُ ،

(١) السورة (١٠٣) مدنية إلا أربع آيات نزلت بين مكة والمدينة .

يُصْهَرُ به ما في بطونهم والجلود ؛ ولهم مقامعُ من حديد ؛ كلما أرادوا أن يَخْرجوا منها – مِنْ غـمّ ٍ – أعيدوا فيها ، وذوقوا عذابَ الحريق ﴾ .

﴿إن الله يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ، يُحَلَّوْن فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ، ولباسهم فيها حرير ؛ وهُـدُوا إلى الطيب من القول ، وهُـدُوا إلى صراط الحميدِ ﴾ .

* * *

١ – المشهد الأول مشهد حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت ، تنظر ولا ترى ، وتتحرك ولا تعي ؛ وبكل حامل تسقط حملها ، للهول المروّع ينتابها ؛ وبالناس سكارَى وما هم بسكارَى ، يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة ، وفي خطواتهم المترنحة . مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج ، تكاد العين تبصره بينما الخيال يتملاّه ، والهول الشاخص يذهله ، فلا يكاد يبلغ أقصاه ؛ وهو هول حي لا يقاس بالحجم والضخامة ، ولكن بوقعه في النفوس الآدمية : في المرضعات الذاهلات عما أرضعن ، والحوامل الملقيات حملهن ، والسكارى وما هم بسكارى « ولكن عذاب الله شديد » . ويبدأ المشهد بالتهويل المجمل : إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، وينتهي بالهول المفصل ، فإذا هو مصداق ذلك الإجمال .

٢ – والمشهد الثاني مشهد عنيف صاخب ، حافل بالحركة المتكررة . مطوّل بالتخييل الذي يبعثه النسق ، فلا يكاد ينتهي الخيال من تتبعه في تجدده :

هذه ثياب من النار تقطع وتفصل . وهذا حميم يصب من فوق الرؤوس ، يصهر به ما في البطون والجلود . وهذه مقامع من حديد . وهذا هو العذاب يشتد ويتجاوز الطاقة ؛ فيهب « الذين كفروا » من الوهج والحميم ، والضرب الأليم ، يهمون بالخروج من هذا « الغم » وها هم أولاء يُردُّون بعنف : « ذوقوا عذاب الحريق ! » ويظل الخيال يكرر هذه الصورة من أولى حلقاتها إلى أخيرتها ، حتى يصل إلى حلقة الخروج ثم الرد العنيف ، ليبدأ العرض من جديد !

ولا يبارح الخيال هذه الصورة المتجددة العنيفة إلا أن يلتفت إلى الجانب الآخر الذي يستطرد إليه السياق ليعرضه . فأصل القصة : أن هناك خصمين اختصموا في ربهم : فأما الذين كفروا فقد كنا نشهد مصيرهم المفجع منذ لحظة ، وأما الذين آمنوا فهم هنالك في الجنات تجري من تحتها الأنهار ، وملابسهم لم تقطع من النار وإنما فصلت من الحرير ، ولهم فوقها حلى من الذهب واللؤلؤ . وقد هداهم الله إلى الطيب من القول وإلى صراط الحميد . وتلك عاقبة الخصام في الله . فهذا فريق وذلك فريق !

ثم نرجع إلى مشهد عرضنا له من قبل في سورة « السجدة » وقلنا : إن الآيات التي عرضت هذا المشهد مدنية ، ورجحنا أن يكون تاريخها قريباً من تاريخ هذه الآيات من سورة الحج ، لما لاحظناه من أن المشاهد المتشابهة كثيراً ما تأتي متقاربة ، وذاك المشهد هو :

« وأما الذين فسقوا فمأواهم النار ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون » .

وهو مشهد قريب الشبه من بعض الوجوه بالمشهد الذي عرضناه هنا . والكلام فيه كالكلام في سابقه ، فلا حاجة بنا إلى التكرار .

سورة المجادلة[1]

﴿ يومَ يبعثُهم جميعاً ، فيحلفون له كما يحلفون لكم ، ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ .

* * *

شهدنا من قبل هذا المشهد المضحك البائس . مشهد المشركين الذين بعثوا فقالوا : « والله ربِّنا ما كنا مشركين » وهم يحسبون أنهم لا يزالون في الدنيا ، أو أن الكذب قد يجوز في الآخرة . وقد سخرنا هناك ما سخرنا من أولئك المغفلين ! فها هم أولاء إخوان لهم مردوا على الكذب في الدنيا ، وعلى الحلف للمؤمنين وهم كاذبون ؛ ثم يبعثهم الله جميعاً « فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء » ! فلنسخر بهؤلاء كما سخرنا بأولئك فهي غفلة تلذ للساخرين !

سورة التحريم[2]

﴿ يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسَكم وأهليكم ناراً ، وقُودها الناسُ والحجارةُ ، عليها ملائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ ، لاَ يَعْصُونَ الله ما أمَرَهم ويفعلون ما يُؤمرون . يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليومَ . إنما

---

(١) السورة (١٠٥) مدنية سبقتها سورة « المنافقون » وليس بها مشاهد للقيامة .

(٢) السورة (١٠٧) مدنية سبقتها سورة « الحجرات » وليس فيها مشاهد للقيامة .

تُجزَوْن ما كنتم تعملون . يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصُوحاً ، عسى ربُّكم أن يكفِّرَ عنكم سيئاتكم ، ويُدْخِلَكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ، يوم لا يُخزِي اللهُ النبيَّ والذين آمنوا معه ، نورُهم يَسْعَى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربَّنا أتمم لنا نورَنا ، واغفرْ لنا ، إنك على كل شيء قديرٌ﴾ .

* * *

لقد شهدنا من قبل جهنم ، وهي تتغذى بالناس كما تتغذى بالحجارة ، وهذه وتلك عندها سواء ، في المهانة والحقارة . فالآن نشهد هذا المشهد أيضاً ، ولكننا لا نقف عنده ، لأن هناك ما يلفتنا بشدة وما يرهبنا بقوة : إنهم حراس جهنم ، وهم « غلاظ شداد » وإنهم في الوقت ذاته لمنفذون للأوامر سراعاً « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ، وبينما كنا في أول السياق نشهد هذا المشهد من بعيد إذ نحن ما نزال في الدنيا ، حيث يحذر الله المؤمنين من هذه النار التي وقودها الناس والحجارة . إذا نحن في لمح البصر قد صرنا في الأخرى ، وإذا نحن نسمع الخطاب يوجه للكافرين : « يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليومَ إنما تجزون ما كنتم تعملون » .

وبالسرعة عينها نرتد إلى الدنيا ــ على هذا المشهد ــ ليوجه الخطاب إلى المؤمنين أن يتوبوا توبة نصوحاً ، عسى أن يكفر الله عنهم سيئاتهم ، ويدخلهم الجنة « يوم لا يُخزي الله النبيّ والذين آمنوا معه » .

ثم إذا بنا في الآخرة مرة أخرى ، لنرى النبي والذين آمنوا معه « نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم » وقد رأينا هذا النور من قبل . فالآن نرى المؤمنين يبتهلون إلى ربهم كعادتهم دائماً « يقولون :

ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا إنك على كل شيء قدير » ولقد غفر لهم . ولكنهم من خشية ربهم يدعونه ، لأن مردَّ كل نعيم إلى غفرانه .

سورة التغابن [1]

﴿ يومَ يجمعكم ليوم الجَمْع . ذلك يوم التَّغَابُنِ . ومن يؤمنْ بالله ويعمَلْ صالحاً يكفِّرْ عنه سيئاته ، ويدخلْه جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . ذلك الفوزُ العظيم . والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها ، وبئس المصير ﴾ .

* * *

الجديد في هذا المشهد هو « التغابن » والتغابن بين المتبايعين أن يغبن بعضهم بعضاً . فما التغابن في ذلك اليوم الذي « لا بيعٌ فيه ولا خلالٌ » ؟ تلك تسمية لتوجيه النظر . فسلع الآخرة : الجنة والنار ، هي الخليقة بأن يتغابن الناس عليها ، وأن يجتهدوا في الفوز بها ، وذلك بالعمل الصالح في الدنيا . ذلك هو التغابن الحقيقي الذي يستحق السباق والجهاد ، وسيقع في الآخرة ، حيث يفوز المؤمنون بأطيب سلعة ، وحيث يحصل الكافرون فيها على الدون !

سورة المائدة [2]

١ - ﴿ إن الذين كفروا لو أنَّ لهم ما في الأرض جميعاً ، ومِثْلَهُ

(١) السورة (١٠٨) مدنية .

(٢) السورة (١١٢) مدنية إلا آية نزلت بعرفات في حجة الوداع سبقتها سورة « الصف » وفيها إشارات للقيامة وسورة « الجمعة » وهي خلو منها وسورة « الفتح » وفيها إشارات لا مشاهد .

معه ، ليفتدُوا به من عذاب يوم القيامةِ مَا تُقبِّل منهم ، ولهم عذابٌ أليمٌ ، يريدون أن يَخرُجُوا من النار ، وما هم بخارجين منها ، ولهم عذابٌ مقيمٌ ﴾ .

٢ – ﴿ يومَ يجمعُ الله الرسل ، فيقول : ماذا أُجِبْتُمْ ! قالوا لا عِلْم لنا . إنك أنت علاَّمُ الغيوب ﴾ .

٣ – ﴿ وإذْ قال الله : يا عيسىَ ابن مريمَ أأنت قلتَ للناس اتخذوني وأُمِّيَ إلٰهين من دونِ الله ؟ قال : سبحانك ! ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقّ ، إن كنتُ قلتُه فقد عَلِمتَه ، تَعْلَمُ ما في نفْسي ، ولا أعلم ما في نفْسِك . إنك أنت عَلاَّمُ الغُيوب . ما قلتُ لهم إلا ما أَمَرْتني به : أنِ اعبدوا الله ربِّي وربَّكم . وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم ؛ فلمَّا توَفَّيتَني كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم ، وأنت على كلِّ شيءٍ شهيد . إنْ تعذِّبْهم فإنهم عبادُك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيزُ الحكيم ﴾ .

﴿ قال اللهُ : هذا يومُ ينفعُ الصادقين صِدْقُهم ، لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبداً ، رضيَ الله عنهم ورضُوا عنه . ذلك الفوزُ العظيم ﴾ .

* * *

يتكرر المشهد الأول في مشاهد القيامة . مشهد محاولة الافتداء بملء الأرض ذهباً ، أو الافتداء بما في الأرض جميعاً ومثله معه ،

وعدم قبول الفدية أيًّا كان نوعها وقيمتها . وكذلك تتكرر محاولة الخروج من النار والفشل في هذه المحاولة . وهي هنا محاولة هادئة لا عنف فيها ، وقد سبقها ذلك المشهد العنيف الذي عرضناه في سورة الحج وشبيهه في سورة السجدة . وكلها من واد واحد مع اختلاف بعض الجزئيات .

ورفض الفدية هنا وهي ما في الأرض جميعاً ومثله معه . وهي أكبر من طاقة الجميع . رفضها في هذه الصورة الضخمة كناية عن استحالة الفداء بأي شيء كان ولكن الأسلوب التصويري في القرآن يسوقها هذا المساق التخييلي ، فتشغل مساحة من المكان كما تشمل فترة من الزمان الذي ينقضي بين العرض والرفض . مساحة ما في الأرض جميعاً ومثله معه نراه ونتخيله ؛ ومسافة الزمن ونحن نتملّى هذا ونتمثله ؛ فتشغل الحس والنفس ؛ وتؤدي في النهاية ذلك المعنى الذهني : استحالة الفداء . ولكن في صورة حية من الأداء .

٢ - أما المشهد الثاني فيصور لنا اجتماع الرسل جميعاً بين يدي ربهم ، وهو يسألهم : ماذا أجابكم الناس ؟ وهو العليم بما أجابهم الناس ؟ ولكنه تسجيل أو « استيفاء للإجراءات » في المحاكمة المنتظرة !

ومع أن المنتظر أن يتحدثوا بما أجابهم الناس ؛ وأن يقصوا أنباء إيمانهم وكفرهم ، ويعرضوا ما لاقوا من الجهد في الدعوة الشاقة . فإن هول الموقف - فيما يبدو - أنساهم كل شيء ؛ وأذهلهم عن الذكرى . « قالوا : لا علم لنا ، إنك أنت علام الغيوب » !

ومن خلال هذه الإجابة نستطيع أن نتصور مدى الذهول ؛ وأن ننظر من ورائه إلى الهول الرهيب الذي يذهل الرسل والنبيين

وهم واثقون آمنون . إنها بضعة ألفاظ تلقي ظلالاً رهيبة ، وما بين السطور فيها أكثر بكثير مما تعطيه السطور .

٣ – أما المشهد الثالث فبين الله وعيسى خاصة . وهو يناديه في هذا الموقف الرهيب : «يا عيسى ابن مريم» لأن لهذه النسبة هنا قيمة في الموضوع فهناك جماعة أَلَّهُوا عيسى البشر ، ابن مريم ، في حين أنه دعاهم لعبادة الله ربه وربهم (والحق أن الدعوة لله واضحة في الأناجيل التي بين أيدينا ، وإذا جاءت الشبهة من قوله عن الله : « أبي الذي في السموات » فقد قال كذلك للحواريين : « أبيكم الذي في السموات » فهو تعبير مجازي ظاهر) .

فها هو ذا يسأل أمام ربه : إن كان فيه دعاهم لعبادة نفسه وأمه ؟ فيكون الجواب هو هذا التبرؤ الطويل من تلك التهمة ، وهو تفويض الأمر لله ليتصرف في شأنهم كما يشاء . وعندئذ يصدر الحكم الذي لا يرد ، ويشار فيه إلى الصدق بمناسبة كذب هذه الدعوى . ويعبر عن المؤمنين بأنهم رضي الله عنهم ورضوا عنه . فالرضى متبادل شامل ، وهم من ربهم قريبون في هذا اليوم العظيم !

سورة التوبة [1]

﴿ والذين يَكنِزُون الذهبَ والفِضَّةَ ولا ينفقونها في سبيلِ الله ، فبشِّرْهُم بعذابٍ أليم . يوم يُحْمَى عليها في نار جهنم ، فتُكوَى

(١) السورة (١١٣) مدنية إلا آيتين مكيتين .

بها جباهُهم وجُنوبُهم وظهورهم : هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ .

* * *

يعرض هذا المشهد المفزع – وهو آخر مشهد – بتطويل وأناة ليبلغ من النفس أعماقها وهي تشهد التفصيل والجزئيات .

فهو أولاً أجمل العذاب : « فبشرهم بعذاب أليم » وقطع السياق ليستريح المشاهد ، ويأخذَ نَفسَه ، ويستعد للتفصيل ... ثم أخذ في التفصيل .

وهو ثانياً ، حينما بدأ التفصيل بعد الإجمال ، بدأ العمل من أول مرحلة ، وسار فيها على مهل ... فالذهب والفضة قد صارا جمعاً لا مثنى بالإلماع إلى قطعهما الكثيرة : « يوم يحمى عليها » – لا عليهما – وفي هذا تطويل بالتكثير . ثم ها هي ذي يحمى عليها ، فلننتظر حتى تصهر ! لقد صهرت ، فلتبدأ العملية الرهيبة . هذه هي الجباه تكوى ... لقد فُرغ من الكي في الجباه ، فلتحرك الأجسام للجُنوب . هذه هي الجنوب تكوى ... لقد فرغ من الكي في الجنوب ، فلتحرك الأجسام للظهور . هذه هي الظهور تكوى ... تمهل . فلم ينته العرض بعد . هنالك التقريع والتأنيب ، عند الانصراف من الصف ، لكي يتناول الكي جماعة أخرى على الإثر : « هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » !

وقد حفل الحس بصور شتى من الحركات ، وتملّى عدداً من الأوضاع والسمات .

التصوير الفني في القرآن

بدا لي في أثناء طبع هذا الكتاب ، أن هناك إيضاحاً واجباً ينبغي أن يقال ، بعدما بدأت كلمة « الفن » يساء استخدامها ، أو يساء فهمها ، أو يساء تأويلها في مجال القرآن .

وإني لأعترف بأنني حين اتخذت عنوان : « التصوير الفني في القرآن » لكتابي الأول منذ حوالي ثلاثة أعوام ، لم يكن لها في نفسي إلا مدلول واحد : هو جمال العرض ، وتنسيق الأداء ، وبراعة الإخراج . ولم يجل في خاطري قط أن « الفني » بالقياس إلى القرآن معناه : الملفق ، أو المخترع ، أو القائم على مجرد الخيال ! ذلك أن دراستي الطويلة للقرآن لم يكن فيها ما يلجئني إلى هذا الفهم أو هذا التأويل .

وأنا أجهر بهذه الحقيقة الأخيرة ، وأجهر معها بأنني لم أخضع في هذا لعقيدة دينية تغل فكري عن الفهم ؛ بل دفعني إليها أنني لم أجد مبرراً لسواها ؛ وعلى العكس وجدت أن احترام العقل البشري ذاته هو الذي يحتم علي ألا أتجاوز به طاقته ، وألا أجدف به في مجاهيل ، ليس عليها لديّ من دليل !

وإني لأعجب لم تنصرف كلمة « الفني » حتماً إلى الخيال الملفق ، والابتداع الذي لا يسنده الواقع ، والاختراع الذي يخرج على المعقول ؟ لماذا ؟

ألا يمكن أن تعرض الحقائق الواقعة عرضاً فنياً وعرضاً علمياً ؛

ثم تبقى لها في الحالتين صفتها الأساسية من الصدق والواقعية ؟

ألأن « هوميروس » كان يصوغ إلياذته وأوذيسته من الأساطير ؟

ألأن كتاب الرواية والأقصوصة والتمثيلية في أوروبا لم يكونوا يتوخون الوقائع الحقيقية في فنهم الطليق ؟

إن هذا فن . ولكنه ليس الفن كله . فالحقيقة تصلح أن تعرض عرضاً فنياً كاملاً . وليس من العسير أن نتصور هذا : متى خلصنا لحظة من « العقلية المترجمة » التي نعيش بها ، ومتى خلصنا تصورنا من النماذج الغربية البحتة ، ونظرنا إلى الاصطلاحات نظرة موضوعية شاملة .

* * *

ولعلني أوضحت شيئاً مما عنيته باصطلاح « التصوير الفني في القرآن » في الفقرات التي اقتطفتها في صدر هذا الكتاب من كتاب التصوير ، والتي لا أرى بأساً في إعادتها هنا بنصها :

« التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن . فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ؛ وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ؛ وعن النموذج الإنساني ، والطبيعة البشرية . ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها ، فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة . فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ؛ وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ؛ وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ؛ وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية . فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ؛ فيها الحياة ، وفيها الحركة ؛ فإذا أضاف إليها الحوار ، فقد استوت لها كل عناصر التخييل . فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة ؛ وحتى

ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول ، الذي وقعت فيه أو ستقع . حيث تتوالى المناظر ، وتتجدد الحركات ؛ وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ، ومثل يضرب ؛ ويتخيل أنه منظر يعرض ، وحادث يقع . فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من الموقف ، المتساوقة مع الحوادث ؛ وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتنم عن الأحاسيس المضمرة .

إنها الحياة هنا ، وليست حكاية الحياة »

وعندما أردت أن أتحدث عن خلاصة بحثي للقصة في القرآن في الفصل الطويل الذي عقدته لها ، واستغرق سبعاً وخمسين صفحة من كتابي : جاءت هذه الفقرات :

« القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه ، وطريقة عرضه ، وإدارة حوادثه – كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة ، التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق – إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية . والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء ، والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها ؛ شأنها في ذلك شأن الصور التي يرسمها للقيامة ، وللنعيم والعذاب ، وشأن الأدلة التي يسوقها على البعث وعلى قدرة الله ، وشأن الشرائع التي يفصلها ، والأمثال التي يضربها ... إلى آخر ما جاء في القرآن من موضوعات .

« وقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها ، وفي طريقة عرضها ، وإدارة حوادثها لمقتضى الأغراض الدينية ، وظهرت آثار هذا الخضوع في سمات معينة ، سنعرض لها بعد قليل . ولكن هذا الخضوع الكامل للغرض الديني ، ووفاءها بهذا الغرض تمام الوفاء ، لم يمنع بروز الخصائص الفنية في عرضها . ولا سيما خصيصة القرآن الكبرى في

التعبير ، وهي التصوير .

«وقد لاحظنا من قبل أن التعبير القرآني يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني ، فيما يعرضه من الصور والمشاهد . بل لاحظنا أنه يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني ، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية ، بلغة الجمال الفنية . والفن والدين صنوان في أعماق النفس ؛ وقرارة الحس ؛ وإدراك الجمال الفني دليل استعداد لتلقي التأثير الديني . حين يرتفع الفن إلى هذا المستوى الرفيع ، وحين تصفو النفس لتلقي رسالة الجمال» .

لم تكن هذه كلمات رجل تنقصه حرية التفكير . وإني لأعتز بالكلمة القصيرة الحاسمة التي وصف بها الأستاذ المحقق الكبير عبد العزيز فهمي باشا هذا الاتجاه فقال : «إنه ينم عن تحرر في العقل لم يتفق أن سمعنا بمثله من قبل» .

ولكن تحرر العقل لا يستدعي حتماً التهجم والتوقح والشطط ؛ ولنجرد القرآن من كل قداسة دينية ، ثم لننظر إليه كمصدر تاريخي بحت . فماذا نجد ؟ نجد أننا لا نملك كتاباً آخر ، ولا أثراً تاريخياً آخر في تاريخ البشرية كلها ، توافرت له أسباب التحقيق العلمي البحتة ، كما توافرت لهذا الكتاب .

وبديهي أننا لا نملك في إثبات صحة الحوادث التي تحدث بها القرآن أو عدم صحتها إلا وسيلتين اثنتين . ولكن واحدة منهما ليست قطيعة ، وليس لها من قوة الثبوت ما للقرآن .

إحدى الوسيلتين اللتين في أيدينا : الأسانيد التاريخية الأخرى . فإذا نحن جردنا القرآن من قداسته – كما قلت – فإنه ككتاب تاريخي ، يكون أقوى إسناداً من الوجهة العلمية البحتة من كل مرجع

تاريخي آخر في الوجود ... راوي هذا الكتاب هو « محمد بن عبد الله » وهو رجل يعترف خصومه قديماً وحديثاً أنه رجل صادق ، ولا يشذ على هذا إلا شذاذ أفاكون متعصبون ! وقد جمع هذا الكتاب بطريقة علمية لا يطعن فيها أحد ، حتى السادة المستشرقون الذين يؤمن بهم عندنا من لا يحبون أن يؤمنوا بالأديان !

ومثل هذا التحقيق العلمي لم يتهيأ لكتاب آخر ، لا من الكتب المقدسة ، ولا من الكتب التاريخية ! ولا من الآثار التاريخية أيضاً ؛ فالكتب المقدسة الأخرى ، قد انقضت فترات طويلة بين حياة أصحابها وعصر تدوينها ، ولم ترو بالإسناد التي روي بها القرآن . والكتب التاريخية والآثار التاريخية لا ترتفع فوق مستوى الشبهات . وليست هناك حادثة تاريخية واحدة في تاريخ البشرية تعد يقينية يقيناً علمياً خالصاً .

إذن لا تجوز محاكمة القرآن – ككتاب تاريخي بحت – إلى أي كتاب تاريخي آخر ، أو أي سند تاريخي ، ليس له من قوة الثبوت ما لكتاب القرآن .

والوسيلة الأخرى التي بين أيدينا هي العقل . ولست أتردد في التصريح بأن احترام العقل البشري ذاته ، يوجب عليه أن يفسح للمجهول مجاله ، وأن يحسب له حسابه . لا عن طريق الإيمان الديني ، ولكن عن طريق التفكير العقلي . وإن العقل البشري ليسقط احترامه حين يدعي أنه يعلم كل شيء . وهو لا يعلم نفسه ، ولا يدري كيف يدرك المدركات !

ولقد قلت شيئاً من هذا عن هذه القضية في كتاب التصوير ، توضحه هذه الفقرات .

«وبعض الناس يكبرون من قيمة الذهن في هذه الأيام ، بعد ما فتن الناس بآثار الذهن في المخترعات والمصنوعات والكشوف . وبعض البسطاء من أهل الدين تبهره هذه الفتنة ، فيؤمن بها ، ويحاول أن يدعم الدين بتطبيق نظرياته على قواعد المنطق الذهني ، أو التجريب العلمي !

«إن هؤلاء في اعتقادي - يرفعون الذهن إلى آفاق فوق آفاقه . فالذهن الإنساني خليق بأن يدع للمجهول حصته ، وأن يحسب له حسابه . لا يدعو إلى هذا مجرد القداسة الدينية ، ولكن يدعو إليه اتساع الآفاق النفسية ، وتفتح منافذ المعرفة . «فالمعقول» في عالم الذهن ، و«المحسوس» في تجارب العلم ، ليسا هما كل «المعروف» في عالم النفس . وما الفكر الإنساني - لا الذهن وحده - إلا كوة واحدة من كوى النفس الكثيرة . ولن يغلق إنسان على نفسه هذه المنافذ ، إلا وفي نفسه ضيق ، وفي قواه انحسار ، لا يصلح بهما للحكم في هذه الشؤون الكبار .

«فلندع الذهن يدبر أمر الحياة اليومية الواقعة ، أو يتناول من المسائل ما هو بسبب من هذه الحياة» .

وليس في هذه الفقرات إنكار للفكر الإنساني وحريته ؛ ولكن فيها احتراماً لهذا الفكر ، بمعرفة قدره ومجاله .

وإذا كان رجال الدين في أوروبا - لا الدين ذاته - قد وقفوا في طريق حرية البحث العلمي - حتى في العالم المادي - فنشأت عداوة جارفة بين رجال الفكر ورجال الدين ، فلا يجوز أبداً أن ننقل الموضوع برمته إلى الشرق ، وإلى الإسلام ، فيكون مظهر حرية الفكر الوحيد عندنا ، هو التهجم والتقحم ، بلا سند إلا هذا السند الذي يتجاوز

دائرته . فهذا نفسه هو التقليد المعيب ، الذي يدل على أن حرية الفكر هذه زي من أزياء « المودة » نقلده تقليد العبيد !

* * *

وبعد فلست أنكر أن شبهات اعترضت طريقي ، وأنا أبحث موضوع « القصة في القرآن » و« مشاهد القيامة في القرآن » .

أهذا كله مسوق على أنه حاصل واقع ؟ أم إن بعضه مسوق على أنه صور وأمثال ؟

ووقفت طويلاً أمام هذه الشبهات . ولكنني لم أجد بين يدي حقيقة واحدة من حقائق التاريخ أو حقائق التفكير ، أطمئن إلى يقينيتها وقطيعتها ، فأحاكم القرآن إليها . وما كان يجوز لديّ أن أحاكم القرآن إلى ظن أو ترجيح .

لم أكن في هذه الوقفة رجل دين تصده العقيدة البحتة عن البحث الطليق . بل كنت رجل فكر يحترم فكره عن التجديف والتلفيق .

فإذا وجد سواي هذه الحقيقة التي يحاكم إليها القرآن ، فأنا على استعداد أن أستمع إليه ، في هدوء واطمئنان . أما قبل أن توجد ، فإنه يكون من الخفة والطيش ، إن لم يكن من احتقار « الفكر » وتعريضه للمهانة – أن يقضي الإنسان برأي ، يكذِّب به هذا الكتاب ، ولو لم يكن له نصيب من عقيدة أو دين .

الفن في القرآن : إبداع في العرض ، وجمال في التنسيق ، وقوة في الأداء . وشيء من هذا كله لا يقتضي أنه يعتمد على الخيال والتلفيق والاختراع . متى استقام التفكير وصحت الأفهام !

٣١ ديسمبر سنة ١٩٤٧ **سيد قطب**

مراجع هذا الكتاب

كان مرجعي الأول في هذا الكتاب هو المصحف الشريف . وقد اعتمدت على فهمي الخاص لأسلوب القرآن الكريم وطريقته في التعبير ، وإن كنت قرأت كثيراً من التفاسير ، لأعرف ماذا يقال . ولكنني لا أستطيع أن أثبتها هنا ، لأنها لم تكن مراجع لي في الحقيقة .

واستعنت في ترتيب السور وبيان الآيات المكية والمدنية بتحقيقات المصحف الأميري ، وبما ورد في بعض كتب التفسير وبخاصة : البيضاوي . وأبي السعود . والزمخشري . والرازي . وبترجيحي الخاص في النادر .

أما بقية مراجع الفصول الأولى من الكتاب فهي مذكورة في الصلب أو الحاشية في مواضعها .

المحتويات

من كتب دار الشروق الإسلامية

القضاء والقدر
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي
قضايا إسلامية
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي
التعبير الفني في القرآن
الدكتور بكري الشيخ أمين
أدب الحديث النبوي
الدكتور بكري الشيخ أمين
الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
اليهود في القرآن
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
أيام الله
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
مسلمون وكفى
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
الدعوة الوهابية
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
قال الأولون ـ أدب ودين
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني
قل يا رب
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني
الإيمان الحق
المستشار علي جريشة
الجديد حول أسماء الله الحسنى
الأستاذ عبد المغني سعيد
الجائز والممنوع في الصيام
الدكتور عبد العظيم المطعني

مناسك الحج والعمرة في ضوء المذاهب الأربعة
الدكتور عبد العظيم المطعني
أيها الولد المحب
الإمام الغزالي
الأدب في الدين
الإمام الغزالي
شرح الوصايا العشر
للإمام حسن البنا
القرآن والسلطان
الأستاذ فهمي هويدي
خفايا الإسراء والمعراج
الأستاذ مصطفى الكيك
الخطابة وإعداد الخطيب
الدكتور عبد الجليل شلبي
تأريخ القرآن
الأستاذ إبراهيم الأبياري
الإسلام والمبادئ المستوردة
الدكتور عبد المنعم النمر
سلسلة أعلام الإسلام ١٦/١
سلسلة أهل البيت ٦/١
إسهام علماء المسلمين في الرياضيات
تأليف الدكتور علي عبد الله الدفَّاع
تعريب وتعليق الدكتور جلال شوقي
مراجعة الدكتور عبد العزيز السيد
الخبر الواحد في السنة والتراث وأثره في الفقه الإسلامي
الدكتورة سهير رشاد مهنا
الأديان القديمة في الشرق
دكتور رؤوف شلبي

رقم الإيداع : ٧٦٢٨ / ٨٨
ترقيم دولي : ٩٧٧ - ١٤٨ - ٢٧٥ - ٠

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



في ظلال القرآن
العدالة الاجتماعية في الإسلام
خصائص التصور الإسلامي ومقوماته
النقد الأدبي أصوله ومناهجه
كتب وشخصيات
الإسلام ومشكلات الحضارة
التصوير الفني في القرآن
مشاهد القيامة في القرآن
معركتنا مع اليهود
تفسير سورة الشورى
تفسير آيات الربا
دراسات إسلامية
السلام العالمي والإسلام
معركة الإسلام والرأسمالية
في التاريخ فكرة ومنهاج
معالم في الطريق
هذا الدين
المستقبل لهذا الدين
نحو مجتمع إسلامي



